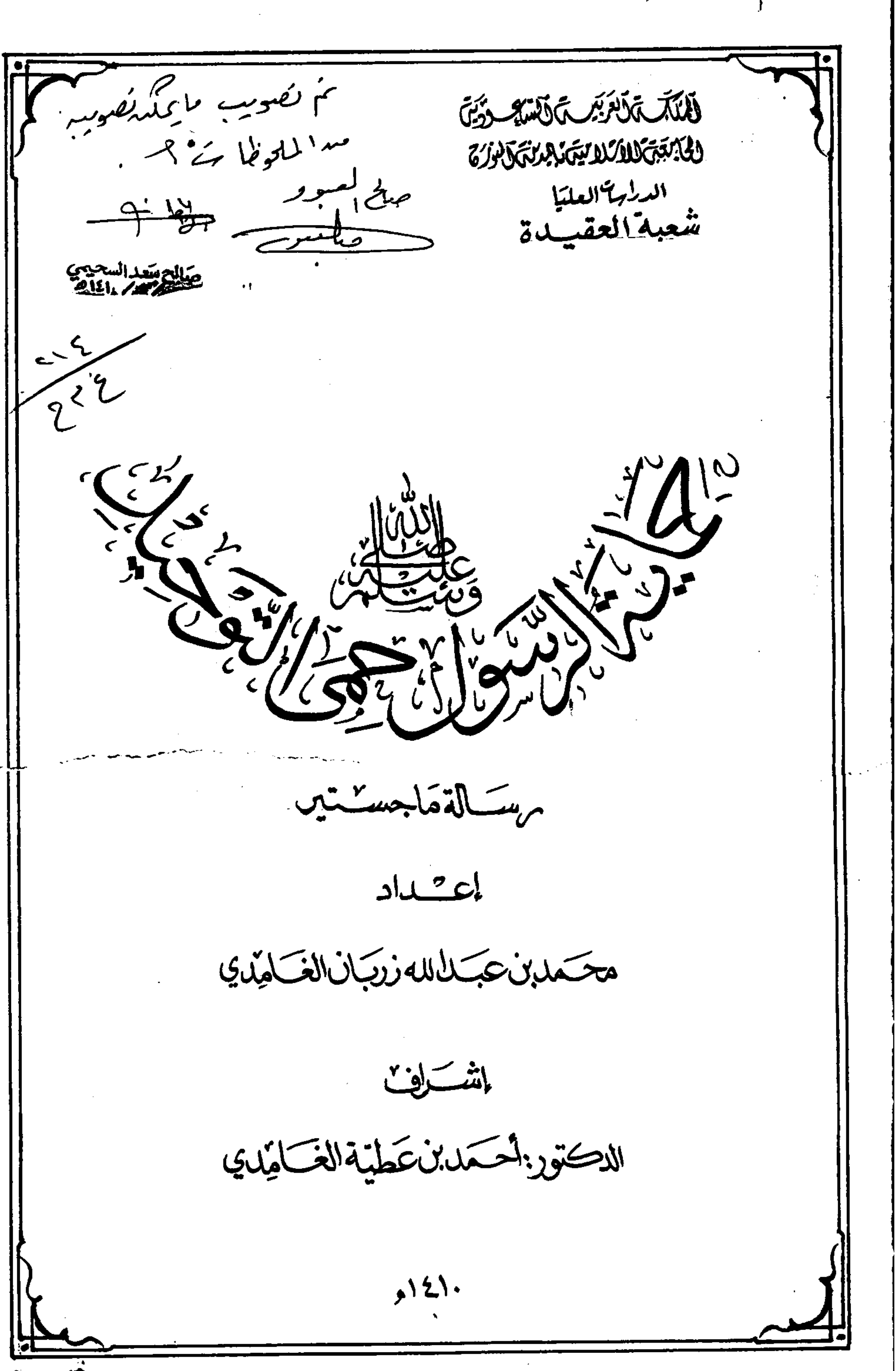


المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
الدراسات العليا
شعبة العقيدة

حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد

رسالة ماجستير

إعداد

محمد بن عبد الله زربان الغامدي

إشراف

الدكتور: أحمد بن عطية الغامدي

١٤١٠هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه . وبعد ...

يطيب أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لحكومة هذه البلاد وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين على ما تقدمه لخدمة الإسلام وأهله ، ومن ذلك هذه الجامعة الإسلامية التي تستقبل أبناء المسلمين من أرجاء المعمورة .

كما أتقدم بالشكر لمعالي رئيس الجامعة على جهوده المتواصلة للسير بهذه الجامعة إلى تحقيق الأهداف التي من أجلها أسست . وإلى قسم الدراسات العليا بالجامعة . وإلى فضيلة المشرف الدكتور أحمد بن عطية الغامدي الذي بذل وقته وجهده على متابعته لهذا البحث حتى تم إنجازه بتوفيق الله .

كما أشكر كل من ساعدني على ذلك .

وأسأل الله أن يجزي الجميع خيرا ، وأن يجعل العمل خالصا لوجهه ، إنه جواد كريم . وصلى الله على محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه وسلم .

الباحث / محمد بن عبد الله زربان الغامدي

المقـــدمَة

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" مقدمـــــة "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله واصحابه أجمعين .

أما بعـــــــد :

فبفضل الله تعالى وتوفيقه يسر لي القبول في الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ولما كان من نظامها تقديم بحث علمي في مجال التخصص لنيل درجة الماجستير .

ولأن تخصصي في علم العقيدة الاسلامية ، الذي هو اشرف العلوم قدرا وأرفعها مكانة ، فقد اجتهدت كثيرا في اختيار الموضوع المناسب ، وبتوفيق الله تعالى وقع اختياري على موضوع :

((حماية الرسول صلي الله عليه وسلم حمي التوحيـد))

وذلك للأسباب الآتيــة :

أولا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي علمنا توحيد ربنا عز وجل كان أول ما دعا اليه ، وحياته كلها كانت دعوة اليه ، وحماية لـه ، حرصا على امته وخوفا عليها وبيان ذلك من اعظم ما يهم كل مسلم موحد .

ثانيا : أن هذا الموضوع ـ فيما اعلم ـ لم يكتب عنه في بحث مستقل شامل لهذه الحماية منه صلى الله عليه وسلم ، وانما ورد ضمن غيره في كتب بعض العلماء .

ثالثا : التذكير بهذه الحماية ، وأنها امانة في عنق كل مسلم حسب استطاعته الشرعية ، ولعل هذا البحث المتواضع أداء لبعض هذه الأمانة .

وقد رتبت هذا البحث على : مقدمة ، وخمسة فصول وخاتمة :

المقدمة : بينت فيها معنى التوحيد ، والمفاهيم الخاطئة في هذا المعنى .

الفصل الأول : نماذج من دعوة الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في مباحث :

المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام

المبحث الثاني: دعوة هود عليه السلام

المبحث الثالث : دعوة صالح عليه السلام

المبحث الرابع : دعوة ابراهيم عليه السلام

المبحث الخامس : دعوة موسى عليه السلام

المبحث السادس : دعوة عيسى عليه السلام

الفصل الثاني : دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ـ في أربعة مباحث :

المبحث الأول : حال الناس قبل بعثته عليه الصلاة والسلام

المبحث الثاني : بعثته عليه الصلاة والسلام

المبحث الثالث : دعوته عليه الصلاة والسلام :

أ ـ المرحلة المكية

ب ـ المرحلة المدنية .

المبحث الرابع : أهمية التوحيد وانه أول واجب على العبد .

الفصل الثالث : انواع التوحيد - في أربعة مباحث :

المبحث الأول : توحيد الربوبيــة

المبحث الثاني : توحيد الالوهيــة

المبحث الثالث : توحيد الاسماء والصفات .

المبحث الرابع : منهجه عليه الصلاة والسلام في الدعوة الى التوحيد .

وقبل هذه المباحث بيان لأصل هذا التقسيم .

الفصل الرابع : أنواع الشرك - في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الشرك الأكبـر

المبحث الثاني : الشرك الأصغـر

المبحث الثالث : الشرك الخفـي

الفصل الخامس : منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية التوحيد .

في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : حمايته لتوحيد الربوبية

المبحث الثاني : اهتمامه عليه الصلاة والسلام بتوحيد الالوهية وحمايته له .

المبحث الثالث : حمايته لتوحيد الاسماء والصفات .

الخاتمــة : وقد ذكرت فيها أهم النتائج التي وصلت اليها في هذا البحث .

وقد بذلك جهدي في هذا الموضوع مستعينا بالله وحده لا شريك لــه ، ثم بما كتبه علماء الاسلام المخلصين ، واجتهدت في ذلك رغم قلة الوقـت والعلم .

وأرجو أنني قد أديت شيئا مما يستحقه هذا البحث ، وأرجو الله تعالى أن يتقبل بعملي هذا خالصا لوجهه ، ولا شك أن كل عمل بشري عرضة للقصور والخطأ ، وحسبي أنني قد اجتهدت ، فما كان فيه من كمال وتوفيق للحق فمن الله ، وما كان من قصور وخطأ فمني ومن الشيطان .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه .

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" تمهيـــــد "

أرى من المناسب قبل الدخول في موضوعات البحث أن أقدم بين يديه تعريفا للتوحيد لغة واصطلاحا ، مع بيان ما حصل من مفاهيم خاطئة لمدلول التوحيـــــد الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما لغــةً :

فالتوحيد : مصدر وحد الشيء يوحده توحيدا ، اذا أفرده ، والوحـــدة : الانفراد ، والله تعالى هو الواحد والأحد : ذو الوحدانية والتوحيد ، والفـــرق بينهما أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد ، تقول : ما جاءني أحد .

والواحد : اسم بني لفتـح العدد ، فتقول : جاءني واحد من النــاس ، ولا تقول : جاءني أحد ، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، والأحـد منفرد بالمعنى .

قال ابن الأثير : " في اسماء الله تعالى ((الواحد)) هو الفرد الذي لـم يزل وحده ، ولم يكن معه آخر "[١] .

قال الأزهري : " وأما اسم الله عز وجل ـ أحد ـ فانه لا يوصف شـــيء بالأحدية غيره ، لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل وحَـــدٌ أي ـ فرد ، لأن أحدا صفة من صفات الله عز وجل استخلصها لنفسه ، ولا يشركـــه

---

(١) ابن الأثير ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ١٥٩/٥

فيها شيء ، وليس كقولك : الله واحد ، وهذا شيء واحد "[1] .

ومما تقدم يتبين أن مادة (وحد) تدل على الانفراد ، فالواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد ، يقال : هو واحد في قبيلته ، اذا لم يكن مثله . قال الشاعر :

يا واحد العرب الذي .... ما في الأنام له نظير[2]

فوَحَدَ تدل على التفرد وعدم النظير والمثيل للشيء فيما كان واحِدًا فيه ، والله عز وجل هو الواحد الأحد ، المتصف بصفات الكمال ، فهو واحد أحد في ذاته ، وأفعاله ، وفي اسمائه وصفاته ، لا نظير له في ذاته وصفاته ، ولا ند له في الهيئة ولا شريك له في ربوبيته وملكه[3] .

التوحيد في الاصطلاح :

مادة (وَحَدَ) كما تقدم في المعنى اللغوي تدل على التفرد ، والتوحيد مصدر وحد ، يوحد ، توحيداً ، أي جعله واحدا .

والتوحيد في الاصطلاح : افراد الله تبارك وتعالى بالعبادة ، واخلاصها له وحده لا شريك له وهذا هو دين الرسل الذي أرسلهم الله الى عباده[4] .

فافراد الله سبحانه بالعبادة يقتضي أن تصرف جميع العبادات له عز وجل خالصة له دون من سواه كائنا من كان ، لأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له ولامثيل

---

(١) الأزهري ـ تهذيب اللغة ١٩٧/٥

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة ٩٠/٦ .

(٣) انظر : تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ص ٣٣ .

(٤) انظر : كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبدالوهاب ، مجموعة التوحيد ص ٩٣ ط دار البيان .

ولا كفء ولا ند في ذاته وافعاله وأسمائه وصفاته ، قال تعالى : ((وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو))[١] .

وقال عز وجل : ((وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة))[٢] .

وقال جل شأنه : ((قل الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه))[٣] .

وقال تبارك وتعالى : ((إياك نعبد ، وإياك نستعين))[٤] .

وقال سبحانه : ((فاعبده واصطبر لعبادته ، هل تعلم له سميا))[٥] .

وقال عز من قائل : ((قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد))[٦] .

وقال جل وعلا : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))[٧]

ومن كان هذا شأنه وهذه صفته كان هو المستحق أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له ، وكان صرف شيء منها لغيره شركاً وجهلاً وضلالاً .

والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

وبهذا المعني فهي حق له تعالى على عباده لا يستحقها أحد سواه ، كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال : (كنت رديف النبي صلى الله

---

(١) الآية ٣١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٥ من سورة البينة .
(٣) الآية ١٤ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٥ من سورة الفاتحة .
(٥) الآية ٦٥ من سورة مريم .
(٦) سورة الأخلاص .
(٧) الآية ١١ من سورة الشورى .

عليه وسلم على حمار ، فقال : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وماحق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله : أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت : يا رسول الله ، أفلا ابشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا)[١] .

ومما تقدم نعلم أن افراد الله عز وجل بالعبادة واعتقاد أنه سبحانه لا شريك له ولا ند ولا مثيل في ربوبيته والهيته واسمائه وصفاته ، حق واجب له تعالى على عباده ، بل أول الواجبات وأعظمها وأساسها .

وهذا هو دين الله عز وجل الذي أرسل به رسله جميعا من نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[٢] .

وقال سبحانه : ((وما أرسلنا من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون))[٣] .

وقال عز وجل : ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب))[٤] .

فجميعهم جاءوا يدعون الى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة غيره منذ أن ظهر أول شرك في الأرض حتى بعث الله خاتمهم محمدا صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) صحيح البخاري مع الشرح ٣٩٧/١٠ ، وصحيح مسلم مع الشرح ٥٩٥٨/١ .
(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الانبياء .
(٤) الآية ١٣ من سورة الشورى .

فالعجب كل العجب ممن يشرك بالله بعد ذلك وله أدنى بصيرة ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

المفاهيم الخاطئة في معنى التوحيد :

ومع وضوح الرؤية وظهور الأدلة في هذا الجانب ، فقد وجدت طوائف فهمت التوحيدفهما خاطئا وضلت في ذلك ضلالا بعيدا ، وجعلت هذا الفهم الخاطيء غاية توحيدها ، واساس معتقدها .

والسبب في ذلك هو البعد عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والاعتماد على العقل وحده ، وتقديمه على النصوص ، ومعلوم تباين العقول واختلاف الأفهام .

ومن أهم الطوائف التي سلكت هذا المسلك :

المعتزلة :

وهم الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد ، وجعلوه الأصل الأول من أصولهم ، وغاية هذا التوحيد عندهم : نفي صفات الله عز وجل ، فيثبتون له سبحانه ذاتا مجردة عن الصفات ، ووجودا مطلقا بشرط الاطلاق ، لاعتقادهم أن اثباتها يوجب مشابهة الله لخلقه ، وهذا شرك .(١)

فكل من أثبت لله تعالى علما أو قدرة ، أو انه يُرى في الآخرة ، أو أن القرآن كلامه منزل غير مخلوق ، أو أنه سميع بصير ، مستو على عرشه بائن من خلقه ، وغير ذلك من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ، فهو عندهم مشبه وليس بموحد .

---

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ١٤٩ وما بعدها ، وفتح الباري للحافظ ابن حجر ٣٤٤/١٣ ط دار المعرفة .

فالحكم عندهم هو العقل فما وافقه قبلوه ، وما لم يوافقه ردوه وأنكروه أو فوضوه أو أولوه ، ولايضاح هذا المنهج يقول الامام ابن تيمية رحمه الله :

" ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانونا فيما جاءت به الأنبياء عن الله ، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعا له ، فما وافق قانونهم قبلوه ، وما خالفه لم يتبعوه "(١) .

والمعتزلة متفقون جميعا على نفي صفات الله تعالى ، ويسمون ذلك توحيدا ، ولكنهم يختلفون في التعبير عن ذلك :

فمنهم من يقول : انها نفس الذات ، فيقول : ان الله عالم بعلم هو ذاته وقادر بقدرة هي ذاته ونحو ذلك ، ومن هؤلاء أبو الهذيل العلاف .(٢)

ومعنى ذلك عندهم : أن الذات تسمى باعتبار تعلقها بالمعلوم علما ، ونحو ذلك في بقية الصفات ، لا أن الصفات شيء غير الذات .

ومنهم من يعبر عنها بالسلب ونفي الضد ، فمعنى كونه عالما - عندهم - ليس بجاهل ، وقادرا ليس بعاجز ، ونحو ذلك ، ومن هؤلاء النظام .(٣)

ومنهم : من يعبر عنها بأنها أحوال وراء الذات ، فيقول مثلا : لله عالمية وقادرية ، لا علما ولا قدرة ، ثم يقول : وهذه الأحوال ليست بموجودة ولا معدومة ، وأشهر من قال بذلك : أبو هاشم ، حتى نسبت اليه فقيل : احوال أبي هاشم .(٤)

---

(١) ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل ٦/١ ط الأولى تحقيق د. محمد رشاد سالم .

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٤٩/١ ، ومقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري ٢٤٥/١ .

(٣) انظر مقالات الاسلاميين ٢٤٧/١ . (٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٨٢/١ .

وقوله هذا محال ، اذ لا يتصور حصول شيء وقيامه ، وهو لا موجود ولا معدوم .

وقد اعتمد المعتزلة في نفيهم صفات الله سبحانه وتعالى على قاعدة فاسدة ، اتخذوها من عند أنفسهم مبعثها : بعدهم عن كتاب الله عز وجل ، وتقديمهم العقل على النص ، ثم الأقيسة الفاسدة ، والتأويلات الباطلة التي درجوا عليها ، فقالوا : لو أثبتنا الصفات وقلنا : انها زائدة على الذات ، فان قلنا : انها محدثة لزم من ذلك قيام الحوادث بذاته تعالى .

وان قلنا : بأنها قديمة ، لزم من ذلك تعدد القدماء ، والقائل بذلك يقع في أشد مما وقعت فيه النصارى فهم قالوا بقدماء ثلاثة ، وهو يقول بأكثر من ذلك !

وبناء على قولهم هذا ، فمن أثبت صفات الله على حقيقتها فقد شبه الله بخلقه ، وهذا شرك ، أو يقول بتعدد القدماء وهذا شرك - عندهم - اشد من شرك النصارى ، الذين قالوا : ((ان الله ثالث ثلاثة)) .

وسبب ضلالهم هذا كما سلف ذكره هو عدم اعتصامهم بالكتاب والسنة .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " وعامة هذه الضلالات انما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة ، كما كان الزهري يقول : كان علماؤنا يقولون : الاعتصام بالسنة هو النجاة ، وقال مالك رحمه الله : السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، ثم يقول شيخ الاسلام رحمه الله : "والعجب أن من هؤلاء من يصرح بأن عقله اذا عارضه الحديث - لا سيما في أخبار الصفات - حمل الحديث على عقله ، وصرح بتقديمه على الحديث ، وجعل عقله ميزانا للحديث فليت شعري هل عقله هذا مصرحا بتقديمه في الشريعة المحمدية ، فيكون من السبيل المأمور باتباعه ، أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل ،

فلا حول ولا قوة الا بالله "[١].

ومن جهلهم بكتاب الله تعالى تشبيههم لمن أثبت صفات الله تعالى وقال انها قديمة بالنصارى حيث قالوا : ((ان الله ثالث ثلاثة)) ، وهذا تشبيه باطل وقياس فاسد ، فان سبب كفر النصارى أنهم قالوا بثلاثة آلهة كما قال تعالى : ((لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد))[٢] ، فقد كذبهم الله بقوله عز وجل : ((وما من إله إلا إله واحد)) ، ولم يقل : وما من قديم الا قديم واحد[٣].

وقد جعلوا لفظ (القديم) من اسماء الله تعالى ، والحق أنه ليس من أسماء الله الحسنى ، وهي التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والقديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره ، ولم يستعمل فيما لم يسبقه عدم ، والأمثلة على ذلك في كتاب الله تعالى كثيرة . قال عز من قائل : ((والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم))[٤] ، والعرجون القديم هو الذي يبقى الى حين وجود العرجون الثاني ، فاذا وجد قيل للأول قديم .

وقال جل شأنه : ((وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم))[٥] ومعناه التقدم في الزمان .. وغير ذلك من الأدلة .

وقد جاء الشرع باسم (الأول) ، وهو أحسن من (القديم) ، فهو يشعر بأن ما بعده راجع اليه وتابع له بخلاف القديم . قال الله تبارك وتعالى :

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ٥٦/٤ ، ٧ .
(٢) الآية ٧٣ من سورة المائدة .
(٣) انظر كتاب ابن تيمية السلفي ، لمحمد خليل هراس ص ٩٣ .
(٤) الآية ٣٩ من سورة يس .
(٥) الآية ١١ من سورة الأحقاف .

((هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم))[١] .

والله تعالى وحده له الأسماء الحسنى ، ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون))[٢] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر)[٣] . ولفظ القديم ليس من أسماء الله تعالى الثابتة في الكتاب والسنة .[٤]

وقد لجأ المعتزلة الى هذا القول فرارا من التشبيه ، الذي يرونه لازما لاثبات صفات الله تعالى كما يزعمون ، فيرون ان من أثبت صفات الله تعالى على الحقيقة فقد شبه الله بخلقه ، وهذا شرك ، فهم قد فروا من أمر ووقعوا في أعظم منه وهو التعطيل ، اذ عطلوا صفات الله سبحانه التي اثبتها لنفسه واثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا ذلك غاية التوحيد عندهم .

ولا شك أن من شبه الله بخلقه فقد أشرك ، ولكن ذلك ليس لازما من اثبات صفات الله تعالى ، فله سبحانه صفاته التي تليق بجلاله وعظمته ووحدانيته ، والمخلوق له صفاته التي تناسبه ، ولا يلزم من توافقها في الاسم توافقها في الحقيقة ، بل ان المخلوقات نفسها قد تتوافق في الأسماء مع تباين الحقائق واختلافها كما هو معلوم .

---

(١) الآية ٣ من سورة الحديد .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) صحيح البخاري مع الشرح ٢١٤/١١ ، وصحيح مسلم مع الشرح ٢٠٦٢/٤ .

(٤) انظر كتاب شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١١٢ ـ ١١٣ .

والواقع أن المعتزلة أنفسهم بقولهم هذا قد وقعوا في التشبيه أيضا ، بل في أقبحه ، فهم حين أثبتوا لله تعالى ذاتا مجردة من الصفات ، وهذا لا يتصور الا في الاذهان ولا حقيقة له في الخارج ، فهم بفعلهم هذا قد شبهوا الله تعالى بالمعدومات ، مما قد يؤدي بهم الى نفي وجود الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

الجهمية :

الجهمية هم اتباع الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم ، أول من قال بتعطيل الصفات ، وأخذها عنه الجهم ، وأظهرها فنسبت اليه ، وقيل ان الجعد ابن درهم أخذ عن أبان بن سمعان ، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وهو اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي ترجع في أصلها الى اليهود .

ولما أظهر الجعد بن درهم مقالته في نفي الصفات في زمن هشام بن عبدالملك ، وكان الجعد في مدينة واسط ، وعامل هشام عليها خالد بن عبدالله القسري ، فقتله في يوم الأضحى كما ورد عنه أنه قال للناس يوم الأضحى أرجعوا فضحوا تقبل الله منكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، فانه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله علوا كبيرا عما يقول ابن درهم ، ونزل وذبحه .[(١)]

ويتبين مما ذكر أن أساس مذهب الجهمية بما فيه من كفر والحاد قد نبع أصله من اليهود أعداء الله تعالى وأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، كما

---

(١) انظر كتاب خلق أفعال العباد للامام البخاري ص ٧ ، وكتاب لوامع الأنوار البهية لمحمد بن احمد السفاريني ١٦٤/١ .

نبع الرفض منهم على يدي عبدالله بن سبأ اليهودي .

وخلاصة قول الجهمية في التوحيد : انكار أسماء الله عز وجل وصفاته ، وتعطيلها ، فيقولون : لا يجوز أن يوصف الله تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك تشبيه لله بخلقه [١] ، فهم في نفي الصفات متفقون مع المعتزلة ، وقد تقدم الكلام عن معنى التوحيد عندهم ، وهم تلامذة الجهمية ، وكل هذا ناتج عن كيدهم للاسلام وبعدهم عن كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهلهم بهما واعتمادهم على ما تمليه عقولهم ، فمعرفة الانسان للحق والهدى بقدر قربه وفهمه لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسلامته من الأغراض والمقاصد الخبيثة .

فهؤلاء وأمثالهم ظنوا أن كل صفة يمكن أن يوصف بها المخلوق لا يجوز أن يوصف الله بها ، لزعمهم أن ذلك يستلزم تشبيه الله بخلقه ، وهذا لازم فرضوه على أنفسهم من عند أنفسهم نتيجة ما تمليه عليهم عقولهم البعيدة عن الكتاب والسنة ، والمعلوم عند أهل الحق أن لكل شيء صفة تناسبه ، حتى بين المخلوقات نفسها .

والجهمية شر الطوائف المبتدعة ، وقد مكث زعيمها جهم أربعين يوما لا يعرف ربه ، قال الامام أحمد رحمه الله : " فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان ، من أهل ترمذ ، وقد كان صاحب خصومات وكلام ، وكان أكثر كلامه في الله تعالى ، فلقي أناسا من المشركين يقال لهم

---

(١) انظر الرد على الزنادقة والجهمية للامام احمد ص ٢٠ .
و الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١١ ، والملل والنحر للشهرستاني ٨٦/١ .

السمنيه [(١)] ، فعرفوا الجهم فقالوا له : نكلمك فان ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا ، وان ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك ، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له :ألست تزعم أن لك الـها ؟ قال الجهم : نعم ، فقالوا له : فهل رأيت الـهك ؟ قال : لا ، قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا ، قالوا : فشممت رائحته ؟ قال : لا ، قالوا : فما يدريك انه اله ؟ قال : فتحير الجهم، فلم يدر من يعبد أربعين يوما .

ثم انه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى ، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله ، فاذا أراد أن يُحدث أمرا دخل في بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه ، فيأمر بما يشاء ، وينهي عما يشاء ، وهو روح غائبة عن الأبصار ، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة ، فقال للسمني : ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال : نعم ، فقال : هل رأيت روحك ؟ قال : لا ، قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا ، قال : فوجدت له حسا أو مجساً ؟ قال : لا ، قال : فكذلك الله : لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولم يشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصا ر، ولا يكون في مكان دون مكان ، ووجد ثلاث آيات من المتشابه : قوله : ((ليس كمثله شيء))[(٢)] ، ((وهو الله في السموات والأرض))[(٣)] ، ((لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار))[(٤)] ، فبنى أصل كلامه على هذه الآيات ، وتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحاديث رسول الله

---

(١) السُّمَنية : بضم السين وفتح الميم : فرقة من عبدة الأصنام تقول بالتناسخ ، وتنكر وقوع العلم . ابن منظور ـ لسان العرب ٢٢٠/١٣ .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٣ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن من وصف الله بشيء بما وصف به نفسه في كتابه ، أو حدث عنه رسوله ، كان كافرا ، وكان من المشبهة ، فأضل بكلامه بشرا كثيرا ، وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة[(١)] ، وأصحاب عمرو بن عبيد[(٢)] بالبصرة ، ووضع دين الجهمية "[(٣)] .

فغاية توحيد الجهمية وأمثالهم من المعطلة نفي صفات الله تعالى بدعوى تنزيهه عن مشابهة الخلق ، فيعطلونه سبحانه من صفات الكمال الثابتة له عز وجل بهذه الدعوى الباطلة ، ويقعون في شر مما فروا منه ، وهو تشبيه الله تعالى بالمعدومات ، وهذا من أجهل الجهل وأضل الضلال ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

قال الامام ابن قيم الجوزيه رحمه الله : " وتوحيد الجهمية والفلاسفة مناقض لتوحيد الرسل من كل درجة ، فان مضمونه انكار حياة الرب وعلمه وقدرته وسمعه وبصره ، وكلامه واستوائه على عرشه ، ورؤية المؤمنين له بأبصارهم عيانا من

---

(١) هو الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله تعالى ، أحد الأئمة الأربعة ، ولد سنة ٨٠ هـ ، وتوفى سنة ١٥٠ هـ ، رأى انس بن مالك رضي الله عنه . وكان اماما ورعا عالما عاملا متعبدا كبير الشأن .
انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ١٦٨/١ ، والاعلام للزركلي ٤/٩ .

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء ابو عثمان البصري شيخ المعتزلة في عصره ، ولد سنة ٨٠ هـ ، وتوفى سنة ١٤٤ هـ.
انظر : كتاب الأعلام للزركلي ٢٥٢/٥ .

(٣) الامام أحمد بن حنبل ـ الرد على الزنادقة والجهمية ص ١٩ ، ٢٠ .
وانظر فتح الباري ٣٤٥/١٣ ، وكتاب الرد على الجهمية لأبي سعيد الدارمي ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، وكتاب خلق افعال العباد للامام البخاري ص ٧ ـ ٨ .

فوقهم يوم القيامة ، وانكار ما أخبر به الرسول عنه ، ومعلوم أن هذا التوحيد هو نفس تكذيب الرسول بما أخبر به عن الله ، فاستعار له أصحابه اسم التوحيد "[١] .

ولخطورة هذه الفرقة الضالة المضلة ، التي هي أول من أظهر التعطيل الذي هو أعظم من شرك عباد الأصنام والأوثان والكواكب ، فقد تصدى لهم علماء الاسلام المخلصون ، وحماة التوحيد الصادقون ، فكشفوا خباياهم وفضحوا باطلهم ، وحذروا المسلمين شرورهم ، فما تجد كتابا من كتب العقيدة الا وتجد الرد على هؤلاء المعطلة ابرز موضوعاته وأبوابه وفصوله ، بل هناك من العلماء من كتب كتبا خاصة في الرد على الجهمية ، ومنها : كتاب الرد على الجهمية لابن أبي حاتم ، وكتاب الرد على الزنادقة والجهمية للامام أحمد بن حنبل ، وكتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للامام البخاري ، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة للامام ابن قيم الجوزيه ، وكتاب الشهب المرمية في الرد على المعطلة والجهمية لشيخ الاسلام ابن تيمية .

وقد فند هؤلاء الأئمة العظام والعلماء الأعلام اقوالهم وكفروا من قال بها ، قال عبدالله بن المبارك رحمه الله : انا لنحكي كلام اليهود والنصارى ونستعظم ان نحكي قول جهم ، وقال رحمه الله :

ولا أقول بقول الجهم ان له ... قولا يضارع قول الشرك أحيانا

ولا أقول تخلى من بريته ... رب العباد وولى الأمر شيطانا

ما قال فرعون هذا في تجبره ... فرعون موسى ولا فرعون هامانا "[٢]

---

(١) ابن قيم الجوزيه ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ١٨٣ .

(٢) انظر فتح الباري ٣٤٥/١٣ ، وخلق أفعال العباد للامام البخاري ص ٨ .

وقال رحمه الله : " كل قوم يعرفون من يعبدون الا الجهمية "[١] .

وسئل وكيع رحمه الله عن الجهمية فقال : " يُكفرون من وجه كذا ، ويُكفرون من وجه كذا ، حتى أكفرهم من كذا وكذا وجها ، وقال رحمه الله : الرافضة شر من القدرية ، والحرورية شر منهما ، والجهمية شر هذه الأصناف ، قال الله تعالى : ((وكلم الله موسى تكليما))[٢] ، ويقولون : لم يكلمه ، ويقولون : الايمان بالقلب "[٣] .

وقال سعيد بن عامر[٤] : " الجهمية أشر قولا من اليهود والنصارى ، قد اجتمعت اليهود والنصارى وأهل الأديان أن الله تبارك وتعالى على العرش ، وقالوا هم : ليس على العرش شيء "[٥] .

وقال الامام أبو حنيفة رحمه الله : " بالغ جهم في نفي التشبيه حتى قال : ان الله ليس بشيء "[٦] .

وأقوال العلماء فيهم كثيرة مشهورة[٧] ، قال ابو سعيد عثمان الدارمي رحمه الله : " وأي زندقة بأظهر ممن ينتحل الاسلام في الظاهر ، وفي الباطن يضاهي قوله في القرآن قول مشركي قريش الذين ردوا على الله ورسوله فقالوا : ((ان هذا

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزيه ، تحقيق د. علي بن محمد دخيل الله ١٤٠٩/٤ ، ١٤١٠ .
(٢) الآية ١٦٤ من سورة النساء .
(٣) ابن قيم الجوزيه - المرجع السابق .
(٤) هو سعيد بن عامر الضبعي البصري الزاهد الحافظ ، أبو محمد مولى بني عجيف ، ولد بعد العشرين ومائة ، قال عنه أحمد بن حنبل : مارأيت أفضل منه ومن حسين الجعفي . انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٥/٩ .
(٥) البخاري - خلق أفعال العباد ص ٩ .
(٦) الحافظ بن حجر - فتح الباري ٣٤٥/١٣ .
(٧) انظر مختصر العلو للعلي الغفار ، للألباني ص ١٣٥ وما بعدها .

إلا اختلاق))[١] و ((إن هذا الا اساطير الأولين))[٢] و ((ان هذا إلا قـــول البشر))[٣] ، كما قالت الجهمية سواء : ان هذا الا مخلوق ، ولهم في ذلك أئمة سوء أقدم من مشركي قريش ، وهم عاد قوم هود الذين قالوا لنبيهم : ((ســواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين وما نحــن بمعذبين))[٤] ، فأي فرق بين الجهمية وبينهم ، حتى نجبن عن قتلهم واكفارهم ؟! ولو لم يكن عندنا حجة في قتلهم واكفارهم الا قول حماد بن زيد ، وسلام بن أبـي مطيع ، وابن المبارك ، ووكيع ، ويزيد بن هارون ، وأبي توبة ، ويحي بن يحـي ، وأحمد بن حنبل ، ونظرائهم رحمة الله عليهم أجمعين ، لجبنا عن قتلهم واكفارهم بقول هؤلاء حتى نستبرىء ذلك عمن هو أعلم منهم وأقدم ، ولكنا نكفرهم بما تأولنا فيهم من كتاب الله عز وجل ، وروينا فيهم من السنة ، وبما حكينا عنهم مـن الكفر الواضح المشهور ، الذي يعقله أكثر العوام ، وبما ضاهوا مشركي الأمـم قبلهم بقولهم في القرآن فضلا على ما ردوا على الله ورسوله ، من تعطيل صفاتـه ، وانكار وحدانيته ، ومعرفة مكانه واستوائه على عرشه بتأويل ضلال ، به هتـك الله سترهم ، وأبد سوءتهم ، وعبر عن ضمائرهم ، كل ما أرادو به احتجاجـا ، ازدادت مذاهبهم اعوجاجا ، وازدادوا أهل السنـة بمخالفتهم ابتهاجا ، ولمـا يخفون من خفايا زندقتهم استخراجا "[٥]

---

(١) الآية ٧ من سورة ص

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٥ من سورة المدثر .

(٤) الآيات ١٣٦ - ١٣٨ من سورة الشعراء .

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للدارمي ص ١١٦ - ١١٧ .

التوحيد عند الفلاسفة :

كان المأمون العباسي شديد الشغف بالعلوم القديمة ، وانتشرت في عهده ترجمة كتب غير المسلمين ، وغير العرب ، ونقلت الى بلاد المسلمين ، وكان من بينها كتب الفلاسفة ، اذ بعث الى بلاد الروم من ترجم له كتبهم ، ونقلها اليه فانتشر مذهب الفلاسفة بانتشار كتبهم في أكثر الأمصار الاسلامية ، وأقبل عليها المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم ، وأكثروا النظر فيها ، وقراءتها ، وازدادوا بها بلاءا الى بلائهم ، ودخل على المسلمين بذلك من آراء الفلاسفة وضلالهم ما لا يعلم مداه الا الله ، وزاد به ضلال أهل البدع والانحراف .(١)

وكان ممن اشتهر بذلك ، وتكلم به ، ودعا اليه ، الرازي ، والفارابي ، وغيرهما ممن فتنوا بآراء الفلاسفة ، كسقراط وافلاطون ، وارسطو ، وغيرهم .

وخلاصة معنى التوحيد عندهم : أن الله عز وجل موجود ولا ما هية له ولا حقيقة ، فلا ماهية عندهم زائدة على الوجود ، ولا يعلم الجزئيات ، ولا يفعل بقدرته ولا مشيئته ، والعالم لازم له أزلا وابدا ، وان سموه مفعولا له ، فذلك مصانعة للمسلمين ، وأخص خصائص الالوهية عندهم وجوب الوجود بالذات لله سبحانه ، وينفون عن الله سبحانه جميع صفات الكمال ، والقرآن عندهم فيض فياض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر ، ومتميز عن النوع الانساني بثلاث خصائص : قوة الادراك وسرعته ، وقوة النفس ، وقوة التخييل .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " وأما زعم المتفلسفة انه بالعقل الفعال ، فمن الخرافات التي لا دليل عليها وابطل من ذلك زعمهم أن ذلك هو

---

(١) انظر الخطط المقريزية لتقي الدين ابي العباس احمد بن علي المقريزي ٣٥٧/٢ ، وانظر الفتاوى لابن تيمية ٢١/٤ .

جبريل ، وزعمهم أن كل ما يحصل في عالم العناصر من الصور الجسمانية وكمالاتها فهو من فيضه وبسببه ، فهو من أبطل الباطل "[١].

ولا يثبتون لله سبحانه صفة ، فلا يكلم ولا يتكلم ، كما ينفون عنه سائر صفاته تعالى ، فلا سمع ولا بصر ولا قدرة ولا حياة ولا ارادة ، ولا وجه ولا يدين ، وحجتهم أنه لو كان كذلك لكان مركبا وكان جسما مؤلفا ، ولم يكن واحدا من كل وجه .

فغاية توحيدهم انكار اسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، واثباتها عندهم تشبيه لا توحيد[١] .

وقد وقعوا في هذا الباطل والضلال نتيجة تأثرهم بكتب الفلاسفة المليئة بالالحاد والكفر ، وكانوا يظنون أن أولئك الفلاسفة هم أهل الصواب لأنهم يعتمدون على التجارب والبراهين ، ثم حالوا التلفيق بين هذه الفلسفة وبين عقيدة الاسلام ، فضلوا في ذلك ضلالا مبينا .

وقد تصدى لهم علماء الاسلام بالرد عليهم وكشف باطلهم ، كما فعل شيخ الاسلام ابن تيمية في كثير من كتبه ومنها : نقض تأسيس الجهمية ، ومنهاج السنة ، ودرء تعارض العقل والنقل ـ المعروف بموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول .. وغيرها .

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ٣٥/٤ .

(٢) انظر الفتاوى لابن تيمية ١٠٠/٣ .

و كتاب الصواعق المنزلة لابن قيم الجوزيه تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله ٩٢٩/٣ ، ٩٣٠ ، وكتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وكتاب الدين الخالص لصديق حسن خان ٩٦/١ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الفلاسفة : " وهم مخطئون في المنقول والمعقول ، أما المنقول : فان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخبر قط بقدم ذات مجردة عن الصفات والأفعال ، بل النصوص الالهية متظاهرة باتصاف الرب بالصفات والأفعال ، وهذا معلوم بالضرورة لمن سمع الكتاب والسنة ، وهم يسلمون ان هذا هو الذي يظهر من النصوص ، ولكن أخبر عن الله باسمائه الحسنى وآياته المثبتة لصفاته وأفعاله ، وأنه ((خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش))[١] ، فمن قال " الأفلاك قديمة أزلية " فقوله مناقض لقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلا ريب .

كما أن من قال : " ان الرب تعالي لا علم له ولا قدرة ولا كلام ولا فعل " فقوله مناقض لقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

فليس لواحد منهما عقل صريح يدل على قوله ، بل العقل الصريح مناقض لقوله ، كما قد بين في موضعه من وجوه كثيرة ، مثل ما يقال : " ان العقل الصريح يعلم ان اثبات عالم بلا علم وقادر بلا قدرة ممتنع كاثبات علم بلا عالم ، وقدرة بلا قادر ، وأعظم امتناعا من ذلك أن يكون العلم هو العالم ، والعلم هو القدرة ، فهذا قول نفاة الصفات "[٢]

التوحيد عند الأشاعرة :

الأشاعرة فرقة تنتسب الى ابي الحسن الأشعري ، وقد تتلمذ ابو الحسن على ابي علي الجبائي ، من كبار علماء المعتزلة ، ولازمه قريبا من أربعين عاما ، فكان من أكبر الناس معرفة بمذهب المعتزلة ، ثم انتقل الى مذهب الكلابية اتباع

---

(١) الآية ٣ من سورة يونس .
(٢) ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل ٢/١٥٠ ، ١٥١ .

عبدالله بن سعيد بن كلاب ، وألف في بيان فساد آراء المعتزلة ، والرافضة ، والفلاسفة ، وغيرهم من النحل الباطلة ، والفرق المنحرفة ، ثم رجع الى مذهب أهل السنة والجماعة ، وتخلى عما كان عليه ، وبقي الاشاعرة ينتسبون اليه رغم رجوعه عن المذهب الذي يتشبثون به ، والذي يمثل المرحلة الوسطى من حياته .

ومذهب الأشعرية يجمع خليطا من مذهب الجهمية والمعتزلة والكلابية ، فيثبتون لله تعالى سبعا من الصفات وهي التي يسمونها صفات المعاني ، وهي : العلم ، والقدرة ، والارادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وينكرون ما عدا ذلك من الصفات بتأويلاتهم الباطلة .

والتوحيد عندهم :

نفي التثنية أو التعدد ، ونفي التبعيض والتركيب والجزئة (١) ، ويقولون كما يقول اخوانهم من المتكلمين : واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، ويفسرون معنى الالهية بالقدرة على الاختراع (٢) ويجعلون ذلك هو التوحيد المطلوب ، ويرون أن توحيد الأفعال وهو قولهم واحد في افعاله لا شريك له ، هو الذي بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بالدعوة اليه ، وأنه يتضمن توحيد الالوهية ، وأطالوا في بحثه ، واقاموا الأدلة والبراهين العقلية في اثباته ، واتعبوا انفسهم فيه ، وهو من الأمور المسلمة بين المسلمين وخصومهم - سوى الملحدين منهم - . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " والالهية تتضمن اشخاص للعبادة والدعاة لا انها بمعنى القدرة على الاختراع كما يذكر ذلك عن الاشعري ، فان هذا هو الربوبية التي كان المشركون يقرون بها " (٣)

ومعلوم أن المشركين الذين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون بذلك وأن الله تعالى خالق كل شيء ، ولا ينازعون في ذلك ، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئا ، بل هم مع ذلك مشركون بالله تعالى ، حيث لم يحققوا معنى الالوهية الحقة له سبحانه وتعالى ، وهذا هو التوحيد الأعظم الذي بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بالدعوة اليه ، وفيه قامت الخصومة بينهم وبين

---

(١) انظر كتاب الارشاد لابي المعالي الجويني ص ٦٩ .
(٢) انظر الفتاوى لابن تيمية ٩٨/٣ وما بعدها ، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٤٦٩/١.
(٣) ابن تيمية - بيان تلبيس الجهمية ٤٨٠/١ .

أممهم ، وهذا ما لا ذكر له ولا اهتمام في كتب الأشاعرة .[(١)]

" وليس المراد (بالاله) هو القادر على الاختراع ، كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين ، حيث ظن ان الالـهية هي القدرة على الاختراع دون غيره ، وان من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد ان لا اله الا الله ، فان المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون ـ كما تقدم بيانه ـ بل الاله الحق هو الذي يستحق أن يعبد ، فهو اله بمعنى مألوه ، لا اله بمعنى آله ، والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له ، والاشراك ان يجعل مع الله الها آخر .

واذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار ، أهل الاثبات للقدرة المنتسبون الى السنة انما هو توحيد الربوبية ، وأن الله رب كل شيء ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك ، مع أنهم مشركون "[(٢)]

التوحيد عند الصوفية :

الصوفية من الفرق التي انحرفت وضلت عن المعنى الصحيح للتوحيد ، وهي فرق وطوائف كثيرة منهم المعتدل ومنهم الغالي المنحرف ، والتوحيد عندهم مراتب أدناها ما يسمونه توحيد العامة ، وهو الشهادة بأن لا اله الا الله ، واعلاها ما يسمونه : الفناء في التوحيد وهو : ان لا يرى في الوجود الا واحدا ، وهو عندهم الغاية التي لا غاية وراءها .[(٣)]

قال الامام ابن قيم الجوزيه رحمه الله تعالى : " و (الفناء) الذي يشير

---

(١) انظر : الفتاوى لابن تيمية ١٠٠/٣ ـ ١٠١ ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٨١ ، وكتاب دعوة التوحيد لخليل هراس ص ٢٧٤ .

(٢) ابن تيمية ـ الفتوى ١٠١/٣ .

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر ٣٤٨/١٣ ، والفتاوى لابن تيمية ١٠١/٣ ، ١٠٢ .

اليه القوم ويعملون عليه : ان تذهب المحدثات في شهود العبد ، وتغيب في أفق العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا ، فلا يبقى له صورة ولا رسم ، ثم يغيب شهوده أيضا ، فلا يبقى له شهود ، ويصير الحق هو الذي نفسه بنفسه ، كما كان الأمر قبل ايجاد المكونات ، وحقيقته : أن يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل "(١)

وقد قسم الغزالي التوحيد عند الصوفية الى أربع مراتب :

" الأولى : ان يقول الانسان بلسانه : لا اله الا الله .

الثانية : ان يصدق بمعنى اللفظ بقلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام .

الثالثة : أن يشاهد بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين .

الرابعة : ان لا يرى في الوجود الا واحدا ، فلا نفسه أيضا ، وهو مشاهدة الصديقين ، كما تسميه الصوفية ، لأنه من حيث أنه لا يرى الا واحدا ، فلا يرى نفسه أيضا "(٢) .

وقد شرع الصوفية لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فانحرفوا عن المنهج الاسلامي القائم على الاعتدال ، والبعد عن الغلو والتطرف ، حيث لم يجدوا فيه ما يوافق اهواءهم المنحرفة ، وأذواقهم الفاسدة ، وافهامهم المعوجة ، فاتخذوا لأنفسهم سبيلا جمعوا فيه خليطا من الديانات اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وغير ذلك مما دخل على المسلمين من الدخائل والعقائد الباطلة ، وادعوا لأنفسهم أحوالا ، واذواقا ومواجد لم يعرفها الدين ، ولا اتباع الأنبياء والمرسلين ، وفتحوا

---

(١) ابن قيم الجوزية مدارج السالكين ١٤٨/١ .

(٢) انظر الاحياء للغزالي ٢٤٥/٤ وما بعدها .

على الاسلام والمسلمين باب شر دخلت منه عظائم الفتن ، وكبرى المحن ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فكان كثير منهم ممن يصدق عليهم قول الحق تبارك وتعالى : ((انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون))[(١)] ، وقوله جل شأنه : ((ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون))[(٢)] .

وتمادوا في غيهم وضلالهم فقالوا بالحلول وأن الله تعالى حال في كل شيء وقالوا بوحدة الوجود وأنه لا موجود الا الله فيرون أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تبارك وتعالى ، وليس وجودها غيره ولا سواه البتة .

ومن اقوالهم في ذلك : قول ابن عربي :

الرب حق والعبد حق ... ياليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف

وقول ابن الفارض :

الى رسولا كنت مني مرسلا ... وذاتي بآياتي عليك استدلت

وقوله أيضا :

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... واشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل واحد ناظر الى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سواي فلم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

وقول آخر : أنا الحق ... وقول غيره : سبحاني[(٣)]

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الزخرف .

(٣) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٨٣/٤ ، والتصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شقفة ص ٦٤ .

وقسم الصوفية الدين الى ظاهر وباطن وشريعة وحقيقة ، فالظاهر والشريعة علم عامة الناس ودينهم ، ومنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، والباطن والحقيقة علم الصوفية ودينهم .

قال ابن الجوزي رحمه الله : " لما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم ، وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد ، وسموا ذلك العلم : العلم الباطن ، نُهوّاً عن التشاغل عن العلم الظاهر "(١)

وجعلوا للأولياء درجة فوق درجة الأنبياء ، وقالوا :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون : ان الولي يأخذ عن الله تعالى بلا واسطة ، كما يقولون : حدثني قلبي عن ربي .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " ومن أدعى من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن له طريقه الى الله لا يحتاج فيها الى محمد فهو كافر ملحد ، واذا قال : أنا محتاج الى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : ان محمدا رسول الى الأميين دون أهل الكتاب "(٢) .

وغلاتهم يلتقون مع غلاة الشيعة في تقديس أئمتهم واعتقاد العصمة فيهم ، ووجوب طاعتهم في كل ما أمروا به أو نهوا عنه حلالا كان أو حراما ، طاعة أو معصية ، ويعتقدون بحصول الكرامات لهم حتى بعد موتهم ، وأقوالهم وأفعالهم

---

(١) ابن الجوزي تلبيس ابليس ص ٣٢٨ .

(٢) ابن تيمية - الفتاوى ٢٢٥/١١ .

في ذلك أكثر من أن تحصر ، ليس هذا مقام الحديث عنها . وكلا الطائفتين - الصوفية والشيعة - منفذ شر وباب فتنة وضلال ومعول هدم للاسلام وأهله . ومطية لأعداء الاسلام في الوصول الى مآربهم الخبيثة في الماضي والحاضر .

ومن أقوال الصوفية في التوحيد :

قول بعضهم : أصولنا في التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث ، واقرار القدم ، وهجر الاخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل .

وقول الآخر : من اطلع على ذرة من علم التوحيد ، ضعف عن حمل بقة لثقل ما حمله .

وقول أحدهم : علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد .

وغير ذلك من الأقوال الضالة التي لا يقرها شرع ولا عقل .(١)

وبعد هذا العرض اليسير لمفاهيم بعض الفرق والطوائف الضالة في معنى التوحيد وكيف زلت اقدامهم وانحرفت أفهامهم عن المعنى الحق للتوحيد الحق لله رب العالمين ، تبين لنا مما سبق أن السبب الأول في ذلك الزيغ عن الحق انما حصل لهم بسبب اعراضهم عن كتاب الله عز وجل وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتقديمهم عقولهم على هذين الأصلين العظيمين اللذين هما النجاة من الضلال والملاذ والمرجع عند الانحراف والاختلاف . وكذلك تأويل النصوص تأويلات باطلة ناتجة عن أفهام سقيمة معوجة ظنوا أنها هي الحق الذي لا يجوز العدول عنه ، فكانوا كما قال الله جل شأنه : ((والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب))(٢) وكثير منهم من أقر بذلك واعترف عند موته .

---

(١) انظر كتاب التصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شقفة ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) الآية ٣٩ من سورة النور .

قال ابن قيم الجوزيه رحمه الله تعالى عن ضلال هؤلاء وانحرافهم : " واذا تأمله العارف وجده (كلحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى) فيطول عليك الطريق ، ويوسع لك العبارة ، ويأتي بكل لفظ غريب ، ومعنى اغرب من اللفظ ، فاذا وصلت لم تجد معك حاصلا طائلا ، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طحنا ، فالمتكلمون في جعاجع الجواهر والأعراض والأكوان والألوان ، والجوهر والفرد ، والأحوال والحركة والسكون ، والوجود والماهية والانحياز والجهات والنسب والاضافات والغيرين والخلافين ، والضدين والنقيضين ، والتماثل والاختلاف ، والعرض وهل يبقى زمانين وما هو الزمان والمكان ؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان ، ويعترف بأنه لم يعرف الوجود هل هو ما هية الشيء ، أو زائد عليها ؟ ويعترف أنه شاك في وجود الرب ، هل هو وجود ، أو وجود مقارن للماهية ، ويقول : الحق عندي الوقف في هذه المسألة ، ويقول أفضلهم - عن نفسه - عند الموت : أخرج من الدنيا وما عرفت إلا مسألةواحده ، وهي أن الممكن يفتقر الى واجب ، ثم قال : الافتقار أمر عرضي ، فأموت ولم اعرف شيئا ، وهذا أكثر من أن يذكر ، كما قال بعض السلف : أكثر الناس شكا عند الموت : أرباب الكلام "(١)

وكما قال عنهم شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " انقسموا الى اصحاب نظر وفكر وبحث واستدلال ، وأصحاب ارادة وعبادة وتأله وزهد ، فكان منتهى أولئك الشك ، ومنتهى هؤلاء الشطح ، فأولئك يشكون في ثبوت واجب الوجود ، أو يعجزون عن اقامة الدليل عليه ، الى أن قال : .. والآخرون يجعلون كل موجود واجب الوجود ، ويجعلون وجود كل موجود هو نفس وجود واجب الوجود ، ثم يقول بعد ذلك : هذا مع أن اثبات الموجود الواجب الغني الخالق ، واثبات الموجود الممكن المحدث الفقير المخلوق ، وهو من أظهر المعارف ، وأبين المعلوم " (٢).

ولا شك أن انحرافهم عن المعنى الصحيح نتيجة حتمية لكل من لم يكن مرجعه الكتاب والسنة وقدم على ذلك عقله وهواه ولا يظلم ربك أحدا .

---

(١) ابن قيم الجوزيه - مدارج السالكين ٤٣٧/٣ .
(٢) ابن تيمية - درء تعارض العقل والنقل ٢٦٤/٣ ، ٢٦٥ .

الفصل الأول

نماذج من دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام .

المبحث الثاني : دعوة هود عليه السلام .

المبحث الثالث: دعوة صالح عليه السلام .

المبحث الرابع: دعوة إبراهيم عليه السلام .

المبحث الخامس: دعوة موسى عليه السلام .

المبحث السادس: دعوة عيسى عليه السلام .

" الفصل الأول "

نماذج من دعوة الأنبياء والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام

خلق الله تعالى الخلق وفطرهم على معرفته سبحانه ، وتوحيده لا شريك له ، قال عز وجل مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : ((فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون))(١) .

وقال تبارك وتعالى : ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون))(٢) .

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية على الملة ـ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة جمعاء(٣) ، هل تحسون فيها من جدعاء(٤))(٥) .

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله : اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم)(٦) .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .

(٣) الجمعاء : سليمة من العيوب ، مجتمعة الأعضاء كاملتها فلا جدع بها ولا كي . النهاية لابن الأثير ١/٢٩٦ .

(٤) الجدعاء : مقطوعة الاطراف أو واحدها . النهاية لابن الاثير ١/٢٢٧ .

(٥) البخاري بشرحه ٣/٢١٩ . (٦) مسلم بشرحه ١٧/١٩٧ .

وهذا دليل واضح أن الأصل في الناس انهم مفطورون على الاسلام ، وتوحيد الله تبارك وتعالى ، وان الشرك والانحراف طارئ فيهم ، ودخيل عليهم .

وحفاظا على سلامة هذه الفطرة ، وبقائها على توحيد الله عز وجل ومعرفته بعث الله تعالى انبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وانزل عليهم كتبه ، هداية للناس الى الصراط المستقيم ، الموافق للفطرة التي فطرهم الله عليها ، وحماية لهم من الضلال والانحراف عن سبيله القويم ، قال جل شأنه : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ، أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[١] .

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : الانبياء أخوة من علات[٢] وامهاتهم شتى ، ودينهم واحد فليس بيننا نبي)[٣]

وفي هذا الفصل سأذكر - باذن الله تعالى - نماذج من دعوة الرسل الى توحيد الله عز وجل وأن الدعوة الى توحيد الله كانت أول ما دعوا اليه أممهم وأن دعوتهم جميعا متفقة على هذا الأمر ، وسائرة على هذا الطريق .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النمل .

(٢) أولاد العلات : بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الاخوة لأب من امهات شتى ، والمعنى : أن أصل ايمانهم واحد وهو التوحيد ، وشرائعهم مختلفة .

(٣) مسلم بشرحه ١١٩/١٥ .

المبحث الأول

دعوة نوح عليه الصلاة والسلام

وهو أول الرسل وأحد أولي العزم منهم ، بعثه الله تعالى حين انحرف الناس عن الدين الصحيح والتوحيد الحق ، وظهر الشرك فيهم أول ما ظهر بعد أن كانوا على التوحيد الصحيح عشرة قرون بعد آدم عليه السلام كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام) .(١)

ولما رأى الشيطان ذلك ما زال الشيطان يوسوس ويزين ويلبس حتى استطاع أن يصل بهم في نهاية الأمر الى تعظيم تلك الصور وعبادتها من دون الله ، ثم انتقلت بعد ذلك الى العرب ليقعوا فيما وقع فيه من سبقهم من الشرك والانحراف .

كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أماود ، فكانت بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهمدان ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم بني غطيف بالجرف عنه سبأ ، وأما نسر فكانت لآل ذع الكلاع ، اسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : ان انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونُسي العلم عبدت) .(٢)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٩٤/١ .

(٢) صحيح البخاري بشرحه ٦٦٧/٨ .

فلما ظهر الشرك بعد أن لم يكن بعث الله نبيه رسوله نوحا عليه السلام يدعو الناس الى عبادة الله تعالى وحده ويحذرهم من الشرك الذي وقعوا فيه ، ويبين لهم خطورة ما هم عليه [١] ، وقص الله تعالى علينا دعوة رسوله نوح عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم [٢] ، ويمكن أن نلخص دعوته عليه السلام الى توحيد الله تعالى في المواقف التالية :

الأول : بداية بدء الدعوة :

بدأ عليه السلام دعوته بالتوحيد ، والتحذير من الشرك وبيان خطورته ووخيم عاقبته ، قال الله عز وجل : ((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه إني لكم نذير مبين ، ان لا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون)) [٣] .

وقال عز وجل : ((لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)) [٤] .

وآيات أخرى تبين ان الدعوة الى توحيد الله عز وجل والنهي عن الشرك كانت أول ما بدأ به نوح عليه السلام دعوته ، وسار على ذلك سائر الأنبياء

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٩٤/١ .
(٢) منها سورة الأعراف ، وهود ، والأنبياء ، والمؤمنون ، والشعراء ، والعنكبوت والصافات ، والقمر ، وسورة كاملة هي سورة نوح .
(٣) الآيات من ٢٥ - ٢٨ من سورة هود .
(٤) الآية ٥٩ من سورة الأعراف .

والمرسلين من بعده[1] ، ذلك أن التوحيد أول ما فرضه الله على عباده ، وهو الذي من أجله بعث الأنبياء والرسل وانزلت عليهم الكتب والرسالات ، فكلما انحرف الناس عن هذا الطريق وزاغوا عنه ، وظهر فيهم الشرك بالله تعالى بعث الله اليهم من يجدد لهم معالم هذه العقيدة ، ويردهم الى الصراط المستقيم وينقذهم من خطر الشرك والانحراف .

الثاني : براءة نوح من قومه ودعاؤه عليهم :

لما رأى نوح عليه السلام اصرار قومه على الكفر وتمسكهم به ودفاعهم عنه ، ومكابرتهم للحق ، رغم صبره على أذاهم ، ومضيه في دعوتهم الى دين الله تعالى ، ليلا ونهارا ، ذلك الزمن الطويل ، وان ذلك لم يزدهم الا عتوا واستكبارا[2] توجه الى ربه : ((رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا ، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في أذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا))[3] ، فأعلمه ربه عز وجل بقوله : ((انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون))[4] .

عند ذلك أعلن نوح براءته من قومه ودعا الله تعالى يهلكم وان يطهر الأرض من شركهم وضلالهم : ((وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين الا تبارا))[5] .

---

(١) انظر كتاب دعوة التوحيد لخليل الهراس ص ١٢٨ .
(٢) انظر كتاب دعوة الرسل لمحمد احمد العدوي ص ١٧ .
(٣) الآيات من ٥ - ٧ من سورة نوح .
(٤) الآية ٣٦ من سورة هود .
(٥) الآيات من ٢٦ - ٢٨ من سورة نوح .

وكما قال عنه ربه تعالى : ((فدعا ربه اني مغلوب فانتصر))[١] ، وقد استجاب له ربه سبحانه وتعالى كما قال عز وجل : ((ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون))[٢] وقال سبحانه : ((ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له))[٣] .

وأهلك الله قومه الكافرين ومنهم ابنه الذي لم يفتأ بدعوة الى الايمان الى أن أدركه الغرق ، وكان يراجع ربه فيه حتى قال له ربه عز وجل :
((يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين)) ، عندها تبرأ نوح منه وسأل ربه المغفرة والرحمة ، لأن علاقة النسب وكل علاقة دون علاقة الايمان لا عبرة بها ، اذا لم تكن علاقة الايمان بالله تعالى .

وقد عوض الله نبيه نوحا بأن جعل في ذريته وذرية ابراهيم عليهما السلام النبوة والكتاب ، فما بعث نبي الا وهو من ذريتهما قال تعالى : ((ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون))[٤] .

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية : " يخبر الله تعالى انه منذ بعث نوحا عليه السلام لم يرسل بعده رسولا ولا نبيا الا من ذريته ، وكذلك ابراهيم عليه السلام خليل الرحمن لم ينزل كتابا ولا أرسل رسولا ولا أوحى الى بشر من بعده الا هو من سلالته ، كما قال تعالى : ((وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب))[٥] ، حتى كان آخر انبياء بني اسرائيل عيسى بن مريم الذي بشر

---

(١) الآية ١٠ من سورة القمر .
(٢) الآية ٧٥ من سورة الصافات .
(٣) الآية ٧٦ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٢٦ من سورة الحديد .
(٥) الآية ٢٧ من سورة العنكبوت .

من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما "[١] .

وهكذا من ترك شيئا لله تعالى عوضه الله خيرا منه ، والولاء لله تعالى مطلوب من كل مؤمن ، والبراءة من كل كافر ومشرك مطلوب ولو كان أقرب الناس اليه ، قال الله عز وجل : ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون))[٢] .

وقال جل شأنه : ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتهم الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون))[٣] .

الثالث : أهم الدروس والعبر من دعوة نوح عليه السلام :

١) ان التوحيد كان أول ما دعا اليه نوح عليه السلام قومه ، وبدأ به دعوته وكذلك الرسل من بعده .

٢) أن عقيدة التوحيد هي الأصل الذي كان عليه الناس من آدم عليه السلام الى ان ظهر الشرك في قوم نوح عليه السلام بعد عشرة قرون ، فقد كانوا قبل ذلك على التوحيد الصحيح الموافق للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والشرك حادث طارىء بعد أن لم يكن ، وهذا معنى قوله عز وجل : ((كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم

---

(١) الحافظ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٣١٥/٤ .
(٢) الآية ٢٣ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)) (١) .

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن معنى قوله عز وجل : ((**كان الناس أمة واحدة**)) : أي على الهدى والتوحيد ، ثم اختلفوا بأن ظهر فيهم الشرك ، فبعث الله تعالى رسله عليهم الصلاة والسلام وأولهم نوح عليه السلام ، وبهذا القول قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة .

ومنهم من قال : أن معنى الآية : أنهم كانوا كفارا ، وروي هذا القول عن العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والقول الأول هو الصحيح لما يلي :

أ - ما جاء في الحديث الصحيح سالف الذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن الناس كانوا عشرة قرون على التوحيد بعد آدم عليه السلام .

ب - ما ثبت عن ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما أنهما كانا يقرآن هذه الآية : ((**كان الناس أمة واحدة فاختلفوا**)) وهما ممن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤخذ القرآن عنهما (٢) .

ج - ما جاء في الآية الأخرى في سورة يونس وهي قوله تعالى: ((**وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون**)) (٣) .

---

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .
(٢) وهو : قوله صلى الله عليه وسلم : (خذوا القرآن عن أربعة عن ابن ام عبد ، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ، وسالم مولى أبي حذيفة) صحيح مسلم بشرحه ١٦/١٧ ، ١٨ ، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٣) الآية ١٩ من سورة يونس .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية الكريمة : " ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد ان لم يكن ، وان الناس كلهم كانوا على دين واحد ، وهو الاسلام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ((ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة))(١) "(٢)

د - القول الأول أصح سند عن ابن عباس رضي الله عنهما من القول الثاني .

هـ - القول الثاني لا يناسب سياق الآية الكريمة ، فقوله تعالى : ((كان الناس أمة واحدة)) مدح يشعر بالقوة والترابط والوحدة ، وهذا لا يكون الا بالايمان والتوحيد ، أما الكفر والشرك ففرقة وشتات كما قال عز وجل ((تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى))(٣) ، وقال سبحانه : ((ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء))(٤) .

وبهذا يتضح أن الأصل هو التوحيد الموافق للفطرة والشرك طارىء حادث ، وأن الدعوة الى التوحيد عودة بالناس الى الأصل الذي كانوا عليه ، والفطرة التي فطرهم الله عليها ، والشرك خروج عن ذلك وانحراف عنه ، ولذلك اقتضت حكمة الله الحكيم الخبير أن يبعث انبياءه ورسله وينزل كتبه للعودة بالبشرية الى هذا المنهج القويم ، وحمايتها من كل انحراف عنه وأول ذلك واخطره الشرك بالله تعالى .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الأنفال .
(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤١١/٢ .
(٣) الآية ١٤ من سورة الحشر .
(٤) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .

٢) من الدروس والعبر في دعوة نوح عليه السلام : أن أول شرك ظهر في الأرض كان سببه الغلو في الصالحين ، وتجاوز الحد في تعظيمهم ، ولا يزال كذلك الى يومنا هذا سببا في وقوع كثير من الناس في الشرك بالله تعالى ، والمطية الأولى التي يركبها الشيطان لفتنة بني آدم في دينهم وايقاعهم في الشرك ، وأول وسائله الى ذلك تزيين اقامة الأنصاب والتماثيل والصور حتى يتعلقوا بها ثم لا يزال بهم حتى يعبدوها ، كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها : مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**أولئك قوم اذا مات فيهم العبد الصالح ، أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى**) وفي لفظ آخر في الصحيحين : (**أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها**)[1] .

فانظر كيف كان الغلو في الصالحين طريقا الى الشرك بالله تعالى مع طول الفارق الزمني ، ولا يزال الشيطان يدخل على كثير من ضعفاء الايمان من هذا الباب حتى يصل في نهاية الأمر الى الشرك نعوذ بالله من ذلك .

٣) من الدروس والعبر في دعوة نوح عليه السلام : تشابه صور الشرك وأعمال أهله في كل زمان ومكان مهما كان التفاوت الزمني في ذلك ، فالاصنام التي ظهرت في قوم نوح اظهرها الشيطان للعرب فكانت فيهم يوم أن أظهرها عمرو بن لحي الخزاعي اخزاه الله ، وما عمله المشركون في عهد نوح ويعمله المشركون في كل زمن من التعلق بالصالحين والغلو فيهم ، ثم عبادتهم من دون الله عز وجل .

---

(١) البخاري بشرحه ١/٥٢٣ .

٤) من الدروس والعبر في هذه الدعوة : أن رابطة الايمان والعقيدة هي الرابطة الأولى التي تغني عن كل رابطة ولا تغني عنها رابطة مهما كانت قوتها أو قربها ، وأن موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين أمر مطلوب من كل مؤمن ، قال تعالى : ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم)) الآية[1] .

وقال سبحانه : ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض))[2]

وقال عز وجل : ((والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير))[3] .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧٣ من سورة الأنفال .

المبحث الثانـــي

دعوة هود عليه الســلام

أرسل الله عز وجل نبيه ورسوله هودا عليه الصلاة والسلام الى قومه عـــاد وكانوا يسكنون الأحقاف . قال ابن عباس رضي الله عنهما : واد بين عُمان وأرض مَهْرَه .

وقال ابن اسحاق : الاحقاف رمل فيما بين عُمان الى حضرموت .

وقال قتادة : الأحقاف : رمال مشرفة على البحر بالشَّحْر من أرض اليمن .

ولا خلاف بين هذه الأقوال ، فهي تدل على مكان واحد جنوب الجزيرة وقـرب حضرموت .(١)

وقد ظهر فيهم الشرك بالله تعالى وكانوا أول من أظهره وعبد الأصنـــام بعد هلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان ، فأرسل الله تعالى اليهم رسوله هـــودا عليه السلام يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك وينهاهم عن عبادة غيره .(٢)

ونلخص دعوته عليه السلام في المواقف التالية :

١) بداية دعوته عليه الســلام :

وقد بدأهـا بالدعوة الى توحيد الله تبارك وتعالى ، كما بدأها قبلـــه نوح عليه السلام ، وكما هي بداية دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهمالصلاة والسلام ، كما سيأتي بيان ذلك ان شاء الله تعالى .

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ١/١١٥ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١/١١٣ .

قال الله عز وجل : ((والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، أفلا تتقون))[١] .

وقال سبحانه : ((والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ان انتم الا مفترون))[٢] .

فبينت هاتان الآيتان أن بداية دعوته كانت الدعوة الى توحيد الله عز وجل وافراده بالعباده وحده لا شريك له ، وردهم الى الصراط المستقيم الذي انحرفوا عنه .

٢)اعلامه لقومه انه لا طمع له في أجر منهم انما يطلب أجره من الله تعالى وحده :

فقد بين لهم انه لا يريد منهم أجرا على هذه الدعوة ، انما يريد منهم الاستجابة لما جاء به من عند الله تعالى : ((يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان اجري الا على الذي فطرني ألافلا تعقلون))[٣] .

وهذا هو منهج الأنبياء والرسل جميعا ، "وانك لو قرأت دعوة الرسل جميعهم لرأيتهم جميعهم يواجهون قومهم بذلك القول ، ليعرفونا ان شأن الرسل تمحيض النصح لأقوامهم ، وذلك لا يكون الا حيث خلت دعوتهم عن المطامع ، وتمحضت لارضاء الله تعالى ، والرغبة فيما عنده من ثواب ، ولذلك عقب ذلك بقوله ((أفلا تعقلون)) اذ تردون نصيحة من لا يطلب أجرا الا من الله ."[٤]

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥٠ من سورة هود .
(٣) الآية ٥١ من سورة هود .
(٤) محمد أحمد العدوي ـ دعوة الرسل ص ٢١ .

وما من شك أن هذا ابلغ في الدعوة وادعى للاستجابة واشرف لجانب الدعـوة وصاحبها ، فكم من دعوة حطمتها الأطماع الشخصية ، والأهداف الدنيوية .

٣) صبره عليه السلام على أذى قومه :

فقد ناصبوه العداء واتهموه بالسفه وضعف العقل ، وكذبوا دعوته ، وأصـروا على ما هم عليه من الشرك والضلال ، وهو صابر على آذاهم ، مستمر في دعوتهـم الى الله تعالى مرشد لهم الى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، محذر لهم عذاب الله الأليم ان هم اصروا على اعراضهم وكفرهم وتكذيبهم لرسوله ، قـال الله تعالى : ((والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره افلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة ، وإنـا لنظنك من الكاذبين ، قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالميـن ابلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح أمين ، أوعجبتهم ان جاءكم ذكر من ربكم علـى رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلـق بسطه ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونـذر ما كان يعبد أباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكـم من ربكم رجس وغضب اتجادلونني في اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما نزل الـله بها من سلطان فانتظروا اني معكم من المنتظرين ، فانجينه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين))[١] .

وقد جاءت قصة دعوة هود قومه في آيات كثيرة من كتاب الله الكريم.[٢]

---

(١) الآيات من ٦٥ ـ ٧٢ من سورة الأعراف .

(٢) في سورة الأعراف ، وفي هود ، والشعراء ، والعنكبوت ، وفصلت ، والأحقاف وق ، والذاريات ، والقمر ، والحاقة ، والفجر .

٤) نهاية عـــاد :

كانت عاد أول من احدث الشرك في الأرض بعد الطوفان ، بعد أن أهلـــك الله الشرك وأهله بالطوفان ، ومع ما قام به هود عليه السلام من دعوتهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم وتحذيرهم من عذابه ، مع ذلك كله لم يزدادوا الا عتوا واستكبارا وسخرية به وبدعوته واستهزاءاً ، فأرسل الله تعالى عليهم عذابه ريحا شديـــدة ، وسحابا ظنوه مطرا ورحمة وهو العذاب الأليم . قال الله تعالى : ((فلمـــا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريـــح فيها عذاب شديد ، تدمر كل شيء باذن ربها ، فاصبحوا لا يرى الا مساكنهـــم ، كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهـــم سمعا وأبصارا وافئدة ، فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شـــيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون))[١] .

وقال سبحانه : ((واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليها سبـــع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهـــل ترى لهم من باقية))[٢] .

وقال جل شأنه : ((ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمـــة مناونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسلـــــه ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود))[٣]

---

(١) الآيات من ٢١ ـ ٢٦ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيات من ٦ ـ ٨ من سورة الحاقة .
(٣) الآيات من ٥٨ ـ ٦٠ من سورة هود .

فقد أهلكهم الله عز وجل لما كذبوا رسوله واصروا على شركهم وضلالهم ونزل بهم عذابه وبأسه الذي لا يرد جزاءا وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد . وهكذا نهاية كل من اشرك بالله تعالى غيره ، ورد دعوة انبيائه ورسله .

جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، انما كان يبتسم ، وقالت: وكان اذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه ، قالت : يا رسول الله ان الناس اذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك اذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : ياعائشة: فايُؤَمّنني ان يكون فيه عذاب ؟ عذ ب قوم بالريح ، وقد رأي قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا)[1] .

---

(١) البخاري بشرحه ٥٧٨/٨ ، ٥٠٤/١٠ .
ومسلم بشرحه ١٩٧/٦ .

المبحث الثالث

دعوة رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام

بعثه الله تعالى الى ثمود ، وكانوا بعد عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وكانت مساكنهم في وادي الحجر شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام [١] ، وهي مجاورة لمدينة العلا وتابعة لها .

وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيره الى غزوة تبوك عام ثمانية من الهجرة النبوية ، ونهى اصحابه أن يشربوا منها أو يستقوا ، وأمرهم ان يهريقوا الماء وان يعلفوا العجين الذي عجنوه بمائها للدواب .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما نزل بالحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجنا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء)[٢] .

وعنه رضي الله عنه ان الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض ثمود ، الحجر ، واستقوا من بئرها واعتجنوا به (فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا من بئارها ، وأن يعلفوا الابل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كان تردها الناقة)[٣] .

وعنه رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا ، الا ان تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٢١/٢ .
(٢) البخاري بشرحه ٣٧٨/٦ .
(٣) البخاري بشرحه ٣٧٨/٦ .

ثم تقنع بردائه وهو على الرحل)[١].

وكانت ثمود كما سبق ذكره يعبدون الأصنام كما كان اسلافهم عاد ، فأرسل الله اليهم نبيه ورسوله صالحا عليه السلام فدعاهم الى عبادة وحده لا شريك له ، وترك ماهم عليه من عبادة غيره ، وكان يذكرهم باسلافهم عاد وكيف كانت نهايتهم وكيف ان الله تعالى أورثهم الأرض من بعدهم ، واغدق عليهم النعم الكثيرة ، ولكنهم ردوا دعوته ، وأعلنوا معارضته ، وتحدوه بطلب آية من الله عز وجل تدل على صدقه ، وقد جاءت قصة صالح عليه السلام مع قومه في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل[٢].

وفيما يلي أهم المواقف في دعوته عليه السلام :

١) بدء دعوته عليه السلام :

بدأ صالح عليه الصلاة والسلام دعوته قومه بالدعوة الى التوحيد ونبذ ماهم عليه من الشرك وعبادة غير الله عز وجل من الأصنام وغيرهم فكان يذكرهم بنعمة الله تعالى عليه ويحذرهم وينذرهم عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبل وما حصل لقوم عاد ، قال الله تبارك وتعالى : ((**والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو انشأكم في الأرض واستعركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب**))[٣].

فقد بدأهم بالدعوة الى التوحيد الذي انحفرفوا عنه ، كما دعا اليه من قبله الأنبياء والرسد عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ٣٧٨/٦ .

(٢) منها : سورة الأعراف ، وهود ، والحجر ، والاسراء ، والشرعء ، والنمل ، وفصلت ، والقمر ، والشمس .

(٣) الآية ٦١ من سورة هود .

٢) **موقف قومه من دعوتـــه :**

كانت ثمود من الأمم المفرطة في اللذات من مطعم ومشرب ومسكن ، وبلغوا في ذلك الترف مبلغا أوقعهم في السرف والعصيان والتمرد على كل دعوة حق لظنهم أن ما هم فيه دائم لا يزول ، فعاثوا في الأرض فسادا وسخروا من صالح عليه السلام ودعوته ، ومن آمن معه ، وناصبوهم العداء واعرضوا عن الصراط المستقيم الذي جاء به . قال الله عز وجل : ((قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير))[١] .

كما قال سبحانه : ((كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح ألا تتقون ، اني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ان اجري الا على رب العالمين ، أتتركون فيما ههنا آمنين ، في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله واطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون))[٢] .

ومع تلطفه في دعوتهم طمعا في هدايتهم ، وتذكيره لهم لهم بنعمة الله تعالى عليهم ، ومكانته المعروفة لديهم واشتهاره بينهم بالصدق والامانة وحسن الخلق فيهم مع ذلك كله اتهموه بالسحر ، والسفه ، وسخروا منه ومن دعوته ، وأنهم كان لهم فيه رجاء وطمع قبل أن يظهر عليهم بهذه الدعوة الجديدة ، وهذا منطق اعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا من قبل صالح عليه السلام ومن بعده ((قالوا

---

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة هود .
(٢) الآيات من ١٤١ ـ ١٥٢ من سورة الشعراء .

يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا ، وانـنــا لفي شك مما تدعونا اليه مريب))[(١)] ، ((قالوا انما أنت من المسحرين ما أنـت الا بشر مثلنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين))[(٢)] .

واستمر عليه السلام في دعوته يلح عليهم ويخوفهم عذاب الله ولم يتبعـه منهم الا القليل المستضعفون ، فلما رأو ذلك منه طلبوا منه آية ، فأرسل اللـه تعالى الناقة آية ، وابتلاءا لهم وحذرهم وأخذ عليهم المواثيق ، ان لا يمسوهـا بسوء[(٣)] ، وأنذرهم ان عذابهم مرتبط بذلك وحذرهم من ذلك اشد التحذيـر ، ولكنهم خالفوه وعصوه أمره وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم .

٣) نهاية قوم صالـح :

طلب قوم صالح أن يأتيهم بآية تحديا له وتعللا في رد دعوته ، فأرسل الله تعالى لهم الناقة فتنة لهم ، وبين لهم أن لها شرب يوم ولهم شرب يوم وحذرهـم من المساس بها بأي نوع من أنواع السوء ، وأنهم ان فعلوا ذلك فان العذاب واقـع بهـم .

ولكنهم خالفوا ذلك وارتكبوا ما نهاهم الله عنه وعقروا الناقة فجاءهـم العذاب صيحة من السماء ورجفة من الأرض فاضت بها ارواحهم وزهقت لها نفوسهم وهلكوا جميعا الا صالحا ومن آمن معه ، وهكذا انتهوا الى هذه النهاية الأليمـة جزاء تكذيبهم وردهم لدعوته الله تعالى ، وهي نهاية كل مشرك مكذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر .[(٤)] قال الله جل شأنه : ((ويا قوم هذه ناقة الله لكم آيـة ،

---

(١) الآية ٦٢ من سورة هود .
(٢) الآيتان ١٥٣ ، ١٥٤ من سورة الشعراء .
(٣) انظر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨٩/١ ، ٩٠ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٢٢٩/٢ .

فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوي العزيز ، واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها الا أن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود))[1] .

وهكذا نزل بهم ما حذرهم منه رسولهم صالح عليه السلام ، فكانت نهايتهم الأليمة وعاقبتهم الوخيمة عبرة وعظة لكل معتبر متعظ ، فتلك ديارهم خاوية على عروشها باقية الى زماننا هذا ، فليحذر أهل الشرك والضلال أن يحل بهم ما حل بأولئك فان الله تعالى يمهل ولا يهمل ، فاذا أخذ الظالم لم يفلته ((وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ، ان أخذه أليم شديد))[2] .

آيات وعبر من دعوة صالح عليه السلام :

١) البدء في دعوته بالتوحيد كما هي دعوة الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام .

٢) أن نعم الله عز وجل على عباده اذا لم تصرف في طاعته سبحانه وطاعة رسله فانها تنقلب نقمة وعذابا على أهلها .

٣) ان الله تعالى ناصر رسله واتباعهم وان كانوا قلة مستضعفين ، وان الكثرة لا قيمة لها ولا عبرة بها اذا لم تكن على الحق .

٤) أن طلب المعجزات والآيات اذا لم يتبعه الايمان الصادق ، فان العقوبة على ذلك تنزل عاجلة .

٥) أن اثار المعاصي والآثام قد تمتد الى ازمنة بعيدة ليتعظ بها من بعدهم .

---

(١) الآيات من ٦١ ـ ٦٨ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

٦) أن آثار المعاصى والأثام قد تصل الى الأراضي والمياه وغيرها ، ولذلك نهـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه عن دخول أرضهم الا وهم باكـــون ، ونهاهم عن الشرب من مائها ، والأكل مما عجن بذلك الماء .

$$$$$ $$$$$ $$$$$

$$$$$ $$$$$

$$$$$

$

المبحث الرابع

دعوة ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

هو أبو الأنبياء وخليل الرحمن ابراهيم بن آزر عليه الصلاة والسلام ، جعل الله تعالى في ذريته النبوة والكتاب ، فما نزل كتاب من السماء بعده عليه السلام الا كان في ذريته وشيعته ، وهذه مرتبة عظيمة ومقام رفيع اختص الله بها خليله ابراهيم عليه السلام .(١)

قال عز وجل : ((ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا ، وانه في الآخرة لمن الصالحين))(٢) .

وقال جل شأنه : ((ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون))(٣) .

وقد بعث الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام في فترة من الرسل عم فيها الشرك بأنواعه الأرض وسادت الوثنية واستحكم الجهل والضلال ، فاختار الله رسوله ابراهيم واصطفاه لهذه المهمة العظيمة ، فقام بها خير قيام ، وأدى الأمانة خير أداء ، وهو أحد أولي العزم من الرسل ، دعا الله عز وجل أن يبعث رسولا في هذه الأمة فاستجاب الله تعالى دعوته وبعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمدا عليه الصلاة والسلام ، وكان من أكرام الله تعالى لخليله عليه السلام أن أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته باتباع ملة ابراهيم عليه السلام .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٥٦/١ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

وقص الله تعالى دعوة ابراهيم عليه السلام في سور كثيرة من كتابه .[1]

والحديث عن ابراهيم عليه السلام ودعوته طويل ، والمواقف والعبر فيهـا كثيرة ، اكتفي بذكر أهمها :

١) في دعوة أبيه :[2]

كان أبوه أول المكذبين بدعوته ، والمعرضين عنها ، والمعارضين لهـا ، وقد بذل ابراهيم عليه السلام جهده في دعوة أبيه الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتخليصه من عبادة غير الله تعالى ، واتسمت دعوته لابيه بالأدب الجم والتواضع العظيم ، مع بلاغه في الحجة ، وقوة في البرهان ، وقص الله تعالى ذلك في كتابه الكريم فقال سبحانه : ((واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أرغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته

---

(١) منها : سورة الأنعام ، وابراهيم ، ومريم ، والأنبياء ، والشعراء ، والصافات ، والممتحنة .

(٢) اسمه آزر بن ناحور ، وقيل اسمه تارح ، والصواب آزر لما ورد من التصريح به في آية الأنعام ، ((واذ قال ابراهيم لأبيه آزر)) .وما جاء في البخاري بشرحه ٣٨٧/٦ ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (يلقى ابراهيم أباه آزر وعلى وجه آزر قترة وغبرة) وقيل له اسمان علمان أو احدهما لقب والآخر علم . انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣٢/١ ـ ١٣٤ .

لأرجمنك واهجرني مليا ، قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي انه كان بي حفياً ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي ، عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا))[1] .

يعرض القرآن الكريم هذا الحوار بين ابراهيم عليه السلام وأبيه ابلغ عرض وأحسنه ، وقد تجلت فيه حكمة ابراهيم الخليل عليه السلام وأدبه مع أبيه ، وحرصه على هدايته الى الصراط المستقيم ، وما قابله به أبوه من التكذيب والتهديد والوعيد الذي لم يزد ابراهيم عليه السلام الا أدبا الى ادبه وحرصا وصبرا على دعوة أبيه ووعده بأن يستغفر الله تعالى له ، وقد وفى بوعده عليه السلام .

ولم يقتصر حرصه على هداية أبيه في الدنيا بل سيكون ذلك حتى في يوم القيامة ، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يلقي ابراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم : يا رب ، انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : اني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا ابراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فاذا هو بذبح ملتطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار)[2] .

وهذا الحرص من الخليل عليه السلام على هداية أبيه يشبه حرص رسول الله

---

(١) الآيات من ٤١ ـ ٤٨ من سورة مريم .
(٢) البخاري بشرحه ٣٨٧/٦ .

صلى الله عليه وسلم على هداية عمه أبي طالب ، وحرصه الشديد على ذلك حتى وهو في سكرات الموت ، وهو يقول له : (**يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**)[(١)] ، ولكن جلساء السوء مازالوا به يذكرونه ماكان عليه من دين آبائه واجداده حتى مات وهو على كفره ، ووعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار له حتى نزل قوله تعالى : ((**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، ان ابراهيم لأواه حليم**))[(٢)] .

ونزل في أبي طالب خاصة : ((**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين**))[(٣)] .

وحين رأى ابراهيم عليه السلام اصرار أبيه على الكفر ، واعراضه وعداءه للحق ، وعدم استجابته لدعوته ، عند ذلك أعلن البراءة منه ، كما بينت ذلك الآية التي سبق ذكرها ، وكما جاء في قوله تعالى ـ في براءته عليه السلام مما كان عليه أبوه وقومه ـ : ((**واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون ، الا الذي فطرني فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون**))[(٤)] .

وهذه البراءة التي اعلنها الخليل عليه السلام من الشرك وأهله ، وأولهم أقرب الناس اليه ابوه ، هذه البراءة من أول لوازم تحقيق التوحيد واخلاصه لله

---

(١) البخاري بشرحه ٥٠٦/٨ ، ومسلم بشرحه ٥٤/١ من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه .   (٢) الآيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٦ من سورة القصص .

(٤) الآية ٢٦ من سورة الزخرف .

عز وجل ، وهي مرتبة عالية يصل اليها من رزقه الله تعالى ايمانا صادقا وعملا صالحا خالصا لله وحده ، وكلمة التوحيد لا اله الا الله معناها الولاء والبراء ، وهي العروة الوثقى ، قال الله تعالى : ((فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم))[١] .

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية عقيدة الولاء والبراء اهتماماً كبيرا ، قال الله تعالى : ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح نه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله الا أن حزب الله هم المفلحون))[٢] .

وقال جل شأنه : ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الظالمون))[٣] .

وقال سبحانه : ((قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين))[٤] .

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٣) الآية ٢٣ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

ومن السنة ما جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[١] .

وما جاء في الصحيحين ايضا عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار)[٢] .

فهذان الحديثان وغيرهما يدلان على ان المسلم يجب ان تكون ولايته ومحبته لله تعالى ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، لا يجوز له أن يشرك فيهما أحدا مهما كانت قرابته أو مكانته ، كما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : (لأنت يا رسول الله أحب الي من كل شيء الا نفسي ، فقال : والذي نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال له عمر : فانك الآن أحب الي من نفسي ، فقال الآن ياعمر)[٣] .

والآيات والأحاديث واقوال السلف في هذا الباب كثيرة ، في الأمر بالولاء والبراء لله تعالى والنهي عما يخالفه ، وبيان لمن يكون الولاء[٤] .

---

(١) البخاري بشرحه ٥٨/١ ، ومسلم بشرحه ٦٧/١ .
(٢) لبخاري بشرحه ٦٠/١ ، ومسلم بشرحه ٦٦/١ .
(٣) البخاري بشرحه ٥٢٣/١١ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٦٩/٢ - ٧٢ ، وكتاب فتح المجيد ص ٢٨٩ - ٣٠٠ ، والفتاوي لابن تيمية ١٤٦/١ ، ١٤٧ .

٢) دعوته قومـه :

دعا ابراهيم عليه السلام قومه الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، واجتهد في ذلك اعظم اجتهاد ، وسلك كل طريق ظنه موصلا الى هدايتهم ، وقبولهم للحق الذي جاء به ، وبعدهم عن الباطل ، وأتاه الله عز وجل الحجة البالغة على قومه ، ومن اساليبه وطرقه في دعوة قومه :

دعوتهم بطريق الاستدراج :

فحين جَـن عليه الليل رأى كوكبا من الكواكب ، فقال لقومه على سبيل الاستدراج والتهكم ((هذا ربي)) ، فلما غاب عنه قال : ((لا أحب الآفلين)) فكيف يصلح هذا الكوكب أن يكون ربا والٰها وهو يحضر أحيانا ويغيب أحيانا ، وكذلك قال كما رأى القمر ، والشمس ، قال الله عز وجل : ((وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه ، قال اتحاجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ، وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم))[1] .

---

(١) الآيات من ٧٥ ـ ٨٣ من سورة الأنعام .

فقد استدرجهم عليه السلام ، حتى كشف لهم بطلان ما هم عليه من عبادة الكواكب من دون الله تعالى [١] .

وهذه مهارة ودهاء وحكمة منه عليه السلام ، اذ جعلهم بأنفسهم يقيمون الحجة على أنفسهم ، ووضع ايديهم على مواطن الضعف منهم ، وظهر لهم في موقف الباحث لئلا ينفروا منه ، حتى ابطل حججهم ، واظهر باطلهم ، وبعد ذلك أعلن لهم عقيقدته الحقه ، وبراءته منهم ومن شركهم ، وولاءه وتوحيده لله تعالى وحده لا شريك له ، وثقته به سبحانه ، وعدم خوفه مما يشركون ، وان الخوف لهم وفيهم لشركهم بالله تعالى وعبادتهم غيره ، وهذه القوة في الحجة والبلاغة في البرهان نعمة وفضل تفضل الله به خليله ابراهيم عليه السلام [٢] .

وفي هذه الآيات وعد بالأمن والهداية من الله تعالى لنبيه ابراهيم عليه السلام ولكل موحد ، وذلك في قوله تعالى : ((**فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**)) ، بعد أن بين الرسول صلى الله عليه وسلم المقصود بالظلم في الآية ، حين شق ذلك على اصحابه رضي الله عنهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**ليس بالذين تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ((ان الشرك لظلم عظيم)) انما هو الشرك**) [٣] .

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣٠/٤ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/١ ، ١٣٥ ، والتفسير لابن كثير ١٥٠/٢ ـ ١٥٣ ، وكتاب دعوة الرسل لمحمد احمد العدوي ص ٤٤ .

(٣) البخاري بشرحه ٤٦٥/٦ .

وقصة ابراهيم عليه السلام مع عباد الكواكب ، زعم بعض المؤرخين أنهما وقعت حين خرج من السرب وكان صغيرا ، وممن ذكر ذلك ابن اسحاق .

وذلك غير صحيح مصدره أخبار اسرائيلية ، والصحيح أن ذلك كان في دعوته ومناظرته لأهل حران عباد الكواكب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : " والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فانهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد على من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا ، كما ذكره ابن اسحاق وغيره ، وهو مستند الى أخبار اسرائيلية لا يوثق بها ، ولاسيما اذا خالفت الحق ، وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتها ، وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها "[1] .

ومن اساليبه عليه السلام في دعوته قومه :

ب- بيان عجز ألهتهم وضعفها :

بين عليه السلام ضعف ألهتهم وعجزها ، وأنها جمادات لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعا ولا ضرا ، وعزز ذلك بالدليل المادي على ذلك اذ كسرها وعلق الفأس في رقبة كبيرها ، فلم تستطيع دفع الضرر عن نفسها ، قال الله سبحانه : ((وان من شيعته لابراهيم ، اذ جاء ربه بقلب سليم ، اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم ، فتولوا عنه مدبرين ، فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضربا باليمين ، فأقبلوا اليه يزفون ، قال اتعبدون

---

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٣٥/١ .

ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين))[1] .

وقال جل شأنه : ((ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتا لله لأكيد اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا الا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أ أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ، قلنا يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين))[1]

في هذا الموقف أقام ابراهيم عليه السلام الحجة بالغة على قومه ، وقدم لهم الدليل الحسي المادي على بطلان عبادتهم لهذه الأصنام ، وكيف انها عجزت عن دفع الضر عن نفسها ، فكيف يطمعون أن تدفع عنهم ضرا ، أو تجلب لهم نفعا ، ويصرفون لها العبادة من دون الله تبارك وتعالى الذي يملك النفع والضر وحده لا شريك له ، فهو المستحق للعبادة دون سواه .

---

(١) الآيات من ٥١ ـ ٧٠ من سورة الأنبياء .

ولكنهم مع ذلك كله أبوا الا المكابرة والاصرار على الباطل رغم وضوح الحجة وظهور البرهان ، وانكشاف بطلان عبادتهم ، واستحكم الجهل في نفوسهم ، وسيطر التعصب للباطل على عقولهم ، وقرروا الانتقام من ابراهيم عليه السلام باحراقه ولكن الله تعالى نجاه من كيدهم ومكرهم ، وأكرمه ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وخذل أعداءه وأهلكهم بما ظلموا .

٣) موقفه عليه السلام مع مدعي الربوبية :

ذكر المفسرون أن مدعي الربوبية هذا هو النمرود بن كنعان ، ملك بابل ، ونقل ذلك عن مجاهد وغيره [1] ، وقد دارت بينه وبين ابراهيم عليه السلام مناظرة انتهت بهزيمة عدو الله ، الذي ظن أنه بقتله رجلا وعفوه عن آخر قد تحتم قتلهما ، ظن ذلك الجاهل أنه بذلك يحيي ويميت ، ولكن ابراهيم عليه السلام وقد آتاه الله عز وجل قوة الحجة ، أفحمهمن أول وهله ، اذ طلب منه ما دام انه يدعي الربوبية أن يأتي بمن الشمس من المغرب بدلا من المشرق ، فالرب لابد أن يكون قادرا على التصرف كيف شاء ، ولكن ذلك الكافر المكابر عجز وبهت ، كما قال الله تبارك وتعالى : ((**ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين**)) [2] .

وهكذا شأن الطغاة يظنون أنهم بتلبيسهم على بعض عوام الناس وجهلتهم

---

(١) انظر : البداية والنهاية ١٣٩/١ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٣/٣ ، ٢٨٤ .

(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

قادرون على تحقيق مقاصدهم الشيطانية ، وأطماعهم الفاسدة ، كما فعل فرعون مع قومه ، وكما هو شأن الطغاة في كل زمان ومكان ، ولكنه ما ان تشرق شمس الحق ويسطع نوره ، حتى يتبدد ظلام باطلهم ، وتنهزم كبرياؤهم ، وتدحض حجتهم ويفضح الله أمرهم .(1)

بعض الدروس والعبر من دعوة خليل الله ابراهيم عليه السلام :

الدروس والعبر من دعوة ابراهيم عليه السلام كثيرة أكتفي بذكر بعضها :

١) الصبر العظيم :

وقد كان هذا اعظم زاد تزود به ابراهيم عليه السلام ، وأقوى سلاح تسلح به ، حتى كان من أولي العزم من الرسل ، فمع عناد قومه وايذائهم له وردهم لدعوته ومحاربتهم لها ، وفي مقدمتهم أبوه ، وكانت العداوة منهم جميعا لابراهيم عليه السلام على كافة مستوياتهم ، ولم يؤمن به أحد منهم ، فصبر وصابر وجاهد ، وأخبر الله تعالى عنه أنه أمة ، قال عز وجل : ((**إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين**))(2) .

٢) قوة الحجة :

وهي نعمة عظيمة تفضل الله عز وجل بها عليه ، فكان كثيرا ما يناظر قومه فيظهره الله عليهم ، قال تعالى : ((**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم**))(3) ، وهذه النعمة يؤتيها الله ويمتن بها على أنبيائه وأتباعهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) انظر : معالم التنزيل للبغوي ٢٤٢/١ .
(٢) الآية ١٢٠ من سورة النحل .
(٣) الآية ٨٣ من سورة الأنعام .

٣) **تنوع اساليب الدعوة وطرقها في دعوته :**

وهذا ظاهر في دعوته عليه السلام ، فتارة بالاستدراج ، كما فعل مع عباد الكواكب ، وتارة باقامة الأدلة الحسية على بطلان عبادتهم لغير الله ، كما فعل بأصنامهم حين كسرها وعلق الفأس في رقبة كبيرهم ، وأحيانا بالمناظرة كما فعل بالذي ادعى الربوبية ، ومرة باظهار الشفقة والخوف عليهم من العذاب كما فعل مع أبيه .

وهذا التنويع مطلوب في الدعوة الى الله تعالى حتى تصل الى قلوب الناس ، والدعاة محتاجون الى هذه الأساليب لاختلاف افهام الناس ومداركهم .

٤) **الولاء والبراء في دعوته عليه السلام :**

فقد كان ابراهيم في دعوته لهم وتنوعه اساليب هذه الدعوة ، يظهر لهم في كل موقف أن ولاءه لله وحده لا شريك وخوفه منه وحده ، وبراءته منهم ومما هم عليه من الشرك والضلال ، حتى جعل الله ذلك أسوة للمؤمنين من هذه الأمة ((**قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومه انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضا ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده**))[1] ، وسبق الكلام عن ذلك عند الحديث عن دعوته أباه .

وجاءت الآيات في أكثر من سورة تبرئ ابراهيم من الشرك ، وتشهد له بالتوحيد وهذا أول ما يجب أن يتحلى به كل داعية أن يعلن ولاءه لله تعالى ،

---

(١) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

وبراءته من كل ما سواه ، وهو كذلك أول ما يجب أن يتحلى به كل مسلم كما قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))[1]

---

(١) الآيتين ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

المبحث الخامس

دعوة موسى عليه الصلاة والسلام

وهو نبي الله ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام ابن عمران بن لاهب بن عازر بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ، قال الحافظ في الفتح : لا اختلاف في نسبه .[(١)]

وهو أحد أولي العزم من الرسل ، كليم الله ورسوله الى بني اسرائيل ، بعثه وقد طغا فرعون واستكبر في الأرض بغير الحق ، وبلغ شره البلاد والعباد ((إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم بذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين))[(٢)] .

والطائفة المذكورة في الآية هم بنوا اسرائيل ، وقد بلغ فرعون من الفساد والالحاد والطغيان مبلغا فاق به كل كفر والحاد ، فقد ادعى الربوبية والألوهية على قومه ، وانه لا اله غيره ، كما أخبر الله تعالى عنه : ((وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل صرحا لعلي أطلع الى اله موسى واني لأظنه من الكاذبين))[(٣)] .

وقال جل شأنه : ((فقال أنا ربكم الأعلى))[(٤)] .

وقال مهددا لرسول الله موسى عليه السلام : ((لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين))[(٥)] .

---

(١) انظر : فتح الباري للحافظ ابن حجر ٤٢٢/٦ .
(٢) الآية ٤ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٤) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الشعراء .

فدعاه موسى عليه السلام الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وشد الله أزر موسى بأخيه هارون عليه السلام وأناط بهما دعوة بني اسرائيل وتخليصهم من عبودية فرعون وجبروته واستذلاله لهم ، رغم ما بذله فرعون لصد هذه الدعوة والقضاء عليها منذ أن أخبره الكهان والمنجمون عن أمر موسى ، ولكن الله تعالى غالب على أمره ، وناصر رسله واتباعهم ، نصر موسى وهارون وأهلك فرعون وجنوده ، وأورث بني اسرائيل الأرض من بعدهم : ((**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**))[١] .

وقد ذكر الله تعالى قصة موسى ودعوته في مواضع كثيرة من كتابه الكريم[٢] .

والحديث عن موسى عليه السلام ودعوته طويل والمواقف فيه كثيرة ، أكتفي بذكر أهمها:

١) تكليم الله تعالى له وبدء الرسالة :

بعد أن قضى موسى الأجل الذي اتفق عليه مع صاحب مدين ، وكان عليه السلام قد قضى اتم الأجلين وأكملهما ، كما ورد عن سعيد بن جبير رحمه الله قال : (**سألني يهودي من أهل الحيرة ، أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، ان رسول الله اذا قال فعل**)[٣] .

بعد ذلك سار موسى عليه السلام بأهله في ليلة مظلمة مطيرة باردة ، وتاهوا

---

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القصص .

(٢) في سورة المائدة ، والأعراف ، ويونس ، وابراهيم ، وطه ، والمؤمنون ، والشعراء ، والنحل والقصص ، وغافر ، والزخرف ، والدخان .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٩/١ .

عن الطريق المألوف ، وفي تلك الحال رأى نارا عن بعد ، في جانب جبل الطور ، فأمر أهله بالمكوث وذهب يلتمس خبر النار ، فلما وصل كان وعد الله في ذلك المكان ، وسمع النداء الالهي من الشجرة ، وأراه ربه عز وجل من الآيات والمعجزات ما شاء سبحانه ، وحصلت له أمور عظيمة في تلك البقعة ، وهي : كلام الله عز وجل له ، وجعله رسولا ، واظهار المعجزات على يديه[1] . قال الله عز وجل :

((إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه ، انهم كانوا قوما فاسقين))[2] .

وقال سبحانه : ((فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا اني آنست نارا ، لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، وأضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين))[3] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٨٧/٣ ، ٣٨٨ ، ومعالم التنزيل للبغوي ١٤٤/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٠/١ ـ ٢٣١ .

(٢) الآيات من ٥ ـ ١٤ من سورة النمل .

(٣) الآيات من ٢٩ ـ ٣٢ من سورة القصص .

وقال جل شأنه : ((وهل اتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله إنـي آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نـودي يا موسى ، إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، انني أنا الله لا إله الا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكـري ، إن الساعة آتيه أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها مـن لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى))[(١)] .

وقال تعالى : ((هل أتاك حديث موسى ، اذ ناداه ربه بالواد المقـدس طوى ، اذهب الى فرعون انه طغى ، فقل هل لك الى ان تزكى ، واهديك الى ربـك فتخشى))[(٢)] .

فقد بينت الآيات السابقة ما حصل لموسى عليه السلام بعد خروجه بأهلـه من مدين الى مصر ، وما رأى من آيات ربه تعالى اعدادا له وتهيئة لحمل الرسالة ، وما سيلاقيه في سبيلها .

وفي فهم هذه الآيات ، زلت أقدام أقوام وانحرفت افهامهم عن الطريـق المستقيم في فهم كتاب الله تعالى ، فزعموا أن الله تعالى خلق الكلام فـي الشجرة ، وسمع ذلك موسى من الشجرة ، لا أن الله سبحانه هو المتكلم فعلا[(٣)] .

---

(١) الآيات من ٩ ـ ١٦ من سورة طه .

(٢) الآيات من ١٥ ـ ١٩ من سورة النازعات .

(٣) أول من أنكر تكليم الله تعالى لموسى هو الجعد بن درهم ، الذي تتلمـذ عليه الجهم بن صفوان مؤسس الجهمية ، وقد قتله ـ أي الجعد ـ خالـد ابن عبدالله القسري ، فالجهمية ينكرون صفة الكلام حقيقة ، ومنهم مـن يقر باللفظ ، ولكن يقول بأن الله خلق الكلام في غيره كقول المعتزلـة الذين يقولون ان الله تعالى كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة ، وحقيقة ذلـك عندهم أنه خلق الكلام في غيره كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى .

====

وهذا من الضلال المبين في فهم كتاب الله تعالى ، ومن تقديم العقول العاجزة القاصرة عليه ، اذ لم يفهموا معنى النداء ، وانه الكلام من بُعْد ، كما لم يفهموا معنى قوله تعالى : ((في البقعة المباركة من الشجرة)) فأنت حين تقول : سمعت كلام فلان من البيت ، ليس معنى ذلك أن البيت هو المتكلم .

وكذلك ضلوا عن فهم ما بعد ذلك ، فلو كان الأمر كما زعموا أن الكلام مخلوق في الشجرة ، فمن الذي يقول : ((يا موسى إني أنا الله رب العالمين)) ؟ هل تقول ذلك الشجرة ؟ وهل تقول : ((إني أنا الله رب العالمين)) ؟

وعلى فهمهم هذا ففرعون لم يكن مخطئا حين قال : ((أنا ربكم الأعلى)) وهذا من فساد العقول وانحراف الافهام ، نعوذ بالله من ذلك .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وأما اطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى ، فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يستتاب فان تاب والا قتل ، فانه أنكر نص القرآن ، وبذلك افتى الأئمة والسلف في مثله ، والذي يقول : القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له ، فلذلك كفره السلف "[1]

== والأشاعرة يقولون الكلام هو المعنى القائم بالنفس ،والحروف والأصوات عبارة عنه .
انظر : الفتاوى لابن تيمية ١٢/٥٠٢ - ٥٣١ ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/١٥٩ - ١٦١ تحقيق د. محمد رشاد سالم ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(١) ابن تيمية - الفتاوى ١٢/٥٠٨ .

الموقف الثاني : بدء دعوة موسى عليه السلام :

ما تقدم ذكره مما حصل لموسى عليه السلام من آيات ربه سبحانه وكلامه له ، كان تهيأة للمهمة العظيمة التي اختاره الله تعالى لها ، واشعارا بالرسالة التي اصطفاه الله لحملها ، وعدة له في دعوته فرعون وملأه .

قد أدرك عليه السلام ثقل هذه المسؤولية ، وجسامة العبء ، وشكى ذلك لربه سبحانه مع ما سلف منه من قتل القبطي ، اضافة الى ما يشعر به من عدم فصاحة اللسان ومشيرا الى فصاحة اخيه هارون ، فأوحى اليه ربه بأنه معه وناصره دعوته ومؤيده في مسيرته .

((اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانا من ربك الى فرعون وملائه ، انهم كانوا فاسقين ، قال رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني ، اني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل صرحا لعلي أطلع الى إله موسى ، وإني لأظنه من الكاذبين ، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم الينا لا يرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين))[1] .

---

(١) الآيات من ٣٢ ـ ٤٠ من سورة القصص .

هذه الآيات البينات تحكي قصة دعوة موسى ، منذ بدايتها ووعد الله له بالتأييد ، ثم ما واجهه من فرعون من الطغيان والتكبر ، فقد أعلن ادعاءه للربوبية معارضا به دعوة موسى عليه السلام ومستنكرا لها ، ومتهما أنها سحر مختلق من عند موسى ، ثم كيف كانت نهايته وعاقبة تكذيبه لهذه الدعوة . وتكبره على رسول الله موسى عليه السلام واستخفافه بأمور الله ، وله يوم القيامة عذاب وخزي فوق ذلك .(١)

وكان موسى عليه السلام قد بدأه بتذكيره بعظمة الخالق سبحانه ، مستدلا ومذكرا لهم ببعض هذه الآيات التي يشاهدونها ، وأن الذي أوجدها هو الاله الحق المستحق للعبادة وحده .

الموقف الثالث : مناظرة موسى لفرعون :

وقد قص الله تعالى في القرآن في أكثر من موضع مناظرة موسى عليه السلام وفرعون ، وكيف كان فرعون يلجأ فيها الى المكابرة والتهديد بالقوة والبطش ، وهذه حيلة العاجز عن المناظرة .

قال تعالى : ((واذ نادى ربك موسى ان إئت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ، قال رب اني اخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الي هارون ، ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني اسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذاً وأنا من الظالمين ، ففرت منكم لماخلقتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل ، قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ، قال

---

(١) انظر دعوة الرسل للعدوي ص ٢٧٤ .

رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ، قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ، قال أولو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فاذ. هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين))[١] .

لقد كانت هزيمة فرعون في هذه المناظرة من أول وهلة ، ولكنه كان يسترها بتجاهلهلموسى عليه السلام ، والامتنان عليه بما قام به من الانفاق عليه يوم كان رضيعا وطفلا ، وتذكير موسى بقتله الرجل القبطي ، ثم بتجاهله ربوبية الله عز وجل ، واعلانه أنه هو الرب ، وتهديد إن اتخذ الها غيره ، وتأييد بطانة السوء له في كل ما يقول.

كل ذلك كان من فرعون تغطية لهزيمته التي أحس بها أمام موسى عليه السلام ، وهو في قرارة نفسه يعلم أن الله تعالى هو الاله الحق ، وهو رب العالمين سبحانه ، كما بين الله تعالى ذلك بقوله : ((وجحدوا بها واستيقنتاها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين))[٢] .

وكما ذكره موسى عليه السلام بذلك في قوله : ((لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء الا رب السموات الأرض بصائر واني لأظنك يا فرعون مثبورا))[٣] .

---

(١) الآيات من ١٠ ـ ٤٠ ن سورة الشعراء .

(٢) .لآية ١٤ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .

ثم كان من عجزه أن التجأ الى بطانة السوء من حوله يستشيرهم في أمـــر موسى بعد أن أعلن لهم انه ساحر ، فاشاروا عليه بجمع السحرة،وكانت نتيجتهـا حجة اخرى على فرعون ، وهزيمة لم يكن يتوقعها .[1]

وهذه حال كثير من الطغاة الذين يقفون أنفسهم على عداوة دعوة اللـــه تعالى ، وايذاء حملتها ، يلصقون بهم التهم ، ويبررون لأنفسهم كل أنواع الانتقـام منهم والاتهام لهم ، وبطانة السوء تزين ذلك لهم ، وتعينهم على الاثم والعدوان .

الموقف الرابع : اسلام السحـرة :

اتهم فرعون موسى عليه السلام بالسحر ، واستشار ملأه في ذلك فأشـــاروا عليه بجمع السحرة من انحاء البلاد ، وكان السحر منتشرا فيها ، ثم التقـــوا بموسى عليه السلام في جمع مشهود ، وفرعون يعدهم ويمنيهم ، وموسى عليه السلام يعظهم وينصحهم : ((قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكـــم بعذاب ، وقد خاب من افترى))[2] ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فقد ركبهم ما ركـب فرعون من الطغيان .

وتقابل الفريقان ، والقى السحرة ما عندهم من باطل ، والقى موسى عصـــاه بأمر ربه تعالى له ، فاذا هي كما قال عز وجل ((تلقف ما يأفكون)) ، وحيـــن رأى السحرة ذلك علموا يقينا أن ذلك ليس من صنع البشر ولا من صنع موســـى ، وانما هو من الله وحده ، عندها اعلنوا اسلامهم لله تعالى وتوحيدهم له وحـــده

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٣٣ .

(٢) الآية ٦١ من سورة طه .

لا شريك له ، وايمانهم به ،واذا هـم ينتقلون هذه النقلة الكبيرة العظيمة من عبودية فرعون لا الى عبودية موسى ، ولكن الى عبادة رب موسى سبحانه الذي رأوا آياته تجري على يد موسى عليه السلام ، واعلنوا ذلك على فرعون ومن معه بعد أن خروا ساجدين لله تعالى ((فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون))[1] . وجن جنون فرعون ، اذ جاءته الهزيمة من حيث أراد النصر ، وقبل أن يتهدد ويتوعد يعلن له السحرة تحديهم لذلك وثباتهم أمامه .

قال ابن عباس وعبيد بن عمير : (كانوا أول النهار سحرة ، وآخره شهداء بررة)[2] .

قال الله عز وجل : ((ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم واسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطرقتكم المثلى ، فاجمعوا أمركم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ، قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من القى ، قال بل القوا ، فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فاوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف انك أنت الأعلى ، والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجدا ، قالوا آمنا برب

---

(١) الآيات من ٤٦ ـ ٤٨ من سورة الشعراء .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٢/١ .

هارون وموسى ، قال أمنتم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن ايديكم وأرجلكم من خلاف ، ولاصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وابقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنامن البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرما فان له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى))[(١)] .

لقد كان هذا أول انتصار لدعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام ، وأول هزيمة لشرك فرعون وكفره أمام ملائه ، وعلى مرأى وسمع كثير من الناس الذين جمعهم لشهود هذه المناظرة التي كان جازما أنها لصالحه ، وكان يتمنى لو أن ما فعله السحره تم باذنه ، أو بعيدا عن أعين الناس ، كما يفهم ذلك من قوله : ((آمنتم له قبل أن آذن لكم)) .

ثم اتهم السحرة بالاتفاق مع موسى عليه السلام على ما حدث ، وهو أمر مرفوض اذ لم يكن موسى على معرفة ولا صلة بهم ، انما هذه التهم من فرعون حين سقط في يده باسلام السحرة ، فمرة يعتب عليهم أنهم آمنوا قبل اذنه ، ومرة يتهمهم بتآمرهم مع موسى عليه السلام ، ثم يرجع الى تهديده ووعيده ، كل ذلك ليخفف على نفسه وقع الهزيمة المرة ، ووقع المصيبة العظيمة ، كما هو شأن الطغاة ، اذا تكشف باطلهم وانفضح طغيانهم[(٢)] .

---

(١) الآيات من ٥٦ ـ ٧٦ من سورة طه .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٩/١ ـ ٢٤٠ ، وكتاب دعوة الرسل لمحمد احمد العدوي ص١٨٦

وكان ايمان السحرة مدعاة لافتضاح فرعون ، لأنهم كانوا علماء لهم مكانتهم، فكان لايمانهم ضجة كبرى ، أحدثت في حاشية فرعون هزة عنيفة ، وزلزالا كبيرا ((فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون))[١] .[٢]

ولكن العبرة ليست بالكثرة أو القلة ، بل باتباع الحق ، فاتباع الحق هم الأكثرون ولو كانوا قليلي العدد ، وهم الجماعة ولو كان واحدا .[٣]

الموقف الخامس : موقف ملأ فرعون من دعوة موسى عليه السلام :

ملأ فرعون هم بطانته واعوانه وكبراء قومه الذين يعيشون حوله ، يزينون له الباطل ويحببونه اليه ، ويظهرون له الحق في صورة الباطل ويكرهونه اليه ، ويتفانون في سبيل ذلك ، خشية أن يكشف الحق باطلهم وكذبهم ، لأنهم يعيشون على حساب غيرهم ، ويعلمون أنه لا بقاء لهم الا مع بقاء الباطل ، وهم في كل زمان ومكان ، ومع كل رسول ونبي وداع ومصلح هم حجر عثرة في سبيل دعوة التوحيد سلاحهم الكذب والنفاق والوشاية بأهل الحق ، والتحريض عليهم وتلفيق التهم حولهم .[٣] .

وملأ فرعون من أشد هؤلاء فتنة ، وأعظمهم شرا ، وباختصار اذكر بعض مواقفهم من دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام :

(.) الآيات من ٥٣ ـ ٥٦ من سورة الشعراء .
(٢) محمد بن احمد العدوي ـ دعوة الرسل ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٢/١ ، وعوة الرسول للعدوي ص ٢٧٨ .

١) **الاستهزاء والسخرية بموسى ودعوته :**

وكان ذلك منذ بداية الدعوة حين قابلوا هذه الدعوة بالاستهزاء والازدراء بموسى ، وكانوا ينفخون ذلك في فرعون ، الذي كان يعتز بهم ويفاخر ويشاورهم في أمر موسى ودعوته .

قال الله عز وجل : ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال اني رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون ، وما نريهم من آية الا هي أكبر من اختها ، واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون ، فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون ، ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا القى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فاطاعوه انه كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم اجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للأخرين))[١] .

فلقد كان لهؤلاء الملأ الدور الأول في وصول فرعون الى ما وصل اليه من الطغيان والضلال ، ولذلك ترى أنه لا يذكر فرعون والا معه ذكر الملأ غالبا لكثرة ملاحقتهم وملازمتهم له .

٢) هم السبب في جمع السحرة حين شاورهم فرعون ظنا منهم أن في ذلك القضاء على موسى ودعوته ، ولكن الله غالب على أمره ، فقد جاءهم عكس ما أرادوا وخططوا

---

(١) الآيات من ٤٦ ـ ٥٦ من سورة الزخرف .

اذ آمن السحرة على مشهد من الناس الذين اجتمعوا لذلك ، وهذا ما لم يكن لفرعون وملائه في حسبان .

٣) لم يكفهم ما كان من جمع السحرة وهزيمتهم في ذلك حين اعلن السحرة اسلامهم ، بل بالغوا في عداوة موسى عليه السلام ودعوته خوفا على أنفسهم وطمعا في نيل مآربهم الدنيئة ، فاستعدوا فرعون واستفزوه باسلوب يعلمون تأثيره عليه ، وهو زوال ملكه وسلطانه .

قال الله جل شأنه : ((**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون**))(١) .

ولكن موسى تسلح بسلاح لا يغلب وأوصى قومه بذلك : ((**قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين**))(٢) .

الموقف السادس : مؤمن آل فرعون :

كان من نصر الله عز وجل لموسى عليه السلام أن بعث له ناصرا من داخل اسرة فرعون ، آمن به ولكنه كان يكتم ايمانهعن فرعون وملائه ، وقد كان له موقف عظيم تجلى فيه النصح الخالص والحرص على موسى ، والحكمة البالغة في وعظ فرعون وملائه ، وبدأهم بقوله على وجه المشاورة لهم : ((**أتقتلون رجلا أن يقول**

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٢٨ من سورة الاعراف .

ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)) [١] ثم تدرج في وعظهم يجمع لهم بين الترغيب والترهيب ، ويخوفهم بزوال ملكهم الذي هو أغلى ما يحرصون عليه ، ويبين لهم أنه يدعوهم الى النجاة والسعادة ، بينما هم يدعونه الى الشرك والكفر والهلاك ، ويذكرهم بمن سبقهم من الأمم وكيف كان مصيرها . [٢]

قال الله تعالى : ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه ، اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)) [٣] الى آخر الآيات .

الموقف السابع : نهاية فرعون وقومه :

اشتد اذى فرعون وقومه لموسى ومن معه ، وكان موسى يقابل ذلك بالصبر ، ويوصي اتباعه بذلك ، وبالتوكل على الله وحده ، وأمرهم بوحي من الله تعالى أن يجعلوا بيوتهم قبله ، لتكون معروفة بينهم ، وليتمكنوا من الصلاة فيها اذا اشتد عليهم الأذى .

ثم أمره ربه تعالى بأن يسير ببني اسرائيل ، فاشتد غيظ فرعون فتبعهم بقومه ، فأدركهم قرب ساحل البحر ، وكاد اتباع موسى عليه السلام أن ييأسوا حين رأو البحر أمامهم والجبال تحيط بهم وفرعون وقومه يطلبونهم ، وقالوا لموسى : ((انا لمدركون)) ولكن موسى ذكرهم بالتوكل على الله تعالى وأنه معه سبحانه ، وبوحي من الله تعالى ضرب موسى بعصاه البحر ، فانفلق وجعل الله تعالى لهم

---

(١) الآية ٢٨ من سورة غافر .
(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٣/١ ـ ٢٤٧ .
(٣) الآية ٢٨ من سورة غافر ، والآيات الى آية ٤٦ في شأن مؤمن آل فرعون .

طريقا يبسا في البحر فسلكوه حتى دخلوا ، وتبعهم فرعون ومن معه حتى دخلوا جميعا ، فانطبق عليهم بعد أن خرج موسى ومن معه ، ولما رأى فرعون ذلك أدرك تمام الادراك أنه الهلاك المبين نزل به وبمن معه ، فاعلن ما كان يجحده من قبل من توحيد الله عز وجل والاعتراف له بالربوبية والالوهية ، وأعلن توبته بعد فوات الأوان ، ولم تقبل منه ، وأخرج الله جسده ليكون عبرة وعظة ، ووردت قصة هلاكه وقومه في أكثر من موضع من القرآن الكريم . قال عز وجل : ((وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ، فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون))[1] .

وقال تعالى : ((وأوحينا الى موسى أن اسر بعبادي ليلا انكم متبعون ، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وانا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل ، فاتبعوهم مشرقين ، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين ، فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وانجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم))[2] .

وبهذه النهاية الأليمة تنتهي حياة اكبر طاغوت نشأ على الأرض ، وهي نهاية كل الطغاة اعداء الرسل ودعوتهم الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده

---

(١) الآيات من ٩٠ ـ ٩٢ من سورة يونس .
(٢) الآيات من ٥٢ ـ ٦٨ من سورة الشعراء .

لا شريك له ، ثم يوم القيامة يكون حال فرعون كما أخبر الله تعالى ((يقـــــدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود ، واتبعوا في هذه الدنيـا لعنة ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود))[١] .

فنهاية أليمة في الدنيا وخزي عظيم يوم القيامة ، نعوذ بالله من ذلك .

الموقف الثامن : بنوا اسرائيل بعد خروجهم من البحر :

بعد خروج بني اسرائيل من البحر ونجاتهم من فرعون وجنوده ، وهـــلاك فرعون ومن معه بالغرق ، وقد رأى بنوا اسرائيل من آيات الله تبارك وتعالـــى ما يكفي لترسيخ الايمان وعقيدة التوحيد في قلوبهم ، وما بذله موسى عليه السلام من أجل ذلك ، مع هذا كله ما ان تجاوزوا البحر ، ورأوا قوما لهم أصنـــام يعبدونها ، يزعمون أنها تنفع وتضرحتى طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهـم الها كما لأولئك آلهة ، ولكن موسى رد عليهم بوصفهم بالجهل ، وأي جهل اعظـم من جهل من يتخذ آلهة من دون الله يزعم فيها النفع والضر من دون الله تعالـى ، وهكذا لا ييأس الشيطان من فتنة العبد عن دينه ، فقد يجد الشيطان بعض النفوس الضعيفة ، يحقق من خلالها أهدافه وآماله التي عاهد الله تعالى على تحقيقهـا ، ولكن وجود الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يفوت على الشيطان مراده ، ويحمي الناس من خطر الشرك وأهله .[٢]

---

(١) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة هود .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٩/١ .

قال الله سبحانه : ((وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء مُتبرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال أغير الله ابغيكم الها ، وهو فضلكم على العالمين))[١] .

وشبيه بهذا الموقف ذلك الموقف من اصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهم في طريقهم الى حنين وكانوا حدثاء عهد بكفر ، فرأوا سدرة للمشركين يعلقون بها اسلحتهم يسمونها ذات انواط ، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم مثلها ، فذكرهم وشبه قولهم بقول بني اسرائيل لموسى .

كما روى واقد الليثي[٢] رضي الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها اسلحتهم يقال لها ذات انواط ، فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، انها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا اسرائيل لموسى ((اجعل لنا آلها كما لهم آلهة)) لتركبن سنن من قبلكم)[٣] . وسيأتي الكلام عن ذلك ان شاء الله عند الحديث عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الموقف التاسع : سؤال موسى رؤية ربه تعالى :

لما كلم الله تعالى رسوله موسى عليه السلام تطلعت نفسه أن يرى ربه سبحانه ، فسأل الله تعالى ذلك ، ولما كان موسى لا يطيق تحمل ذلك ، أمره ربه

---

(١) الآيات ١٣٨ ـ ١٤٠ من سورة الأعراف .

(٢) اسمه الحارث بن عوف بن أسيد بن جابر الليثي صحابي جليل شهد بدرا والفتح وحنين وغيرها من المشاهد والغزوات توفى رضي الله عنه سنة ٦٨ هـ وقيل ٨٥ هـ . انظر الاصابة لابن حجر ٢١٥/٤ .

(٣) مسند الامام احمد ٢١٨/٥ ، والترمذي في السنن ٤٧٥/٤ ، وقال حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي ٢٣٥/٢ .

تبارك وتعالى أن ينظر الى الجبل ، فسوف يتجلى الله تعالى للجبل ، فان بقي الجبل وثبت فلعل موسى عليه السلام يثبت لذلك ، وان لم يثبت مع كبره وقوته ، فموسى من باب أولى ، فما ان تجلى الله عز وجل للجبل حتى اندك على أوله ، فلما رأى موسى ذلك لم يطق تحمله فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق أعلن توبته لربه تعالى معترفا بضعفه وعجزه .[١]

قال تعالى : ((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربي أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين))[٢] .

وقد فهم بعض المتملكمين من هذه الآية نفي رؤية المؤمنين لربهم في الدنيا والآخرة ، وأن معنى قوله تعالى : ((لن تراني)) يدل على ذلك ، ومن هؤلاء الجهمية والمعتزلة[٣] .

وهذا تحريف لكلام الله عز وجل ، وتأويل له بالباطل ، والحق أن رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ثابتة بالآيات الظاهرة والأحاديث المتواترة ، قال الله عز وجل : ((وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة))[٤] .

وقال سبحانه مخبرا عن حال الكفار يوم القيامة : ((كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون))[٥] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٤٥/٢ .
(٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٣) انظر كتاب رسائل العدل والتوحيد ١٠٥/١ ، ١٠٦ ، وكتاب شرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٢٣٢ وما بعدها .
(٤) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيام .
(٥) الآية ١٥ من سورة المطففين .

وقال جل شأنه : ((للذين أحسنوا الحسنى وزيادة))[١] والحسنى هي الجنة والزيادة هي رؤيتهم ربهم عز وجل ، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه صهيب رضي الله عنه قال : (اذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر الى ربهم ، وهي الزيادة)[٢] ، ثم تلا هذه الآية : ((للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)) .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن ناسا قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : (هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : إنكم ترون ربكم كذلك)[٣] .

وعن جرير رضي الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم اذ نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القمر ليلة البدر فقال : (انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)[٤] .

فهذه الأحاديث تدل دلالة لا تقبل الشك على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وهذا من عظيم نعمة الله عز وجل على عباده المؤمنين يوم القيامة .

---

(١) الآية ٢ من سورة يونس .
(٢) صحيح مسلم بشرحه ١٧/٣ .

(٣) البخاري بشرحه ٤١٩/١٣ ، ومسلم بشرحه ٢٥/٣ .
(٤) البخاري بشرحه ٤١٩/١٣ .

أما ما استدل به من نفى الرؤية من قوله تعالى : ((لن تراني)) فغير صحيح ، فالله تعالى قال ((لن تراني)) ولم يقل : لا أُرى ، أو لا تجوز رؤيتي ثم لو كانت الرؤية غير ممكنة لما سألها موسى عليه السلام ، وهو العالم بربه سبحانه ، ولذلك لم ينكر عليه ربه سبحانه سؤاله ، ولو كان باطلا لأنكر عليه كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله في ابنه ، وانما بين لموسى عليه السلام عدم قدرته على تحمل رؤيته تعالى في الدنيا ، وعلق الرؤية بالجبل الذي لم يتحمل ذلك مع قوته ، فكيف بموسى وهو البشر الضعيف أمام ربه تعالى ، واذا كانت الرؤية تجوز للجماد فهي للانسان المؤمن أولى .

و ((لن)) لا تدل على تأبيد النفي في الدنيا والآخرة ، فان الله عز وجل قال عن الكفار ((ولن يتمنوه أبدا)) [(١)] ، ثم قال عنهم في الأخرة : ((ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون)) [(٢)] .

قال ابن مالك :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا ... فقوله أردد وسواه فاعضدا [(٣)]

الموقف العاشر : بنو اسرائيل وعبادة العجل :

لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه سبحانه ، استغل السامري غيبة موسى عليه السلام وجهل بني اسرائيل ، وإلْفَهم الوثنية أيام فرعون ، فصنع لهم من حلي القبط الذي استعاروه منهم هيكلا على صورة العجل [(٤)] ، اذا مرت الريح من

---

(١) الآية ٩٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٩ - ١٩٤ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/٢٤٠ وما بعدها . (٤) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/٢٤٧ .

داخله احدثت فيه صوتا يشبه خوار العجل ، وقال لهم ان هذا هو اله موسى نسيه هنا وذهب يبحث عنه في الطور ، وبين لهم هارون أنه ذلك كذب مفترى من السامري ليضلهم عن طريق التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام ، ولكنهم اصروا على قبول ما جاء به السامري واستمرارهم على ذلك حتي يرجع موسى ، وأخبر الله رسوله موسى بما فعل قومه من بعده ،فرجع اليهم غاضبا آسفا لما وقعوا فيه من الشرك بالله تعالى ، الذي كان ينهاهم عنه ويحذرهم منه ، وعوقب السامري بأن لا يمسه أحد ولا يمس أحدا في الدنيا .

قال الله عز وجل : ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولم رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين ، قال رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم))(١) .

وقال جل شأنه : ((وما أعجلك عن قومك يا موسى ، قال هم أولاء على اثري وعجلت اليك ربي لترضى ، قال فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري ، فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا

---

(١) الآيات من ١٤٨ ـ ١٥٣ من سورة الأعراف .

حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي ، قالوا ما أخلفنا موعدكم بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلكالقى السامري فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي ، أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ، ولا يملك ضرا ولا نفعا ، ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به ، وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ، قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن أفعصيت أمري ، قال يابن أم لا تأخذ ببلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ، قال فما خطبك يا سامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لي نفسي ، قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا))(١) .

وعجب أمر بني اسرائيل الذين ما كادوا يفلتون من قبضة فرعون وبطشه واستعباده لهم انقذهمالله من الشرك والكفر الى التوحيد والايمان علي يد رسوله عليه السلام ، فاذا هم يريدون استبدال التوحيد بالشرك ويطلبون موسى عليه السلام الها حين رأوا قوما يعبدون الأصنام ، ويغيب عنهم موسى بعض الوقت فيتخذون العجل الها ، ولما ذهب بهم الى ميقات ربه ليعتذروا عما حصل منهم ، قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ،وذلكلفُهم الوثنية ، وما تأصل في نفوسهم من المكر والخداع ، وهو باق فيهم ، فهم الذين حرفوا الكتب ، وقتلوا الأنبياء والرسل . وهم اهل المكر والخديعة قديما وحديثا .

---

(١) الآيات ٨٣ ـ ٩٧ من سورة طه .

المبحث السادس

دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام

وهو عيسى بن مريم ابنت عمران ، عبدالله ونبيه ورسوله ، أحد اولى العزم من الرسل ، آخر الرسل قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وآخر الرسل من بني اسرائيل ، وأمه مريم ابنت عمران ، عليها وعلى ابيها السلام ، كان ابوها عالما كبيرا ، وصاحب صلاة بني اسرائيل ، وقد كانت مريم من العابدات [(١)] ، وقصتها وقصة عيسى عليه السلام وولادته ودعوته قد قصها القرآن الكريم في أكثر من موضع . [(٢)]

وقد بعثه الله عز وجل الى بني اسرائيل بعد أن انحرفوا عن منهج الله تعالى الذي جاء به موسى عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وذكر بما جاء به موسى عليه السلام من قبله من الهدى والبينات .

وقد اخترت من دعوته عليه السلام عددا من المواقف :

١) بدء دعوته عليه السلام :

ظهرت علامات نبوته ومظاهر فضله عليه السلام منذ ولادته، وجرت على يديه منذ صغره معجزات وانتشر خبره في الناس ، واختاره الله تعالى لرسالته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، [(٣)] فبلغ الرسالة وأدى الأمانة التي اصطفاه الله لحملها، وجاء الى بني اسرائيل وقد غيروا الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام ، وحرفوا التوراة ، فمنهم المكذبون ، المنكرون للبعث والحساب ، ومنهم المنغمسون في لهوهم وملذاتهم المعرضون عن طاعة الله تعالى ، فكانوا في أمس الحاجة الى

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٢/٢ .

(٢) منها : سورة آل عمران ، وسورة المائدة ، وسورة مريم ، والزخرف ، والحديد ، والصف .

(٣) انظر : نفس المصدر ٧٢/٢ .

رسول من الله تعالى يعيدهم الى جادة الصواب وينقذهم من الضلال والشرك ، ويردهم الى ما تركهم عليه موسى عليه السلام .

وقد بين عيسى عليه السلام لبني اسرائيل دعوته الى جاء بها من أول الأمر كما اخبر الله عنه : ((ومصدقا لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله واطيعون ، ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم))(١) .

بين لهم عليه السلام الذي جاء به ، واهم ذلك توحيد الله عز وجل وافراده بالعبادة فهو الصراط المستقيم الذي يسير عليه الأنبياء والرسل جميعا ويدعون الناس اليه . كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أنا أولى الناس بابن مريم ، والانبياء أولاد علات (٢) ، ليس بيني وبينه نبي)(٣)

وقال عز وجل : ((وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون))(٤) .

واستمر عيسى عليه السلام في دعوته لبني اسرائيل ، يبين لهم الحق ويدعوهم اليه ، ويحذرهم العواقب الوخيمة لما هم عليه من الباطل والضلال ان لم يرجعوا عنه ، وكانت معارضتهم له على اشدها ، وعداؤهم له ولاتباعه كذلك ، والله عز وجل يؤيده بأنواع التأييد من حفظه له ولاتباعه ، واظهار المعجزات التي بهرتهم ووقفوا حائرين عاجزين امامها ، ورأوا أنها لا تصدر من مخلوق من عند نفسه .

---

(١) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة آل عمران .

(٢) أولاد العلات : الاخوة من الآباء أمهاتهم شتى . انظر فتح الباري للحافظ ٤٨٩/٦

(٣) البخاري بشرحه ٤٧٨/٦ .

(٤) الآية ٤٧ من سورة المائدة .

قال الله تعالى : ((ويعلمه الحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وابرئ الأكمة والأبرص ، وأحيي الموتى باذن الله ، وانبئكم بما تأكلون وما تدخلون في بيوتكم ، ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين))(١) .

وقال جل شأنه : ((اذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلا ، وذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص باذني ، واذ تخرج الموتى باذني ، وإذ كففت بني اسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين))(٢) .

ومن المعجزات التي أتاها الله تعالى رسوله عيسى عليه السلام ، ما طلبه اتباعه الحواريون من انزال المائدة وقد نصحهم عيسى بأن يعدلوا عن سؤالهم ، ولكنهم اصروا على ذلك ، فسأل الله تعالى ذلك فاستجاب الله تعالى له(٣) قال الله عز وجل : ((اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا

---

(١) الآيات ٤٨ ـ ٤٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١٠ من سورة المائدة .
(٣) قيل ان المائدة نزلت فعلا .
وقيل أنها لم تنزل فقد عدل الحواريون عن طلبهم ، حين عرض عليهم العذاب ان كفروا .
وقيل هي مثل ضربه الله .
وكل هذه الأقوال مروية عن السلف . انظر تفسير ابن كثير ١١٦/٢ ـ ١١٨ .

مائدة من السماء ، قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قال نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين))[١] .

ومع هذه المعجزات العظيمات والآيات البينات فقد أمر قومه على ما هم فيه من الشرك والضلال ، فاعلن قوله عليه السلام : من أنصاري الى الله فاستجاب له الحواريون وهم أنصاره ، كما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لكل نبي حواري ، وحواري الزبير)[٢] .

قال الله عز وجل : ((فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين))[٣] .

وقال سبحانه : ((يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين))[٤] .

وكما فعل عيسى عليه السلام فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين

---

(١) الآيات من ١١٢ ـ ١١٥ من سورة المائدة .
(٢) صحيح البخاري بشرحه ٨٠/٧ ، وصحيح مسلم بشرحه ١٨٨/١٥ .
(٣) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ١٤ من سورة الصف .

أمر كفار مكة على ما هم عليه ، فقد كان يعرض نفسه على القبائل في مواســـم الحج ، ويطلب منهم من يقبل دعوته ويؤيــده حتى يبلغ رسالة ربه حيث أبـــت قريش ذلك ، فأيده الله تعالى بالأنصار رضي الله عنهم جميعا .[١]

٢) عقيدة أهل الكتاب في عيسى عليه السلام :

بين الله عز وجل أن عيسى بن مريم عليه السلام عبد من عباده اصطفـــاه لرسالته ، وأنه كلمته القاها الى مريم وروح منه ، وقص ذلك وبينه لنبينا محمـــد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم فقال سبحانه : ((ذلك عيسى بن مريـــم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمـرا فانما يقول له كن فيكون))[٢] .

ومما أمر الله تعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام أن يقول لقومـه : ((وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم))[٣] وهي دعوة الأنبياء والرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام ، ولكنهم كانوا كما قال الله عز وجل : ((فاختلـــف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم))[٤]

ولقد ضل في عيسى بن مريم عليه السلام طائفتان :

الأولى : اليهود عليهم لعنة الله تعالى الذين قالوا عنه : انه ابن زنية ، أخزاهم الله تعالى ، فهو رسول الله تعالى الطاهر ابن الطاهرة مريم عليها السلام التي قال الله تعالى عنها : ((اذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٦٢/٤ .
(٢) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة مريم .
(٣) الآية ٣٦ من سورة مريم .
(٤) الآية ٣٧ من سورة مريم .

واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي ، واركعي مع الراكعين))[١] .

وقال عنهم : ((وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما))[٢] .

والطائفة الثانية التي قابلت اليهود في الكفر هم النصارى لعنهم الله تعالى ، قالوا عنه : انه الله تعالى ، ومنهم من قال : ابن الله ، ومنهم من قال : ثالث ثلاثة : الأب والابن والروح القدس ، وقد توعد الله تعالى الطائفتين بقوله سبحانه : ((فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم))[٣] .

وهدى الله عز وجل أهل الحق والايمان الى القول الحق في ذلك فقالوا : هو عبدالله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه .

وقد أكذب الله تعالى النصارى وأخبر عن كفرهم بما قالوه في عيسى عليه السلام[٤] ، قال عز وجل : ((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد ان يهلك المسيح بن مريم ، وأمه ومن في الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض ، وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير))[٥] .

كما قال سبحانه : ((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم

---

(١) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٣٧ من سورة مريم .
(٣) الآية ١٥٦ من سورة النساء .
(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٩/٦ ـ ٢٥٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٦٧/٢ ، ٦٨ ، ودعوة الرسل للعدوي ص ٣٤٤ .
(٥) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة المائدة .

وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من إله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم))[١] .

ثم بين سبحانه القول الحق في ذلك فقال عز وجل : ((يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلا))[٢] .

((ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمة صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم ، يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل))[٣] .

وقال جل شأنه : ((وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون))[٤] .

---

(١) الآيات من ٧٢ ـ ٧٤ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٣) الآيات من ٧٥ ـ ٧٧ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة .

وقد بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم لأمته المنهج الحق والصراط المستقيم الذي ضلت عنه اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[١] .

ونهى صلى الله عليه وسلم عن مشابهة النصارى وحذر من الوقوع مما وقعوا من الغلو في عيسى عليه السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)[٢] ، وسيأتي الكلام عن ذلك عند الحديث عن الاطراء والغلو ان شاء الله تعالى .

رفع عيسى عليه السلام الى السماء ، وبطلان عقيدة الصلب :

بقي عيسى عليه السلام دائبا في دعوته ، مجاهدا في سبيلها ، يلاقي من بني اسرائيل الاعراض والصدود والأذى ، مع ما أتاه الله من الحج والآيات والمعجزات .

وبدأ الناس يقبلون على دعوته ، واتباعه وانصاره المؤمنون بدعوته يزيدون يوما بعد يوم ، وتحرك في نفوس اليهود مكرهم المعهود ، وأخذوا يتآمرون على عيسى عليه السلام لاستئصال دعوته والقضاء عليها ، وعزموا على قتله ، كما هو طبعهم وشأنهم مع انبياء الله تعالى ورسله عليه الصلاة والسلام ((فريقا كذبتم

---

(١) البخاري بشرحه ٦/٤١٤ .
(٢) البخاري بشرحه ١/٤٧٨ .

وفريقا تقتلون))[١] ، ودخلوا عليهم وهو عليه السلام جالس مع بعض اصحابه ليقتلوه ، فألقى الله تعالى شبهه على بعض اصحابه ورفعه اليه وأخذ اليهود ذلك الشاب وقتلوه وصلبوه ظانين أنه عيسى ، وضلوا في ذلك ضلالا بعيدا .[٢]

قال الله عز وجال : ((إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون))[٣] .

وللمفسرين في معنى قوله تعالى : ((متوفيك)) اقوال ، أرجحها ، أن المراد بالوفاة هنا النوم ، كما قال تعالى : ((وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار))[٤] ، وكما قال سبحانه : ((الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والذي لم تمت في منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويمسك الأخرى الى أجل مسمى ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون))[٥] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من النوم يقول : (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور)[٦] .

وهذا يرجح القول بأن المراد بالتوفي النوم على قول من قال ان الله أماته ساعات ، ثم أحياه ، أو قول من قال ان الله تعالى أماته ثلاثة أيام ثم احياه ، وغير ذلك من الأقوال .[٧]

---

(١) الآية ٨٧ من سورة البقرة .
(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٨٥/٢ .
(٣) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٦٠ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٤٢ من سورة النور .
(٦) البخاري بشرحه ١٦/٧ ، ومسلم بشرحه ٣٥/١٧ .
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٣٦٦/١ ، واضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٢٤٥/١ .

وقد أكذب الله تعالى اليهود في زعمهم قتل عيسى عليه السلام فقال سبحانه : ((وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما))[١] .

فقد فضح الله تعالى كيد اليهود ومكرهم وكَذِبَهم أنهم قتلوا عيسى ، أما النصارى فمع كونهم لم يشاهدوا ذلك ، فان عامتهم قد سلموا بذلك ، وضلوا فيه ضلالا مبينا ، وصار الصليب شعار عبادتهم ورمز تعارفهم وتفاخرهم .

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان :

سبق الكلام عن رفع عيسى عليه السلام الى السماء ، وسينزل عليه السلام في آخر الزمان ، ويقيم العدل في الأرض ، ويحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقتل الدجال ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفرض الجزية ، كما ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها :

ما رواه ابو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدا)[٢] ، ثم يقول ابو هريرة : واقرؤا ان شئتم : ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا))[٣] .

---

(١) الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .
(٢) البخاري بشرحه ٦/٤٩٠ ، ومسلم بشرحه
(٣) الآية ١٥٩ من سورة النساء .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال : (إن الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافيه[١] ، وأراني الله عند الكعبة في المنام رجلا آدم[٢] كأحسن ما يرى من أُدْمِ الرجال ، يضرب لمته[٣] بين منكبيه ، رَجْل الشعر ، يقطر رأسه ماء ، واضعا يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هو المسيح بن مريم ، ورأيت رجلا وراءه قططا[٤] أعور العين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابن قطن[٥] ، واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : المسيح الدجال)[٦]

وفي رواية للبخاري : (بينما أنا نائم أطوف بالكعبة ، واذا رجل آدم سبط الشعر ، يُهَوِّد[٧] بين رجلين ، ينطف رأسه ماءاً ، أو يهرق ماءاً ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا المسيح بن مريم ، فذهبت التفت فاذا رجل أحمر جسيم جعد الرأس ، أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية ، قلت : من هذا ؟ قالوا : الدجال ، وأقرب الناس به شبها ابن قطن)[٨] .

---

(١) الحبة التي قد خرجت عن حد نبتة اخواتها فظهرت من بينها وارتفعت وقيل أراد الحبة الطافية على وجه الماء شبه عينه بها .
النهاية لابن الأثير ١٣٠/٣ .

(٢) الأُدمة البياض مع سواد المقلتين . المصدر السابق ٣٢/١ .

(٣) اللمه : من شعر الرأس دون الجمه سميت بذلك لأنها المت بالمنكبين ، فاذا زادت فهي الجمة . انظر المصدر السابق ٢٧٣/٤ .

(٤) القطط : الشعر القصير المستجد

(٥) ابن قطن بن عبد العزي رجل من بني المصطلق من خزاعة هلك في الجاهلية على الصحيح . انظر فتح الباري ٩٨/١٣ - ١٠٠ .

(٦) مسلم بشرحه ٢٣٥/٢ ، ٢٣٦ .

(٧) المشي الرويد المتأني . النهاية لابن الأثير ٢٧٣/٤ .

(٨) البخاري بشرحه ٩٠/١٣

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه في حديث طويل عن الدجال وما يكون من أمره ، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق في مهروذين[(١)] ، واضعا كفيه على اجنحة ملكين ، اذ طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدر منه جمان[(٢)] كاللؤلؤ ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ، ونفسه حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد[(٣)] فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوما قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم عن درجاتهم في الجنة)[(٤)] . ألحديث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنتم اذا نزل فيكم عيسى بن مريم وامامكم منكم)[(٥)] .

وهذه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل صراحة على أن رسول الله عيسى عليه السلام سوف ينزل في آخر الزمان ، ويقع منه ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترد على الذين انكروا ذلك ، وقدموا عقولهم وتأويلاتهم الباطلة على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .

---

(١) تروى بالدال المهملة والذال المعجمة والمهملة اكثر : وهما ثوبان مصبوغان بورس ثم بزعفران ، وقيل هما شقتان والشقة نصف الملاءة.
انظر شرح النووي على صحيح مسلم ٦٧/١٨ .

(٢) الجمان بضم الجيم وتخفيف الميم حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار ، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه .
انظر المصدر السابق .

(٣) بلدة قريبة من القدس .

(٤) مسلم بشرحه ٦٧/١٨ ، ٦٨ .

(٥) البخاري بشرحه ٤٩١/٦ .

الفصل الثاني

دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول: حال الناس قبل بعثته صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: بعثته عليه الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: دعوته عليه الصلاة والسلام.

أ- المرحلة المكية.

ب- المرحلة المدنية.

المبحث الرابع: التوحيد أول واجب على العبد.

الفصل الثانـــي

دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

حالة العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

العـــرب :

هم ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، اسكن ابراهيم ابنه اسماعيـل وأمه بمكة وتوجه الى ربه قائلا : ((ربنا انني اسكنت من ذريتي بوادي غيـــــر ذي ذرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهــــوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون))[1] .

وكان نزوله باسماعيل وأمه الى مكة وتركهما فيها بأمر من ربه ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أول ما اتخذ النساء المنطـــق[2] من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقا لتعفــى اثرها على ساره ، ثم جاء بها ابراهيـــم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند درجة فوق زمزم فـــي أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها مار ، فوضعهما هنالك ، ووضـع عندهما جرابا فيه تمر وسقاءاً فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا ، فتبعتـــــه أم

---

(١) الآية ٣٧ من سورة ابراهيم .

(٢) المنطق : بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء . وجمعه نُطق : بضم النون والطاء وهو ما يشد به الوسط .
انظر فتح الباري ٦/٤٠٠ ، والقاموس المحيط ٣/٢٩٥ .

اسماعيل فقالت : يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به انس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا انني اسكنت من ذريتي .. الى قوله : يشكرون)[1] الحديث.

وكانت ولاية البيت في بني اسماعيل من بعده حتى انتزعتها قبيلة جرهم ، ثم انتزعتها منهم خزاعة ، ثم عادت الى قصي وبنيه حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبقي بنوا اسماعيل من بعده على دين ابيهم اسماعيل وابراهيم عليهما السلام زمنا ، ثم بدأ الشرك يدب فيهم حينما خرج بعضهم من مكة وقد ضاقت بهم ، فكان من اراد أن يسافر أخذ معه حجرا من الحرم تعظيما له ، فأينما نزل وضعه وطاف به ثم خلف من بعدهم خلوف تمادى بهم الغلو فعبدوا هذه الحجارة وغيرها ، حتى جاء عمرو الخزاعي[2] فكان أول من جاء بالاصنام الى مكة سواءاً منها ما جاء به من البلقاء أو التي كانت من عهد قوم نوح ، فكان ـ أخزاه الله ـ

---

(١) البخاري بشرحه ، ٦/٣٩٦ ، ٣٩٨ .

(٢) هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان أول من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عبادة الأوثان ، كنيته أبو ثمامة ، وفي نسبه خلاف شديد .

أول من نصب الأوثان وغير دين اسماعيل وأول من سيب السوائب [(١)] . كما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه فقال : **(رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب) .**

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب) [(٢)] .**

فانتشرت عبادة الأصنام والأوثان في جزيرة العرب وعادت تلك الأصنام التي كانت في عهد قوم نوح مرة أخرى وظهرت في جزيرة العرب وعبدت من دون الله تعالى كما سبق أن ذكرنا ما أخرجه الامام البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : **(صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت تصلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم بني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، اسماء رجال صالحين من قوم ... الحديث) [(٣)] .**

ولم تقتصر عبادة الأصنام في الجزيرة على هذه المذكورة في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، بل ظهرت اصنام كثيرة وصارة عبادتها مسيطرة عليهم لا يرون

---

(١) السوائب : جمع سائبة ، وهي التي كانوا يجعلونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء ، ولا تمنع من ماء ولا مرعى ولا تحلب ولا تركب .
والسائبة : هي أم البحيرة .
انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤٣١/٢ .

(٢) البخاري بشرحه ٥٤٧/٦ .

(٣) تقدم تخريجه ص ٢٩ .

الاستغناء عنها في حضر أو سفر ، مع اعترافهم بوجود الله تعالى ولكنهم كانوا يقولون كما قال اللهعنهم : ((ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى))[١] ، وكانوا كما سلف ذكره يحملون حجارة الحرم اذا سافروا خارجة ، وأكثر من ذلك ما ورد في صحيح الامام البخاري رحمه الله عن رجاء العطاردي قال : (كنا في الجاهلية اذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها)[٢] .

ودخلت عبادتها في كل دار ، فجعلت لها صنما تعبده مع عبادة اصنامهم الكبيرة المشهورة ، قال ابن اسحاق : " واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فاذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أو ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله "[٣] .

وكانوا اذا أهلكوا بالتلبية قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، فاشركوا مع الله غيره ، فدعوا أصنامهم معه سبحانه ، وجعلو ملكها بيده .

قال السهيلي : " وكانت التلبية من عهد ابراهيم : لبيك لا شريك لك لبيك حتى كان عمرو بن لحي ، فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه ، فقال عمرو : لبيك لا شريك لك ، فقال الشيخ : الا شريكا هو لك ، فأنكر

---

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٢) البخاري مع الشرح ٨/٩٠ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٨٥ .

ذلك عمرو ، وقال : وما هذا ؟ فقال الشيخ قل : تملكه وما ملك ، فانه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو ، فدانت بها العرب "[١] .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكره هذه التلبية وينكرها قبل أن يبعث ، فقد أخرج الامام مسلم رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان المشركون يقولون : لبيك لا شريك لك ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلكم قدٍ قدٍ[٢] ، فيقولون : الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت)[٣] .

قال ابن اسحاق : " واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم مع ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن ، والاهلال بالحج والعمرة ، مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كنانة وقريش اذا أهلكوا قالوا : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك " ، فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ((وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون))[٤] أي ما يوحدونني لمعرفة حقي الا جعلوا معي شريكا من خلقي .[٥]

---

(١) ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي ، الروض الآنف ١٠٢/١ .
(٢) قدٍ قدٍ : روى باسكان الدال وكسرها مع التنوين ومعناه كفاكم .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٩٠/٨ .
(٤) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .
(٥) ابو محمد عبدالملك بن هشام . السيرة النبوية ٨٠/١ .

وقد بلغت عبادة الاصنام في جزيرة العرب مبلغا لم تبلغه من قبل ، فأصنام خاصة وأصنام عامة وأحجار وأشجا روبيوت بل ادخلوها داخل الكعبة وعلقوها عليها وحولها ، ومنها هبل الذي كان على صورة انسان من ذهب داخل الكعبة امامه القداح وأساف ونائلة وغيرها كثير .

قال ابن الكلبي في كتاب الأصنام : " واستهترت[١] العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت نصب حجرا امام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافة بالبيت ، وسموها الانصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والأوثان ، وسموا طوافهم الدوار ، فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل ثلاثا اثافي لقدره ، واذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون اليها وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون اليها "[٢]

وأكثر ما كان عليه المشركون قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي مبعثه دعوى الشريك لله تعالى والولد ، ولذلك جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنزه الله تعالى عن هذه الشركين ، كقوله تعالى : ((وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بعد علم سبحانه وتعالى عما يصفون))[٣] .

وكقوله سبحانه : ((قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك))[٤] . وسورة الاخلاص وآيات كثيرة اخرى في كتاب الله تعالى .[٥]

ولم يقتصر الشرك في جزيرة العرب على الأصنام المشار اليها ، وان كانت هي الكثرة الغالبة عليهم ، بل وجدت بينهم ديانات وعبادات اخرى من اشهرها : الصائبة ، وهم عبدة الكواكب والنجوم ، ولكل جماعة أو قبيلة منهم كوكب يعبدونه ويتقربون اليه ويعتقدون انها تنفعهم وتضرهم .

---

(١) الاستهتار بالشيء الولوع والشغف به ، فلان مستهتر بالشراب مولع به ، ولا يبالي ما قيل ، وكذلك يقال استهتر فلان فهو مستهتر اذا كان كثير الأباطيل . انظر لسان العرب لابن منظور ٥/٢٥٠ . وكل ما تقدم فمعناه يصدق على عباد الأصنام .

(٢) ابو المنذر هشام بن الكلبي . الاصنام ص ٣٣ .

(٣) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام . (٤) الآية ١١١ من سورة الاسراء .

(٥) انظر كتاب النبوات لابن تيمية ص ٢٨ وما بعدها

ومنها ما دب اليها من بلاد الفرس من عبادة المجوس واعتقاد في النـــار وعبادة لها وأكثر ما كانت في قبيلة تميم ، ومعها كذلك تسربت الزندقة التـــي اعتنقها الدهريون الملحدون الذين لا يقرون بإله [١] وهم كما قال الله تعالى عنهم ((وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، ومالهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون)) [٢] .

ومنها المسيحية وقد دخلت على الجزيرة من بعض البلاد المجاورة مـــن بلاد الشام والعراق ومن الحبشة الى اليمن ، ثم انتشرت في بعض نواحي الجزيـــرة ومنها طيء ودومة الجندل ونجران وغيرها ، وقد بقيت في نجران حتى بعد بعثـــة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وفدوا عليه وفرض عليهم الجزية حيث لـــم يسلموا .

أخرج الامام البخاري رحمه الله في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال : **(جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريـــدان ان يلاعناه [٣] قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لان كان نبيا فلاعننـــا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : انا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنـــا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا الا أمينا ، فقال : لابعثن معكم رجلا أمينا حق أمين،**

---

(١) الدهريون : جماعة من معطلة العرب انكروا الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني . انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢٣٥/٢ . وكتـــاب تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٦٣ ، وكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ٤٢٧/١ ، وكتاب الجاهلية قديما وحديثا ، أحمـــد أمين عبدالغفار ص ٥٠ .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الجاثية .

(٣) يلاعناه : أي يباهلاه وهو المراد بقوله تعالى : ((فمن حاجك فيه مـــن بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)) . آية ٦١ مـــن آل عمران .

فاستشرف له اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قم يا أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أمين هذه الأمة)[١] .

ومنها : اليهودية التي وجدت في شمال الجزيرة في يثرب وخيبر ووادي القرى وفي جنوب الجزيرة في اليمن ، ولكن على الرغم من وجود اليهود وتعايشهم مع العرب واشتغالهم بأنواع كثيرة من الحرف ، فان اليهودية لم تنتشر في العرب، ولعل من اسباب ذلك عدم اهتمامهم بنشر عقيدتهم ، واعتقادهم أنهم شعب الله المختار كما يزعمون ، واحتقارهم للعرب ، وانشغالهم بجمع الأموال واحتكار الأعمال .

وقد هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة وبها ثلاث قبائل منهم وهم بنو قينقاع ، وبنو قريظة وبنو النظيروقد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلمعليه وسلم أول ما قدم المدينة ، ولكنهم نكثوا وغدروا كما هي سجيتهم ، فكانت نهايتهم القتل أو الجلاء ، حتى كان آخر جلائهم في خلافة عمر رضي الله عنه .

ومع هذا الخليط من العقائد والديانات والوثنيات التي انتشرت في جزيرة العرب ، مع هذا كله كانت جماعة من الناس قد نبذت هذا كله ، ولم يكن له قبول عندها فترفعوا عما كان عليه المشركون والكفار من الكفر والضلال ، وتمسكوا ببقايا من دين ابراهيم عليه السلام [٢] ، وقد اجتمع عدد منهم وتشاوروا فيما عليه

---

(١) البخاري مع الشرح ٩٢/٧ ، ومسند الامام احمد ١٨/١ .

(٢) انظر : كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٦٣ ، ٦٤ .

قومهم من الباطل وما الذي يجب عليهم للحفاظ على أنفسهم ، فتفرق بعضهم في البلاد التماسا للحق ، وهي الحنفية ملة ابراهيم ، ولهذا فقد سمي هؤلاء بالحنفاء ، والمتحنفين ، وكان منهم من تنصر وكان عنده قسط كبير من علم أهل الكتاب ، مثل ورقة بن نوفل ، ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي طمأنها بما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يتمنى أن يبقى الى مبعثه ليناصره ويؤازره ، وكان يستبطىء مبعثه ويقول : حتى متى ؟

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي بقي على ما هو عليه مما بقى من الحنفية ملة ابراهيم ، وخرج الى بلاد الشام والعراق يبحث فيها عن دين ابراهيم ثم عاد الى مكة وكان يلوم قومه على ما يفعلونه من عبادة للاصنام والأوثان ومما قال في ذلك :

(أربا واحدا أم ألف رب	أدين اذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى دين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلاً ادين وكان ربا	لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات	وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد افنى رجالاً	كثيراً كان شأنهم الفجور
وابقى آخرين ببر قوم	فيربل منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يفتر ثاب يوماً	كما يتروح الغصن المطير
ولكن اعبد الرحمن ربي	ليغفر ذنبي الربُّ الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها	متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الابرار دارهم جنان	وللكفار حامية سعير

وخزي في الحياة وان يموتـــوا   بلا قوا ما تضيق به الصــــدور[(١)]

وأخرج الامام البخاري رحمه الله في صحيحه عن عبدالملك بن عمر رضـــي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمر بن نفيل بأسفـــل بلدح[(٢)] قبل أن ينزل عليه الوحي ، فقدمت الى النبي صلى الله عليه وسلم سفـرة[(٣)] فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد اني لست آكل مما تذبحون على انصابكـــم[(٤)] ، ولا آكل الا مما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الله خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وانبت لها من الأرض ، ثــم تذبحونها على غير اسم الله ، انكارا لذلك واعظاما له)[(٥)] .

ومن هؤلاء قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك الأيادي ، الذي كـــان يخبر عن قرب بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه الرسول صلى الله عليـــه وسلم قبل البعثة وهو يخطب في سوق عكاظ[(٦)] يعظ الناس ويذكرهم ، ويبشرهـــم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد حكماء العرب وخطبائهم ، أول مـــن خطب متوكئا على سيف أو عصا ، وأول من قال أما بعد[(٧)] .

---

(١) ابو محمد عبدالملك بن هشام ـ السيرة النبوية ٢٤١/١ ، ٢٤٢ .
(٢) بلدح : بفتح الباء ، وسكون اللام والحاء : اسم موضع قرب مكة .
(٣) السفرة : طعام يتخذه المسافر ، وأكثر ما يحمل في جلد مستديـــر ، فاستعمل اسم الطعام الى الجلد وسمي به كما سميت المزاده راويه وغيـــر ذلك من الاسماء المنقولة . النهاية ٣٧٣/٢ .
(٤) الانصاب : جمع نصب بضم الصاد وسكونها : حجر كانوا ينصوبنه فـــي الجاهلية ويتخذونه صنما فيعبدونه .
وقيل : هو حجر كانوا ينصبونه ويذبحون عليه فيحمر بالدم .
النهاية ٦٠/٥ .
(٥) البخاري مع الشرح ١٤٢/٧ ، ومسند الامام احمد ٦٩/٣ .
(٦) عكاظ : موضع بقرب مكة كانت تقام بالجاهلية سوق ، ويقيمون فيه ايام . النهاية في غريب الحديث ٢٨٤/٣ .
(٧) انظر الاعلام لخير الدين الزركلي ٣٩/٦ .

المبحث الثاني

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

كانت الحال وقت بعثته صلى الله عليه وسلم امتدادا لتلك الحال التي كانت تعيشها جزيرة العرب ومن حولها ، والتي اشرت اليها في المبحث السابق ، بل زادت على ذلك حيث استحكم الشر وتغلغل الشرك والضلال وسرى الفساد ، فوثنية جائرة ظالمة تتخذ الاحجار والاشجار آلهة مع الله ، تدعوها وتحتكم اليها وتتقرب لها ، ودهرية زنادقة لا يعرفون غير شهواتهم واهوائهم ، لا يؤمنون بشيء غير ما يرونه في هذه الحياة الدنيا ، ومسيحية ضالة تقول على الله ما لم يقله أحد ، وتتخذ رهبانها اربابا من دون الله تعالى ، ويهودية ماكرة ، مخادعة لا تعرف غير الغدر والخيانة ، والاستغراق في جمع المادة من أي طريق وبأي وسيلة تتعالى على الناس وتحتقرهم ، وعباد كواكب يعتقدون فيها التأثير في الكون ، وجلب النفع ودفع الضر .

وغير هذا من الشرك والكفر التي بلغ غايته ومنتهاه والناس مشتتون ممزقون بين هذه الأهواء والضلالات ، كل حزب بما لديهم فرحون .

والى جانب هذا الضلال المبين ذلك الانحراف والفساد الخلقي والاجتماعي من القتل والنهب والسلب وارتكاب الفواحش والمنكرات وشرب الخمور ووأد البنات وغير ذلك من الفساد الذي استحقوا به مقت[١] الله وغضبه . قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " اعلم ان الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه

---

(١) المقت : اشد البغض .

عليه وسلم الى الخلق على فترة من الرسل ، وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم ، الا بقايا من أهل الكتاب ماتوا أو أكثرهم قبيل مبعثه ، والناس اذ ذاك أحد رجلين : اما كتابي معتصم بكتاب اما مبدل واما منسوخ ، ودين دارس ، بعضه مجهول ، وبعضه متروك ، واما أمي عربي وعجمي ، مقبل على عبادة ما استحسنه ، وظن أنه ينفعه : من نجم أو وثن أو قبر أو تمثال أو غير ذلك ، والناس في جاهلية جهلاء ، من مقالات يظنونها علما وهي جهل ، واعمال يحسبونها صلاحا وهي فساد ، وغاية البارع منهم علما وعملا ، أن يحصل قليلا من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين قد اشتبه عليهم حقه بباطله .(١)

واخرج الامام مسلم رحمه الله في صحيحه بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته وذكرها وفيها : (وان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب، وقال انما بعثتك لأبتليك وابتلي بك وانزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا)(٢) ثم ذكر بقية الخطبة .

ولقد كانت تلك الفترة التي سبقت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فترة اختلطت فيها العقائد والأهواء والتبس الدين الحق على الناس ، فتاهوا في الضلال وغرقوا في بحور الجهل ، وبلغت مشاكل الناس حدا عجزت أمامه كل الثقافات والعادات والاعراف عن حلها ، واصبحوا في أمس الحاجة الى من ينقذهم من هذا الهلاك الذي يحيط بهم ويأخذ بأيديهم الى سبيل النجاة بعدما أخذ منهم

---

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ٦٣/١ ت د. ناصر عبدالكريم العقل .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٧/١٧ ، ١٩٨ .

الباطل كل مأخذ ،فأينما يممت وجدت الضلال والجهل ضاربا اطنابه ، والناس سكارى يتخبطون في ذلك الظلام الحالك ، الذي خيم عليهم ، فهم أحوج ما يكونون الى نور يهتدون به الى السبيل القديم الذي يخرجهم من الظلمات الى النور .

وهذه سنة الله في خلقه اذ يسبق الفرج استحكام الضيق والكرب ، ويسبق النور حلكة الظلام ، ويسبق النصر شدة تبلغ بالقلوب الحناجر ، وكلما اشتد الأول كان للثاني قوته ووقعه وقيمته ، وبينما الناس يتجرعون هذا كله ، اذ الفرج والنور والنصر يطل عليهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ محمد خليل هراس : " وبينما البشر على حالتهم هذه قد غرقوا في بحر لجي من الظلمات المتراكمة اذا بالنور المحمدي يشرق من مكة فيملأ الكون هدى وضياءً ، سطع نور خاتم الرسل والانبياء صلى الله عليه وسلم لينقذ البشر من هذا الجحيم الذي اججوه لأنفسهم ثم الفوا العذاب فيه ، ويقيهم من التردي في مجاهل الانحطاط البشري البهيمي ، ويرشدهم .الى السبيل السوي للحياة ويهديهم سبل السلام باذن الله تعالى ويوضح لهم اسباب السعادة كاملة دنيا واخرى "(١) .

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاش عمره ما قبل الاربعين في قومه مشهورا بينهم بالصدق والأمانة ، لم يصبه شيء من دنس الجاهلية التي كان يغرق فيها قومه ، وأولها الاشراك بالله تعالى ، ثم تزوج بتلك المرأة المشهورة بمكانتها وعفافها ـ خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ، فكانت له نعم المعاون والنصير .(٢)

---

(١) محمد خليل هراس ـ دعوة التوحيد ص ٢٦٢ .

(٢) في هذا المبحث انظر المراجع الآتية : السيرة لابن هشام ٢٤٩/١ ـ ٢٥٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٨٤/١ ، ٣/٢ ، ٤ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ٢٧٥/١ ، ونور اليقين ، محمد الخضري ص ٢٥ ـ ٢٧ .

وقبيل الأربعين من عمره زاد انتشار خبر بعثته وصارت حديث علماء اهل الكتاب ، فيما يجدونه في كتبهم ، وكثير من العرب الذين يسمعون ذلكمنهم ، كما قال تعالى : ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل))[١] ، ((واذ قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعد اسمه أحمد))[٢] ((محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوهم من اثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل))[٣] الآية .

كما أخذ الله الميثاق على النبيين من قبله ان بعث محمد وهم أحياء ليومنن به ولينصرونه ، وان يأخذوا هذا الميثاق على أممهم ، قال تعالى : ((واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أ أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين))[٤] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (ما بعث الله نبيا الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على امته الميثاق ، لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[٥] .

---

(١) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٦ من سورة الصف .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الفتح .
(٤) الآية ٨١ من سورة آل عمران .
(٥) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٧٨ .

فيتضح مما سبق ان البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كانت على ألسنة الأنبياء والرسل جميعا ، وقد كان من دعاء خليل الله ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام كما قص الله ذلك في القرآن الكريم فقال : ((ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم))[1] .

وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم حين بلغ من العمر اربعين سنة ، وكان أول ما بدىء من ذلك الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء والبعد عن الناس ، فكان يذهب الى غار حراء خارج مكة وينقطع فيه الأيام والليالي يعبد الله على دين ابراهيم ، ثم يعود الى زوجه خديجة ويتزود لمدة أخرى ويعود الى خلوته ، حتى كان ذلك اليوم الذي اشرق فيه النور وبزع فجر الحق على العالمين ، وهم في تلك الظلمة الحالكة والحيرة المتناهية ، فجاءه رسول الله الى انبيائه ورسله ، أمين الملائكة ، جبريل عليه السلام مرسل من ربه الى محمد صلى الله عليه وسلم ليلقى عليه أول أنوار هذه الرسالة التي بها نجاة الناس وفلاحهم وسعادتهم .

ولنسمع كيف تصف عائشة رضي الله عنها بدء نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الامام البخاري رحمه الله بسنده عنها رضي الله عنها أنها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة البقرة .

جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ((اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم))(١) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني(٢) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة : ـ وأخبرها الخبر ـ ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني(٣) ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله ان يكتب ، وكان شيخاكبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقه : هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى ، ياليتني فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ فقال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصراً مؤزرا)(٤)

---

(١) الآيات من ١ ـ ٥ من سورة العلق .
(٢) التزميل : الاخفاء واللف في الثوب ، وتزمل تلفف . انظر القاموس المحيط ٤٠١/٣ .
(٣) وفي رواية اخرى للبخاري : يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية .
(٤) البخاري بشرحه ٢٢/١.

المبحث الثالث

بدء دعوته صلى الله عليه وسلم

بعد نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بدأت شمس الهداية تسطع على البشرية تضيء لها الطريق الى ربها ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، وقد جاء الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم ليبدأ هذه المسيرة العظيمة التي سار فيها الأنبياء والمرسلون من قبله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، ولكنهم كانوا لأممهم خاصة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء للناس جميعا كما قال تعالى : ((وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا))[(١)] ((قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا))[(٢)] ، (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين))[(٣)] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة)[(٤)] .

وجاء الأمر له من ربه عز وجل : ((يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر))[(٥)] .

فبدأ عليه الصلاة والسلام دعوته سرا يفضيها الى من يثق في قناعته وتصديقه وقبوله لهذا الدين ، فسبق اليها أولئك السابقون الذين اكرمهم الله بالايمان بهذه الرسالة ، وأولهم ابو بكر الصديق ، وخديجة زوجه صلى الله عليه وسلم

---

(١) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٢) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠٧ من سورة الانبياء .
(٤) البخاري بشرحه من حديث جابر رضي الله عنه ١/٤٣٥ .
(٥) الآيات من ١ ـ ٧ من سورة المدثر .

وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، وبلال وغيرهم من السابقين رضي الله عنهم أجمعين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم الاسلام أول ما يعلمهم نبذ عبادة غير الله واخلاص العبادة لله وحده ، في سرية من قريش لئلا يفتنوهم عن دينهم ، وبدأ هذا النور يسري وسط ذلك الظلام الدامس الذي يحيط به من كل جانب .

قال ابن اسحاق : (ثم تتام الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاء منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة اثقال ومؤنه ، لا يحملها ولا يستطيع بها الا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى توفيقه ، كما يلقون من الناس ، وما يرد عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمرالله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى)[١] .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ٢٥٦/١ .

أ ـ دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة الى التوحيد وموقف المشركين منهـا

تقدم الكلام عن دعوة الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنها متفقة جميعا في الدعوة الى التوحيد ، بل كان أول ما دعوا اليه أممهم .

قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ، ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[1] .

وبعث الله نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وجعل رسالته خاتمة الرسالات ، فكانت الدعوة الى التوحيد أول أمرها وأعظم مقصودها ومفتاح الدخول اليها ، وعنيت به أعظم عناية ، فكانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها دعوة الى التوحيد وجهادا في سبيله حتى بنى تلك القاعدة المتينة الراسخة من اصحابه رضي الله عنهم في مكة قبل هجرته الى المدينة ، ثم في المدينة بعد الهجرة ، فآمنوا بها بصدق وحملوها بجد وتلقوا كل التكاليف بعد ذلك وهم في غاية الامتثال والخضوع والمحبة والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم رخيصة في سبيلها حتى دخل الناس في دين الله افواجا ، وبلغت هذه الدعوة أرجاء المعمورة ، وشهد التاريخ منهم ما لم يشهده من قبل ولن يشهده من بعد ، وأتت تلك الدعوة التي اسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلال الفترة المكية ثمارها اليانعة في المدينة ، فجنى المؤمنون ثمارها التي

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

يومنا هذا والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وسأذكر فيما يلي نبذة عن دعوته عليه الصلاة والسلام في مكة وطبيعة هذه الدعوة وموقف المشركين منها .

وقد سبق الكلام بالتفصيل عما كانت عليه الحال في جزيرة العرب قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتاريخ الشرك فيها ، وأن جزيرة العرب وبما فيها قريش التي كانت لها ولاية البيت وضيافة الحجيج ، كانت فيها صور شتى من الشرك من عبادة الأصنام والأوثان من أشجار وأحجار وعبادة الكواكب والنار ، وديانة يهودية ونصرانية ، مع وجود بقايا للحنفية ملة ابراهيم عليه السلام ، وان كانت الأصنام والأوثان تحتل المقام الأول عندهم ، الا أن جميع هذه الأصناف كانت موجودة ، وما لم يكن منها موجودا في قريش فقد كان موجودا عند غيرهم من العرب .

طبيعة الدعوة الى التوحيد في العهد المكي :

اشرت في المبحث السابق الى الحالة التي كان عليها المجتمع المكي خاصة والعربي عامة قبيل بعثته صلى الله عليه وسلم ووقتها ، وما كان من الوان الشرك المختلفة ، وصلت بالبشرية وقتئذ الى دركات الضلال والفساد حتى مقتها الله تعالى ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال في احدى خطبه : **(وان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : انما بعثتك لأبتليك وابتلي بك ، وانزلت عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظانا)**[1] .

وفي هذا الوسط المخيف ، والمجتمع المتخبط في دياجير الظلم سطع نور

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٠٩

الهداية للبشرية ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن الضلال والحيرة الى الهدى والرشاد ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضي بهذا الأمر ويدعو اليه من يثق به ويتوسم فيه القبول ، فآمن به نفر كان لهم فضل السبق ، وأولهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وخديجة بنت خويلد ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين ، وسارت دعوته التوحيد هذا المسار مدة ثلاث سنوات وآمن عدد من الناس من مختلف الطبقات ولكن أكثرهم من الضعفاء والرقيق ، والقرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينا لهذه الدعوة داعيا الناس اليها ومحذرا لهم من مخالفتها .

الجهر بالدعوة :

ثم بعد ذلك جاء الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم باعلان هذه الدعوة لجميع الناس كما قال تعالى : ((فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين))[1] ، وقال : ((وانذر عشيرتك الأقربين))[2] . فأعلنها على الناس ودعاهم الى عبادة الله وحده وحذرهم من عذاب الله ان هم اعرضوا ، كما أورد ذلك الامام مسلم رحمه الله في صحيحه في عدة روايات منها :

ما رواه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما نزلت : ((وانذر عشيرتك الأقربين)) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : (يافاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبدالمطلب ، يابني عبدالمطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم)[3] .

---

(١) الآية ٩٤ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٣/٨٠ ـ ٨١ .

ما رواه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ((وأنذر عشيرتك الأقربين)) : (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبدالمطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا)[1] .

وما رواه بسنده عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو[2] قالا : لما نزلت : ((وانذر عشيرتك الأقربين)) قال انطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم الى رضمة[3] من جبل فعلا اعلاها حجرا ثم نادى : (يا بني عبد مناف اني نذير انما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف ياصباحاه)[4] .

وما رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية ((وانذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين))[5] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه ، فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا اليه فقال : (يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبدالمطلب ، فاجتمعوا اليه ، فقال :

---

(١) قبيصة بن المخارق : هو ابن عبدالله بن شداد الهلالي ابو بشر ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه ولده قطن قال البخاري : له صحبه . انظر الاصابة ٣/٢١٥ . وزهير بن عمرو : هو الهلالي نزيل البصرة ، قال البغوي : لا أعلم له الا حديث الانذار . انظر الاصابة ١/٥٣٦ . (٢) صحيح مسلم بشرحه ٣/٨١ .

(٣) الرضمة : واحدة الرضم والرضام وهي دون الهضاب ، وقيل صخور بعضها على بعض . انظر النهاية لابن الأثير ٢/٢٣١ . (٤) صحيح مسلم بشرحه ٣/٨١ .

(٥) قال النووي رحمه الله في شرحه هذا الحديث : " فظاهر هذه العبارة ان قوله ((ورهطك منهم المخلصين)) كانت قرآنا انزل ثم نسخت تلاوته ، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري " . المصدر السابق ٣/٨٣ .

أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال : فقال ابو لهب : تبا لك أما جمعتنا الا لهذا ، ثم قام فنزلت هذه السورة ((تبت يدا أبي لهب وقد تب ، كذا قرأ الأعمش ... الى آخر السورة)))[1].

أساليب الدعوة الى التوحيد في العهد المكي :

بعد اعلان الدعوة الى توحيد الله تبارك وتعالى ، بدأت الدعوة تأخذ موقف المواجهة مع مشركي قريش ، وبدأ تقض مضاجعهم وتقلق راحتهم ، فانبرى كثير منهم لمعارضتها وتلفيق التهم بأهلها ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل امتدت ايديهم الى المؤمنين بهذه الدعوة ، ممن تحت ايديهم وغيرهم كذلك بأنواع من الأذى ، وقابله أولئك المؤمنون بالصبر وقوة الايمان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصبرهم ويشد عزائمهم ، والقرآن ينزل يدعوا الناس الى عبادة ربهم وحده ويبشرهم وينذرهم ويعدهم ويوعدهم ويقص عليهم انباء الأمم الماضية ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين والمكذبين ، مما نجده واضحا جليا في المكي من القرآن الكريم.

وقد سلكت الدعوة في تلك الفترة سبلا كثيرة في الدعوة الى التوحيد - ومنها :

١) لفت النظر الى الآيات الكونية المحسوسة والتذكير بنعم الله تعالى على عباده :

وقد جاء ذلك كثيرا في آيات القرآن الكريم التي تدعو الى النظر في آيات الله تعالى في الكون والتي تدل دلالة بينة على خالقها سبحانه وانه المستحق

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ٨٢/٣ ، ٨٣ .

للعبادة وحده ، كما قال تعالى : ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد))[١] ، وكثيرا ما تأتي تلك الآيات مذيلة بطلب التفكر والتذكر والاعتبار بالوان امن الأساليب البلاغية ، كما تأتي أحيانا باللوم والتوبيخ والانكار على من لم يتعظ بذلك أو يتفكر أو يعتبر .

قال تعالى : ((خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم اجمعين ، هو الذي أنزل من السماء ماءا لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيحون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا الوانه ، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، والقى في الأرض رواسي ان تميدكم وانهاراً وسبلاً لعلك تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون))[٢] .

ثم يقول تعالى عقب ذلك مباشرة : ((أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيات من ٣ - ١٦ من سورة النحل .

وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون ، ايان يبعثون ، الـهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين))[١] .

فالله تعالى يذكر عباده ويلفت انظارهم الى ما انعم به عليهم وسخره لهم من نعم ، في السموات والأرض والبر والبحرمما يعجزون عن عده ولا يستغنون عن شيء منه ، ويدعوهم الى التفكر والتدبر ليعلموا أن ذلك من ربهم وخالقهم الذي يجب عليهم ان يفردوه بالعبادة ، اذ هو المستحق لها وحده ، فكما أن الخالق الرازق المحي المميت وحده ، فكذلك هو المعبود المتفرد بالعبادة وحده لا شريك له[٢] .

ومن الآيات التي تذكر العباد بنعم الله عليهم وتدعوهم الى توحيد المنعم بها سبحانه وتنكر عليهم اعراضهم عن ذلك وغفلتهم عنه ، ما جاء في سورة النمل قال تعالى : ((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أءله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها انهاراً ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أءله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، أءله مع الله تعالى الله

---

(١) الآيات من ١٧ - ٢٣ من سورة النحل .
(٢) انظر كتاب منهج القرآن في الدعوة الى الايمان للدكتور على بن محمد ناصر فقيهي ص ٥٧ وما بعدها .

عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أءلـــه مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، قل لا يعلم من في السمــوات والأرض الغيب الا الله ، وما يشعرون ابان يبعثون ، بل ادارك علمهم في الآخرة بل هـــم في شك منها بل هم منها عمــون))[1] .

فانظر كيف يدعوهم القرآن الى توحيد الله وافراده بالعباده ، ويستـــدل لذلك ويحتج عليهم بما يرونه ويقرون به من توحيد الربوبية ، وان احدهمـــا لا يكفى عن الآخرة، بلهما متلازمان كل منهما يقرر الآخر ويدعوا اليه ، ويعيـــب عليهم عبوديتهم لغير الله مع اقرارهــم بربوبيتـــه .

ولو تتبعنا ما نزل في الفترة المكية في هذا الموضوع لطال الكلام ، اذ السور المكية زاخرة بذلك تبين كيف كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلـم في الفترة منصبة الى تقرير التوحيد وغرسه في قلوب الناس بالوان شتى مـــن اساليب الدعوة ، هذا الذي تقدم ذكره أحدها .

٢) ضرب الأمثلـــة :

ومن الأساليب التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوة النـاس الى توحيد الله تعالى ضرب الأمثلة ، وهو من الأساليب التي تقرب الحقائق الـــى الافهام فتظهرها في صورة المحسوس فيسهل فهمها وتزداد الحجة بذلك ، وقد أنـزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم انواعا من الأمثلة في القرآن الكريـــم ليبلغها للناس ، بيانا لهم واقناعا بخطأ ما هم عليه من الشرك والضلال ، وان ما يدعونه من دون الله باطل وضلال ، وانه تعالى هو المستحق للعباده وحـــده دون ما سواه .

---

(١) الآيات من ٥٩ ـ ٦٦ من سورة النمل .

ومن هذه الأمثلة :

قوله تعالى : ((ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون))[١] .

جاء ضرب هذا المثل عقب قوله تعالى عن المشركين الذين كفروا بالله الذي بيده ملكوت كل شيء ، ويتعلقون بالأصنام والأوثان لا تملك لنفسها ولا لهم نفعا ولا ضرا ، ((ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون ، فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وانتم لا تعلمون))[٢] .

ثم جاء ذكر المثل ، وهذا دليل على جهلهم وضلالهم واتباعهم لاهوائهم وانظر كيف ختمت الآيتان بالشهادة عليهم بعدم العلم ، فالآية الأولى ختمت بقوله تعالى : ((ان الله يعلم وانتم لا تعلمون)) ، والثانية بقوله تعالى ((الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)) .

ولا ريب أنهم كما قال الله عنهم لا يعلمون ، أما الذين يعلمون فهم المؤمنون الموحدون لله تعالى كما قال عنهم : ((شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط))[٣] ، وقال : ((ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد))[٤]

---

(١) الآية ٧٥ من سورة النحل .
(٢) الآية ٧٤ من النحل .
(٣) الآية ١٨ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٦ من سورة سبأ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ((ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً ..)) الآية .

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما واضحا بينا لا يجهله الا كل غبي قال الله تعالى : ((الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون))[١] أهـ .

ومن الأمثلة التي ضربها الله تعالى للناس وبلغها رسوله صلى الله عليه وسلم في دعوته الناس الى توحيد ربهم ، قوله تعالى : ((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ان الله قوي عزيز))[٢] .

فالله تعالى يبين لهم عجز هذه الأصنام والأوثان التي سموها آلهة ، وهي لا تملك ان تخلق اضعف المخلوقات واحقرها ، فكيف يدعونها من دون الله ويرجونها لنفع أو ضر ، وهذا لأنهم ما قدروا الله حق قدره .

قال القرطبي عند تفسير هاتين الآيتين : " قوله تعالى : ((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له)) : هذا متصل بقوله : ((ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطان)) ، وانما قال : ضرب مثل لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال اقرب الى افهامهم .

ثم قال بعد ذلك : " وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته ،

---

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٥٧٨/٢ .
(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج .

وضعفه ، ولاستقذاره وكثرته ، فاذا كان هذا الذي هو اضعف الحيوان واحقره لا يقدر من عبدوا من دون الله عز وجل على خلق مثله ، ودفع اذيته ، فكيف يجوز ان يكونوا آلهة معبودين وارباباً مطاعين ، وهذا من قوى حجة واوضح برهان "(١) .

وقد تحداهم الله تعالى وهو خالق كل شيء في قوله تعالى لهم : ((هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه))(٢) .

ووبخهم بقوله تعالى : ((أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون))(٣) .

وبعد هذا فلا خالق الا الله وحده فهو المستحق للعبادة وحده ((ذلكم الله ربكم خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء قدير))(٤) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ذلك ويبين لهم هذه الأمثال التي ضربها الله لهم ، ولكن أكثرهم كانوا كما قال الله عنهم : ((ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاءاً ونداءاً ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون))(٥) .

ومن الأمثلة المضروبة للدعوة الى توحيد الله تعالى وبيان عجز الآلهةالتي يدعون من دونه تعالى قوله سبحانه : ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون))(٦) .

---

(١) ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ ٩٦/١٢ ، ٩٧ .
(٢) الآية ١١ من سورة لقمان .
(٣) الآية ١٧ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة الانعام .
(٥) الآية ١٧١ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٤١ من سورة العنكبوت .

وهذا مثل عظيم في غاية الوضوح يبين جهل من يتخذ من دونه آلهة ويظن أنها تغني عنه شيئا ، وبمثل هذه الأمثال المضروبة يتعظ كل عاقل لبيب ، كما قال تعالى : ((وتلك الأمثال نضربها للناس ما يعقلها الا العالمون)) ، وقد ورد عن بعض السلف انه قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها الا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول : وذكر الآية السابقة .[1]

و ما تقدم من الأمثلة وغيرها كثير في القرآن الكريم يبين نوعا من اساليب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة الى توحيد الله تعالى حرصا على هدايتهم للحق الذي جاء به ليخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن الغي الى الرشاد .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤١٤/٣ .

٣) **من اساليب الدعوة الى التوحيد في الفترة المكية :**

" الدعوة الي التوحيد ، وتقرير الألوهية بالأدلة العقلية "

جاء هذا الاسلوب كثيرا في القرآن الكريم - والمكي منه خاصة - وعرض للناس انواعا كثيرة من الأدلة والحجج العقلية الدامغة ، ودعاهم الى النظر فيها وتأملها ، ليتبين صواب هذه الدعوة وفساد ما هم عليه ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، كبرا وعنادا ، وطاعة للهوى والشيطان ، كما قال تعالى : ((قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون))(١) .

وقال سبحانه : ((فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين))(٢) .

وهم في قرارة انفسهم وباطن أمرهم يعترفون بصدق هذه الدعوة ، ونفاذ أمرها ، وقوة حججها ، وثبات اتباعها .

ومن هذه الأدلة :

قوله تعالى : ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون))(٣) .

وهذا الدليل هو المسمى لدى علماء الكلام (بدليل التمانع) ، وهو

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص
(٣) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .

سلامة الكون من الخلل ، وانتظام حركاته والاستدلال بذلك انه من إله واحد .

ومعناه : انه لو كان في السموات والأرض آلهة متعددة لأدى ذلك الى اختلال نظام الكون ، لأنه لا بد من حصول اختلاف وتباين في ارادة إله وإله آخر غيره ، فيمتنع اجتماع الارادتين للمتضاد بينهما ، كما عدم حصول ارادتهما دليل على العجز والواجب لا يكون عاجزا ، واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والاله الحق ، والآخر مغلوب ممكنا ، والواقع يثبت صلاح الكون وانتظامه وسلامته من الخلل ، وهذا دليل على وحدانية الله تعالى وبطلان ما سواه ، وانه لا معبود بحق الا هو ، وان تعدد الآلهة يقتضي الفساد للكون ومن فيه .[1]

والآية دليل على توحية الألوهية لا على توحيد الربوبية كما يقول بعض المتكلمين ، ومثلها قوله تعالى في هذه الآية : ((**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون**))[2] .

٢) ومن الأمثلة على الدعوة الى التوحيد بالأدلة العقلية قوله تعالى في هذه الآية : ((**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون**))[3] .

وهذا من الأدلة العقلية التي تدعوهم الى توحيد الله تعالى ، فمن غير المقبول عقلا أن يوجدوا من غير موجِد وخالق ، وكذلك من غير المقبول عقلا

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٧ ، ٨٨ ، وكتاب منهج القرآن في الدعوة الى الايمان للدكتور على ناصر فقيهي ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) الآية ٩١ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة الطور .

أن يكونوا أوجدوا انفسهم ، فالامران مستحيلان عقلا ، فتعين ان يكون هناك خالق متفرد بالربوبية على كل شيء قدير ، وكما تفرد بالربوبية فمن لازم ذلك ان يتفرد بالألوهية وحده وبالأسماء الحسنى والصفات العلى ، اذ ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

قال جبير بن مطعم : " لما سمعتها ـ أي هذه الآية ـ احسست بفؤادي قد تصدع "[١] .

والأمثلة لهذه الأدلة كثيرة جدا في الكتاب والسنة النبوية ، والسور المكية حافلة بذلك ، كسورة الأنعام .. وغيرها .

٤) من اساليب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الى التوحيد في مكة :

الاحتجاج عليهم بما يقرون به ويعترفون من توحيد الربوبية ، وان ذلك مستلزم لتوحيد الالوهية ، والا فلا معنى لما يقرون به من توحيد الربوبية وقد جاء ذلك في آيات كثيرة من الكتاب الكريم ومن اشد ذلك ما جاء في سورة النحل في آيات متتالية ، وهو قوله تعالى : ((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماءاً فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحر حاجزا ، أإله مع الله ، بل اكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ١١/١ .

يدي رحمته ، أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ، أم يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))[١] .

فبعد ذكر آيات ربوبيته سبحانه يعقب بذكر الهيته في صورة سؤال لهم .

فهم يعترفون بذلك كله الذي هو من خصائص ربوبيته سبحانه ، كما أخبر الله عنهم في آيات أخرى ، منها قوله تعالى في سورة المؤمنون : ((قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل افلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل افلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون))[٢] . ولكنهم لم يعترفوا بألوهيته فلم ينفعهم ذلك .

وكما في قوله سبحانه في سورة يونس : ((هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم قد احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين))[٣] وغير ذلك من الآيات .

قال الامام ابن كثير في تفسيره : " أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون انه لا يخلق ولا يرزق ، وانما يستحق ان يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا

---

(١) الآيات من ٥٩ ـ ٦٤ من سورة النحل .
(٢) الآيات من ٨٤ ـ ٨٩ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس .

قال : ((أإله مع الله)) : أي أإله مع الله يعبد ؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به ايضا انه الخالق الرازق "[1]

ولكنهم مع اعترافهم بربوبيته سبحانه ابى عليهم كبرهم وعنادهم أن يعبدوه وحده ، مع اعترافهم ايضا بأن معبوداتهم لا تغنى بنفسها شيئا ، كما قال الله عنهم : ((والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى))[2].

وكما كانوا يقولون في تلبيتهم " لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك " ، وهذا غاية العناد والضلال وضعف العقول ، ولهذا نعى الله عليهم عقولهم ، ووصفهم بعدم العلم ، وعدم الفهم والتذكر وغير ذلك من الصفات التي يتصف بها كل من حرم نعمة توحيد الله تعالى .

هذه أهم الأساليب التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته الى التوحيد في المجتمع المكي ، ولو ذهبنا نستقصي هذه الأساليب لطال الحديث عن ذلك ، اذ الفترة المكية كانت كلها دعوة الى التوحيد واقرار الألوهية لله سبحانه وتعالى ، خلال ثلاث عشرة سنة ، لم يفرض فيها شيء من الفرائض الا الصلاة في أواخر هذه الفترة ، اذا التوحيد لله تعالى وافراده بالعبادة اساس الاسلام وقاعدته ، لا يقبل من أحد عبادة قبل تحقيق ذلك ، وعلى هذا اتفقت دعوة الأنبياء والرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) الحافظ عماد الدين ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٣ /٣٦٩ .
(٢) من الآية ٣ من سورة الزمر .

موقف المشركين في مكة من هذه الدعوة :

وقف كفار قريش موقف العداء من هذه الدعوة و صاحبها عليه الصلاة والسلام من أول لحظة اعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته وبين لهم منهجه يوم وقف على الصفا ودعا قريش حتى اجتمعوا وبعد أن قررهم على صدقه ، أعلن عليهم دعوته وقال : ((اني نذير لكم بيد يدى عذاب شديد)) طارت أول شرارة عداء من لسان عمه ابي لهب فقال له : تبا لك الهذا جمعتنا ؟ واستمر ـ اخزاه الله ـ في عدواته حتى اهلكه الله شر اهلاك وزهقت نفسه الخبيثة بعد مرض نفر لأجله منه اقرب الناس اليه ، وفي الآخرة عذاب شديد ، وانزل الله فيه قرآنا يتلى الى قيام الساعة يحمل له الويل والوعيد الشديد هو وامرأته : ((تبت يدا أبي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد))[1] .

وبدأت معه قريش في عداوتها وكيدها لهذه الدعوة وأهلها من أول خطوة من خطوات هذه الدعوة ، ومارس كفار قريش للقضاء على هذه الدعوة وأهلها ، أو صدهم عما هم عليه الوانا من اساليب الأذى ، وسلكوا لذلك سبلا مختلفة للوصول الى ما أرادوا ، وزاد ذلك حين رأوا تزايد اعداد المؤمنين بهذه الدعوة وصاحبها يوما بعد يوم ، واستعملوا كل وسائلهم وممارساتهم مع سول الله صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين ، فلم يروا لها نتيجة تسرهم ، بل زادت المؤمنين قوة وصلابة وتمسكا بايمانهم ، وصبرا على ما يلاقونه من الأذى ، واذن الله لهم بالهجرة الى الحبشة فخرجوا اليها مرتين وآواهم النجاشي ملك الحبشة ونصرهم ورد عروض قريش وسفراءها وخيب آمالهم ، فازداد أذاهم لرسول الله

---

(١) انظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٦٠ .

(٢) سورة المسد

صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في مكة ، ومن ذلك ما فعلوه برسول الله صلى الله عليه وسلم اذ وضعوا عليه سلى الجزور وهو ساجد كما أخرج ذلك الشيخان بسندهما عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (بينا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة بن ابي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، وأمية بن خلف - أو ابي بن خلف - شعبة الشاك ، فرأيتهم قتلوا يوم بدر ، فألقوا في بئر ، غير أمية بن خلف أو ابي تقطعت أوصاله فلم يلق في البئر)[١] .

وتآمروا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصروه واصحابه في شعب أبي طالب وكتبوا صحيفة المقاطعة وعلقوها في الكعبة ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه رضي الله عنهم على ذلك ثلاث سنوات وجدوا فيها من الشدة والضيق أقساه ، فصبروا على ذلك ، وسلط الله على صحيفة قريش الأرضة فأكلتها ، وسعى بعضهم لفك هذا الحصار ، وخرج رسول الله وأصحابه اكثر صبرا وأقوى عزيمة على نشر هذه العقيدة والجهاد في سبيلها[٢] .

الى غير ذلك من انواع الأذى المستمر المتواصل الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم في سبيل دعوة التوحيد في تلك الفترة

---

(١) البخاري مع الشرح ١٦٥/٧ ، ومسلم مع الشرح ٥٣/١٢ .

(٢) انظر : دلائل النبوة للحافظ الاصبهاني ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، و ص ٣٥٦ - ٣٦٧ .

وفي ذلك المجتمع المعاند المكابر الذي صار يلاحق هذه الدعوة وأهلها ويشوه سمعتها وسمعة أهلها بين الناس ، لما رأوا خطرها على اصنامهم وأوثانهم ، وما قدموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عروض مادية وغيرها في سبيل صده عن دعوته وما عرضوا من مصالحة يريدون عقدها معه صلى الله عليه وسلم حين يئسوا من قبوله أو التغلب عليه ، فلم يجدوا لكل ذلك طريقا ولا مكانا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم ، فضاعفوا من عداوتهم ومكرهم وعنادهم ، فوصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بأنه شاعرة ، ومرة بأنه ساحر ، وكاهن ، وتناقضوا في ذلك واضطربوا وأذوا اصحابه اشد الأذى مما لا يتسع المقام لذكره .[1]

واستمر الحال على ذلك طيلة تلك الفترة المكية التي بلغت ثلاثة عشر عاما حتى أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم واصحابه بالهجرة الى المدينة ، فكانت نصرا من الله لدينه ورسوله وخذلانا لاعدائه ، وتحولا كبيرا في تاريخ هذه الدعوة التي بعث بها خاتم المرسلين الى الناس أجمعين .

ثمرات دعوة التوحيد في الفترة المكية :

استمرت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة كاملة كلها دعوة الى توحيد الله واخلاص العبادة له وحده ، ونبد ما سواه ، ولم تُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيلات الشريعة بل كانت هذه الفترة كلها تعالج قضية واحدة وهي قضية العقيدة والايمان بالله تعالى ، وما يتعلق بذلك من أمور هذه العقيدة وترسيخها في القلوب ، ونزل اكثر

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام ٤٢٠/١ وما بعدها .

القرآن الكريم في تلك الفترة في تقرير هذه الحقيقة ومعالجة هذه القضية التي هي أهم القضايا والغاية من ارسال الرسل ، كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[١] .

ولقد كانت هذه الفترة في مكة تربية لأولئك المؤمنين الأوائل ، وتثبيتا لهذه العقيدة في قلوبهم ، حتى رسخ فيها توحيد الله تعالى وحده والبراءة مما سواه ، وتلك حكمة عظيمة من الحكيم الخبير آتت بعد ذلك ثمارها الطيبة باذن ربها ، ورأى الناس نتائج تلك التربية على توحيد الله التي غرست وسقيت في مكة وآتت أكلها طيبة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وايدى اصحابه صفوة الخلق بعد الانبياء والرسل رضي الله عنهم ثم التابعين واتباعهم باحسان من بعد ذلك .

ومن أهم ثمرات تلك الدعوة والتربية في مكة :

أولا : تلك العناية الفائقة والتربية الفريدة التي نالتها تلك الفئة من المؤمنين الأولين ، فكان لها نوع مميز من التربية على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رباهم هذه الفترة كلها على عقيدة التوحيد التي جعلت من أولئك المؤمنين في مكة قاعدة ثابتة راسخة انطلق منها الاسلام بعد ذلك الى ارجاء الأرض ، ولقد ظهرت الآثار الطيبة المباركة لتلك التربية المميزة على أولئك الأخيار الذين اختارهم الله تعالى لصحبه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر والشجاعة والاقدام والصدق والاخلاص والنصح لله تعالى ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب والسلم والشدة والرخاء ، مما تزخر به كتب السير

---

(١) انظر كتاب منهج القرآن في تربية المجتمع للدكتور / عبدالفتاح عاشور ص ١٤٨ .

ويقرؤه الناس وكأنه ضرب من الخيال ، ولكنه نتاج التربية على العقيدة الصحيحة التي كانت أول ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانت أو ما دعا اليه اخوانه من الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه ، الذين اصطفاهم الله واختارهم لحمل هذه الأمانة ، وأدائها الى الناس ، والله تعالى اعلم حيث يجعل رسالته وقد سار على هذا المنهج القويم اتباعهم وانصارهم في حياتهم وبعدها طاعة لله تعالى ولرسله : ((ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما))(١) .

وهذا سبيل الناجين ، فمن رأى السلامة في غيره كان ممن قال الله فيهم : ((ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا))(٢)

ثانيا : ومن ثمار هذه الدعوة الى توحيد الله تعالى في الفترة المكية ما حصل من غرس شجرة هذه العقيدة في قلوب أولئك المؤمنين غرسا يتناسب مع قوة هذه الرسالة وعظمتها وامتدادها مدى الحياة ، فهي آخر الرسالات السماوية وخاتمتها ، فكان حقا أن تأخذ الدعوة الى هذه العقيدة وتثبيتها في قلوب المؤمنين بعد ازالة ما فيها من ادران الجاهلية ، كان حقا ان تأخذ أكثر من نصف عمر هذه الدعوة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ينزل فيها اكثر القرآن الكريم ، وأن تعنى بترسيخ عقيدة التوحيد الخالص في قلوب المؤمنين فأخرجتهم من الظلمات الى النور ، ومن حضيض الباطل الى علياء الحق ، ومن رعاة للغنم الى رعاة للأمم . والله غالب على أمره .

---

(١) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .
(٢) الآية ١١٥ من سورة النساء .

ثالثا : وثمرة ثالثة من أهم ثمار هذه الدعوة في مكة وهي : أن هذا التوحيد لله تعالى أول واجب على المكلف ، ولولا ذلك لما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوقت كله وهذا الجهد كله في اول عمر هذه الدعوة في دعوة الناس الى ذلك ، ولولا ذلك لما مرت تلك الفترة في مكة لم يؤمر المؤمنون بأمر ولم يكلفوا بتكليف غير أمر التوحيد والعقيدة ، الا فريضة الصلاة في أواخر هذه الفترة .(١)

ولو كان غير هذا الأمر أولى بالدعوة والاصلاح منه لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اسبق الناس اليه ، فلقد بعث والناس في حال يرثى لها من الفساد والانحطاط الخلقي والاجتماعي والسياسي ، ولوجد انصارا كثيرين لو اتجه لاصلاح هذه المفاسد في ذلك المجتمع ، ولكن ذلك لا يخرج الناس من ظلم ولا يخرج منهم رجالا تقوم عليهم رسالة للعالمين .(٢)

ولأهمية هذا الأمر كان أول ما دعا اليه الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكان أول ما يطلب من العبد ، وهو أول ما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر به رسله من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : **(أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ألا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله تعالى)**(٣)

---

(١) انظر : كتاب مصرع الشرك والخرافة ـ خالد على الحاج ص ١٦٣.

(٢) انظر : كتاب منهج القرآن في تربية المجتمع ، د. عبدالفتاح عاشور ص ١٤٩ .

(٣) البخاري بشرحه ٤٩٦/١ ، ٤٩٧ ، ومسلم بشرحه ٢٠٦/١ .

وكما قال عليه الصلاة والسلام حين بعث معاذا الى اليمن : (انك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة أن لا اله الا الله ، واني رسول الله ، فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم ، فان هم اطاعوك لذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب)[١]

وهذا هو سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوته وسبيل اتباعه من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، كما قال تعالى : ((قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين))[٢]

وهذا أمر مهم غاية الأهمية يجدر بكل داعية وطالب علم أن يعنى به اتم عناية ويحذر من مخالفته لأي سبب كان من استحسان أو اتباع هوى أو اعجاب برأي أو تقليد أو غير ذلك ، وقد عقدت لذلك مبحثا من هذه الرسالة .

---

(١) البخاري بشرحه ٢٦١/٣ . ومسلم بشرحه ١٩٦/١ ، ١٩٧ واللفظ له .
(٢) الآية ١٠٨ من سورة يوسف .

ب- دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم

الى التوحيد في المدينة

بعد أن قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة في مكة تلك الفترة في الدعوةالىتوحيداللهوسط ذلك الجو المليء بالعداوة والأذى الشديدين وقد أذن الله للصحابة في الهجرة فهاجر كثير منهم هجرتين الى الحبشة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف ، فلم يجد الا كأذى اهل مكة أو أشد ، واشتدت قريش في ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، فأذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم واصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قابل وفدين من أهلها في العقبة بمنى في موسم الحج ، وعقد معهم البيعتين الأولى والثانية ، فكان الاذن بالهجرة فرجا من عند الله للرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه ، فبدأ الصحابة يهاجرون الى المدينة حتى هاجر اكثرهم ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وبهذه الهجرة النبوية الكريمة الى المدينة تدخل الدعوة الى توحيد الله تعالى مرحلة أخرى في ابلاغها للناس ، وتمهيد السبيل لانتشارها ، ووقوفها في وجه الاعداء ، فلقد كان الشرك يبسط نفوذه ويُحكم سلطانه على الجزيرة العربية .

ولم تنته عداوة المشركين للمؤمنين بالهجرة والخروج من مكة ، بل ازدادات فقد رأى المشركون أن رسول الله واصحابه قد قامت لهم دولة في المدينة ، فبدأت قريش ومن شايعها تحيك المؤامرات والدسائس لرسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، بدأت منذ بدأ اصحابه في الهجرة وعزم عليه الصلاة والسلام على الهجرة ، فاحاطوا ببيته وحفظه الله منهم ، ولما علموا بذلك جدوا في البحث

عنه وجعلوا الجوائز لمن يأتي به ، ولما نجاه الله من كيدهم واستقر في المدينة ، صبوا على المستضعفين من المؤمنين الذين لم يقدروا على الهجرة الى المدينة ، صبوا عليهم الوانا من الأذى والتنكيل ، وبدأوا يفكرون في الانتقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذه الدعوة في المدينة ، وأذن الله تعالى لرسوله والمؤمنين بالقتال ، وكان أول لقاء بين التوحيد والشرك في غزوة بدر الكبرى ، التي ظهرت فيها قريش بشركها في غاية الفخر والخيلاء كما أعلنها ابو جهل ـ وقد أشير عليه بالعودة الى مكة ما دامت العير قد نجت ـ فقال : " والله لا نرجع حتى نرد بدرا [١] ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان [٢] ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا جميعا ، فلا يزالوان يهابوننا ابدا بعدها ، فامضوا " [٣]

فكانوا كما قال الله عنهم : ((ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط)) [٤] .

وقد كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من هجرته عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان اعز الله فيها جنده ، وهزم اعداءه شر هزيمة ،رلقنت

---

(١) بدر : ماء مشهور بين مكة والمدينة اسفل وادي الصفراء .
ويقال : انه ينسب الى بدر بن يخلد بن النظر من كنانة .
وقيل : بل هو رجل من بني صخرة سكن هذا الموضع فنسب اليه ثم غلب اسمه عليه .
وكانت موسما من مواسم العرب . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٥٧/١ .

(٢) القيان : الجواري .

(٣) ابن هشام ـ السيرة النبوية ٢٧٠/٢ .

(٤) الآية ٤٧ من سورة الانفال .

الشرك والمشركين درسا ، علموا من خلاله أن النصر والغلبة لا تنال بالخيلاء ولا قوة العدة أو كثرة العدد ، ولقد أهلك الله في هذه الغزوة صناديد الشرك والكفر الذين كانوا عقبة في سبيل هذه الدعوة يصدون الناس عنها ، ويؤذون من آمن بها .

ثم تتابعت الغزوات بين التوحيد والشرك بعد ذلك فكانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ثم الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة ثم صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة الى ان جاء الفتح الأعظم في السنة الثامنة من الهجرة ، فلفظ الشرك في مكة انفاسه وعلت كلمة التوحيد ، وحطمت الاصنام وطهرت منها الكعبة المشرفة بيت الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطم الأصنام التي على الكعبة وهو يتلو قوله تعالى : ((**وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا**))[1] .

كما حطمت الأصنام الأخرى المتفرقة في الجزيرة اذا بعث اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من هدمها وحطمها أو احرقها ، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله افواجا كما قال تعالى : ((**اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا**))[2] .

وتحقق وعد الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في رؤياه ، إذ يقول تعالى : ((**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا**

---

(١) الآية ٨١ من سورة الاسراء .

(١) سورة النصر .

فجعل من دون ذلك فتحا قريبا))[(١)] .

ثم غزوة حنين عقب فتح مكة لقتال مشركي الطائف وهوازن وغيرهم ، هــذا الى جانب الغزوات الأخرى والسرايا الكثيرة التي كان يبعثها رسول الله صلى اللــه عليه وسلم من المدينة تتبع فلول المشركين وتمهد الطريق لدعوة التوحيد حتـــى لا يبقى في الجزيرة صوت غير صوت الاسلام ولا عقيدة سوى عقيدة التوحيد .

" ولقد كان لسقوط معقل الوثنية ، وتسليم أهل مكة للجيش المنتصـــر ، ودخولها في دين الله أثره في تلك القبائل التي وقفت متحفزة للهجوم ، مستعـدة للانقضاض والتي جربت قوة الاسلام ، وثبات المسلمين ، فاذا بالمسلمين صخـــرة صلبة لا تلين ، لذا سارعت اكثر القبائل بالطاعة، وانضوت تحت لواء الديـــن الحنيف ، وخاصة بعد هزيمة هوازن وثقيف ، وبعد أن أرهبواجيوش الروم فـــي تبوك ، واظهروا قوة الاسلام في كل مكان ، وجاء العام التاسع ، وخرج ابو بكـــر يحج بالناس ، وحول البيت الذي تحطمت الأصنام من حوله ، اجتمع المؤمنـــون والمشركون : للمؤمنين شعائرهم ، وللمشركين عاداتهم وقبائحهم وضلالهم ، ومثـل هذا التناقض يأباه الاسلام ، ولابد أن يضع له حدا ، بعد أن علت راية الايمـــان ، لذلك كان لابد أن يمنع المشركين من دخول بيت الله الحرام ، وأن يعلن عليهـــم الحرب الدائمة ، حتى يستسلموا لأمر الله ، اذ لا يؤمن لهم جانب ولا يبقى لهـم عهد "[(٢)].

وبعد هذا فقد آن الأوان للبراءة العامة من الشرك وأهله واعلان ذلك علـى

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الفتح .

(٢) د. عبدالفتاح عاشور ، منهج القرآن في تربية المجتمع ص ٦٤٠ .

الناس جميعا ، فبعد عودته صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك هَمَّ بالحج وذكر حضور المشركين الحج بما هم عليه من شرك وضلال فبعث ابا بكر الصديق على الحج .

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآيات الأولى من سورة التوبة وهي قوله تعالى : ((براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ..)) الى قوله : ((الكافرين))(١) ، قال : " وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر ان المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وانهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث ابا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين إن لا يحجوا بعد عامهم هذا وان ينادي في الناس ((براءة من الله ورسوله)) فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه عصبة له "(٢) .

وأعلن ذلك ابو بكر الصديق رضي الله عنه في المشركين ، ثم تبعه علي رضي الله عنه وأعلن على الناس في منى ما نزل من آيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى : ((براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين ، واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم))(٣) وآيات أخرى بعدها .

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة التوبة .
(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٢/٣٣١ .
(٣) الآيات من ١ ـ ٣ من سورة التوبة .

اخرج البخاري رحمه الله بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال :

(بعثني ابو بكر في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ان لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، قال حميد بن عبدالرحمن : ثم اردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة ، قال ابو هريرة : فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة ، وان لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان)[١] .

وبهذا اعلنت البراءة من المشركين في ذلك اليوم العظيم والموقف العظيم وانكسرت شوكة الشرك والمشركين وارتفعت كلمة التوحيد ورايته ، وانفتح الطريق لهذه الدعوة لتصل الى الناس تخرجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد ، واستقرت في نفوسهم هذه العقيدة وترسخت هذه القاعدة اساسا لكل تكاليف هذه الدعوة وهذا الدين ، وتهيأت النفوس لقبول ذلك ايمانا وطاعة لله تبارك وتعالى واتباعا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الطريق القويم للدعوة الذي ينبغي لدعاة الاسلام أن يسلكوه في دعوتهم للناس ، وهي دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وامامهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال له ربه عز وجل : ((قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين))[٢] .

" ان الدعوة الى التوحيد الخالص اساس كل اصلاح ، فمن واجب دعاة الاصلاح أن يجاهدوا في تقويم العقائد ، فان العقائد السليمة مصدر كل خير ، والعقائد الزائفة منشأ كل شر "[٣]

---

(١) البخاري بشرحه ٣١٧/٨ .
(٢) الآية ١٠٨ من سورة يوسف .
(٣) خالد محمد علي الحاج ، كتاب مصرع الشرك والخرافة ص ١٦٤ .

وهكذا كانت دعوته صلى الله عليه وسلم الى التوحيد في المدينة جهادا متواصلا باللسان والسنان ، دعوة الى هذه العقيدة ونشرا لها ودفاعا عنها وحماية لها ، حتى انتشرت في ارجاء الجزيرة فعلا صوت التوحيد واختفى صوت الشرك ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم حماة لهذه الدعوة وهذه العقيدة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لهم فضل الله عليهم بنعمة التوحيد وما للموحدين من عظيم الأجر ورفيع الدرجات عند ربهم ، ويبين لهم خطر الشرك ويحذرهم منه ويسد كل طريق يوصل اليه ، قال تعالى : ((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين))(١) .

وقال سبحانه : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم))(٢) .

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

المبحث الرابع

" التوحيد أول واجب على العبد "

التوحيد أول ما يجب على العبد معرفته والاقرار به ، وأول ما فرضه على عباده ، قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))(١).

وقوله تعالى : ((فاعلم انه لا إله إلا الله))(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم : (امرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله واني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله)(٣).

وقوله عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذا الى اليمن : (انك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة ألا إله إلا الله فان هم اطاعوك فاعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ..)(٤) الى آخر الحديث .

والانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم كان التوحيد أول ما دعوا اليه أممهم التي ارسلهم الله اليها ، قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))(٥)

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٩ من سورة محمد .
(٣) تقدم تخريجه ص
(٤) تقدم تخريجه ص
(٥)

وقص علينا القرآن الكريم دعوتهم فكان أول ما قالوا لأممهم : ((ان اعبدوا الله ما لكم غيره)) .

فهو مفتاح دعوة الناس الى ربهم ، كما سبقت الأدلة على ذلك .

وهو قبل ذلك الفطرة المستقرة في النفوس في الأصل ، والانحراف أمر طارئ بسبب ما يقع فيه الناس من زيغ وضلال يفسد فطرتهم ، عما فطروا عليه ، والرسل عليهم الصلاة والسلام انما جاءوا ليعيدوا الناس الى ما فطرهم الله عليه من توحيده سبحانه كما قال تعالى : ((وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم ، قالوا : بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون))[(١)] .

وكما قال تعالى : ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين اقيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون))[(٢)] .

وفي الحديث : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[(٣)] .

وفي الحديث الآخر : (خلقت عبادي حنفاء فأخذتهم الشياطين فاجتالتهم)[(٤)] الحديث .

---

(١) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .
(٣) تقدم تخريجه ص
(٤) تقدم تخريجه ص

قال صاحب معارج القبول : " أول واجب فرضه الله عز وجل على العبيد معرفة الرحمن ، أي معرفتهم اياه بالتوحيد التي خلقهم له ، وأخذ عليهم الميثاق به ، ثم فطرهم شاهدين مقرين به ، ثم أرسل به رسله اليهم ، وانزل به كتبه عليهم "(١)

وقال ابن قيم الجوزيه رحمه الله : " ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها الى حالتها التي خلقت عليها ، فمن استجاب لهم رجع الى الأصل ، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها "(٢) .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى : " وقال ابو محمد عبدالله ابن احمد الخليدي في كتابه : " شرح اعتقاد أهل السنة " لأبي على الحسين ابن أحد الطبري ، وهذا لعله ممن أدرك احمد وغيره ، قال الخليدي في معرفة الله : وهي أول افرض الذي لا يسع المسلم جهله ، ولا تنفعه الطاعة - وان أتى بجميع طاعة اهل الدنيا - ما لم تكن معه معرفة وتقوى ، فالمسلم اذا نظر في مخلوقات الله تعالى ، وما خلق من عجائبه ، مثل دوران الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وتفكر في نفسه ، وفي مبدئه ومنتهاه فتزيد معرفته بذلك ، قال تعالى : ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون))(٣) .

ثم يقول : " وقال شيخ الاسلام الانصاري : في أول " اعتقاد اهل السنة وما وقع عليه اجماع اهل الحق من الأمة " : أول ما يجب على العبد معرفة الله ،

---

(١) حافظ بن محمد حكمي ، معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الأصول في التوحيد ٥٣/١ .

(٢) ابن قيم الجوزيه - اغاثة اللهفان ١٥٨/٢ .

(٣) الآية ٢١ من سورة الذاريات

لحديث معاذ لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : **(انك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعووهم اليه عبادة الله ، فاذا عرفوا الله - سبحانه - فأخبرهم ان افترض عليهم)** الحديث رواه مسلم هكذا ، ورواه البخاري .

قال : فاعلم ان معرفة الله والايمان به انما يجب ويسمع ، ويلزم بالبلاغ ويحصل بالتعريف .

ثم قال بعد ذلك : قلت : قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قيل له : بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس ، لم يزل دهره في التباس ، ضاعنا في الاعوجاج ، زائغا عن المنهاج اعرفه بما عرف نفسه ، وأصفه بما وصف به نفسه "[1] أهـ .

ومعرفة الله التي سلف ذكرها المقصود بها توحيده سبحانه وتعالى أول ما يجب على العبدكما علم من الأدلة السابقة .

ولا شك أن هذه الفطرة مستقرة في النفوس وما يطرأ عليها مما يحدثه شياطين الجن والانس هو الذي يزيع بها عن جادة الحق ، ومهما بلغ الانسان في الطغيان والكفر والعناد تبقى هذه الفطرة لا يستطيع القضاء عليها مهما كابر في ذلك ، وتظل دلائلها تظهر وهو يشعر او لا يشعر ، كما قال تعالى :
((وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف عاقبة المفسدين))[2]
وفرعون أعظم طاغية في البشر أنكر وجود الله ، ودعا الناس الى عبادته ، وهدد

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ٢/٢ ، ٣ ، الحاشية .
(٢) الآية ١٤ من سورة النمل .

موسى عليه السلام ان اتخذ الـهـا غيره ، قال له موسى عليه السلام كما قص اللـــه تعالى : ((قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ، وانـــي لأظنك يا فرعون مثبورا))[1].

ثم قال وهو في احضان الموج وقد أدركه الغرق : ((آمنت أنه لا الــــه إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين))[2].

والفطرة هي الاسلام ، فطر الله عليه عباده ، وارسل الرسل عليهم الصـــلاة والسلام وأنزل الكتب لازالة ما ران عليها من الباطل وتقويم ما اعوج ، وحمايتهـــا من كل فساد وانحراف ، اذ الانحراف طارىء على الناس ، حين تفسد فطرتهـــــم التي فطرهم الله عليها[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كل مولود يولد على الفطـــرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هـــل تحسون فيها من جدعاء ؟)[4].

ثم يقول ابو هريرة : اقرءوا ان شئتم : ((فطرة الله التي فطر النـــــاس عليها لا تبديل لخلق الله))[5]

وتفسير الفطرة بالاسلام هو المعروف عند عامة السلف رضي الله عنهـــم ،

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس .
(٣) انظر : اغاثة اللهفان لابن قيم الجوزيه ١٠٦/١ ، ١٠٧ ، ومنهج القرآن في الدعوة الى الايمان للدكتور على بن محمد ناصر فقيهي ص ٣٩ وما بعدها .
(٤) البخاري بشرحه ٢١٩/٣ .
(٥) الآية ٣٠ من سورة الروم .

لما تقدم وغيره من الأدلة الكثيرة على ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ابو هريرة : " الفطرة الاسلام " ، وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وأحمد وابن عبدالبر وغيرهم .(١)

ومع وضوح هذه الأدلة من الكتاب والسنة ، وما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم باحسان خلف من بعدهم خلف منهم من اعرض عن نصوص الكتاب والسنة وحكم عقله ، ومنهم من علمها وأولها تأويلا باطلا ناتجا عن الفهم المعوج المخالف لفهم سلف هذه الأمة .

ونتيجة لذلك فقد اختلفت اقوالهم وآراؤهم في أول واجب على المكلف اختلافا كبيرا ، واطالوا الكلام فيه .

فمنهم من قال : أول واجب على المكلف المعرفة .

ومنهم من قال أول واجب النظر .

ومنهم من قال : القصد الى النظر .

ومنهم من حاول الجمع بين ذلك فقال : أول واجب خطابا ومقصودا : المعرفة ، وأول واجب اشتغالا واداءاً : القصد الى النظر .

واشهر من اختلف في هذه المسألة : الاشاعرة والمعتزلة ، وأصلها من المعتزلة كما نقل عن أبي جعفر السمناني - وهو من كبار الأشعارة - قوله :

---

(١) انظر : مجموعة الرسال الكبرى ، لابن تيمية ٢/٣٣٣ .

ان هذه المسألة بقيت في مقالة الاشعري من مسائل المعتزلة ، وقد خاض في هـذه المسألة خلق كثير ، وفرعوا عليها بعض المسائل ، واطالوا في الكلام عنهـا ، وخرج بعضهم عن الصواب فقال : أول واجب على العبد الشك والعياذ بالله .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح :

" وافضى الكلام بكثير من أهله الى الشك ، وببعضهم الى الالحـاد ، وببعضهم الى التهاون بوظائف العبادات ، وسبب ذلك اعراضهم عن نصوص الشـارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره ، وليس في قوة العقـل ما يدرك ما فـي نصوص الشارع من الحكـم التي استأثر بها ، وقد رجع كثيـر من أئمتهم عـن طريقهم حتى جاء عن امام الحرمين انه قال : " ركبت البحـر الأعظـم وغصـت في كل شيء نهى عنه أهـل العلـم في طلب الحـق فرا ا من التقليـد ، والآن فقد رجعت واعتقـدت مذهب السلف " ... هذا كلامه أومعناه وعنه أنـه قال عند موته : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت انه يبلـغ بـي ما بلغت ما تشاغلت به ... الى أن قال القرطبي : ولم لم يكن في الكـلام الا مسألتان هما من مبادئـه لكان حقيقا بالذم :

احداهما :

قول بعضهم : ان أول واجب الشك ، اذ هو اللازم عن وجوب النظـر ، أو القصد الى النظر ، واليه اشار الامام بقوله : ركبت البحر .

ثانيهما :

قول جماعة منهم : ان من لم يعرف الله بالطرق التى رتبوها ، والابحاث التي حرروها لم يصح ايمانه ، حتى لقد أورد على بعضهم ان هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك ، وجيرانك ، فقال : لا تشنع على بكثرة اهل النار ، وقد رد بعض من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الردالنظري وهو خطأ منه ، فان القائل بالمسألتين كافر شرعا ، لجعله الشك في الله واجبا ، ومعظم المسلمين كفار حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة والا فلا يوجد في الشرعيات ضروري ، .

وختم القرطبي كلامه بالاعتذار عن اطالة النفس في هذا الموضع لما شاع بين الناس من هذه البدعة ، حتى اغتر بها كثير من الاغمار ، فوجب بذل النصيحة والله يهدي من يشاء "[1]

والحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة - كما سلف -

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٥٠ .

ان أول واجب على المكلف التوحيد ومفتاحه شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وهو الذي فهمه سلف الأمة رضوان الله عليهم باحسان الذين رزقهم الله الفهم الصحيح والفقه في الدين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز في تعليقه على كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري :

" الصواب ما ذكره المحققون من أهل العلم أن أول واجب هو شهادة الا اله الا الله علما وعملا ، وهي أول شيء دعا اليه الرسل ، وسيدهم وامامهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أول شيء دعا اليه ان قال لقومه : قولوا : لا اله الا الله تفلحوا .

ولما بعث معاذا الى اليمن قال له : فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة ان لا اله الا الله .

ولأن التوحيد شرط لصحة جميع العبادات كما يدل عليه قوله تعالى: ((ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون))[1] "

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ١/٧٠ .

الفصل الثالث

أنواع التوحيد ..

المبحث الأول: توحيد الربوبية .

المبحث الثاني: توحيد الألوهية .

المبحث الثالث: توحيد الأسماء والصفات .

المبحث الرابع: منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى التوحيد ..

" أنواع التوحيد "

التوحيد ثلاثة أنواع :

توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

وهذه الأنواع الثلاثة ترجع الى قسمين هما :

أولا : توحيد المعرفة والاثبات ، وهو التوحيد العلمي الخبري : وهو معرفة الله واسمائه وصفاته ، وهذا يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

ثانيا : توحيد القصد والطلب وهو التوحيد الطلبي الارادي : ويتضمن توحيد الألوهية .

وفيما يلي نبذة عن أصل هذا التقسيم ثم تعريف بكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد :

أصل هذا التقسيم :

هذا التقسيم للتوحيد ليس أمرا مستحدثا اخترعه بعض العلماء من عند أنفسهم ، وانما هو تقسيم يدل عليه القرآن الكريم نفسه ، فمن يتدبر آياته يجد ذلك واضحا جليا من أول سورة من سوره وهي أم الكتاب ، التي ما نزل في الكتب السماوية اعظم منها ، فانها وحدها تتضمن هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد ، وهي في الوقت نفسه تتضمن القرآن الكريم كله ، فقد اشتملت على الأخبار عن الله تعالى واسمائه وصفاته ، والدعوة الى اخلاص العبادة له سبحانه ، وهذه هي أنواع التوحيد .

والقرآن كله اشتمل على هذه الأنواع وبينها في اكثر من سورة ، بل القرآن

توحيد كله ، فهو اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ، وهذا هو التوحيد العلمي الخبري الذي يتضمن توحيد الربوبية والاسماء والصفات ، واما دعوة الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والامر بصرف العباده له دون ما سواه ، وهذا هو التوحيد الطلبي الارادي الذي يتضمن توحيد الالوهية والعبودية ، أو بيان حقوق التوحيد ، واكرام أهله وثوابهم ، وأخبار الشرك وأهله وبيان جزائهم وعقابهم .

ومن العلماء من كتب في ذلك واستنبطه وبينه ونص على هذه الأنواع ، ومنهم ابو جعفر الطحاوي المتوفي سنة ٣٢١ هـ الذي بين عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الامام ابي حنيفة وصاحبيه ، أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني فقال : " نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : ان الله واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ، ولا اله غيره "(١) .

وهذا الذي ذكره يشمل انواع التوحيد الثلاثة فقوله " لا شيء مثله " : أي في اسمائه وصفاته .

وقوله : " ولا شيء يعجزه " : أي في ربوبيته ، وهذا توحيد المعرفة والاثبات .

وقوله : " ولا اله غيره " : أي في الوهيته ، وهذا هو توحيد القصد والطلب .

ومنهم الامام الحافظ أبو عبدالله محمد بن اسحاق بن محمد بن يحيي ابن منده ـ رحمه الله تعالى ـ المتوفي سنة ٣٩٥ هـ في كتابه : " التوحيد ومعرفة اسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد " ، حيث قسم التوحيد

---

(١) ابو جعفر الطحاوي ، العقيدة الطحاوية ١٧ ـ ١٩ .

الى أربعة أقسام : توحيد الربوبية ، توحيد الألوهية ، وهو تحقيق شهادة ان لا إله الا الله ، وتوحيد اسماء الله الحسنى ، وتوحيد الصفات ، فجعل اسماء الله الحسنى قسما ، والصفات قسما آخر .

ثم شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي رحمه الله المتوفي سنة ٧٤٦ هـ ، يقول في شرح الطحاوية : " ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى ، وصفاته وأفعاله ، واسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك ، ثم قال : والثاني : توحيد الطلب والقصد "[٢] .

وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزيه ، وقد بينا ذلك في غالب كتبهما اتم بيان وفصلا الكلام عنه ، وكل ما يتعلق به ، وصارت كتبهما مرجع كل مطلع وباحث في ذلك .

وممن قسم التوحيد الى الاقسام الثلاثة الشيخ ملا على بن سلطان القاري الحنفي المتوفي سنة ١٠١٤ هـ اذ يقول في شرحه الفقه الأكبر للامام أبي حنيفة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٨ .

رحمه الله : " أقول : فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين ، يشير الى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية " .

ثم يقول بعد ذلك : " بل غالب سور القرآن متضمنه لنوعي التوحيد ، بل القرآن كله من أوله الى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما ، فان القرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري ، واما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الارادي الطلبي ، واما أمر ونهي والزام بطاعة فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، واما خبر عن اكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في العقبى فهو جزاء توحيده ، واما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والاغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله في التوحيد وحقوق أهله وثوابهم ، وفي شأن ذم الشرك وعقوق أهله وجزائهم "[١] .

ثم من بعده ممن قسم التوحيد الى هذه الأقسام كل العلماء الذين نهجوا منهج سلف هذه الأمة ومن اشهرهم شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله مجدد القرن الثاني عشر الذي بين ذلك ودعا اليه وجاهد في سبيله ومن بعده أولاده ، واحفاده رحمهم الله .

ومنهم العلامة محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني المتوفي سنة ١١٨٢ هـ رحمه الله تعالى[٢] ، والعلامة محمد بن على الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥ هـ

---

(١) ملا على بن سلطان محمد القاري الحنفي ، شرح الفقه الأكبر ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) انظر رسالة تطهير الاعتقاد لمحمد بن اسماعيل الصنعاني ص ٢٧٠ مجموعة الرسالة الكمالية رقم ١٣ .

رحمه الله تعالى [١] ، وغيرهم كثير من علماء السلف قديما وحديثا .

المبحث الأول : توحيد الربوبية :

ومعناه : الاعتقاد بأن الله تعالى هو الرب المتفرد بالخلق والرزق ، وأنه المالك المدبر الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو توحيد الله تعالى بأفعاله [٢] .

وهذا النوع من انواع التوحيد قد أقر به الكفار ، وشهد لهم القرآن بذلك ، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئا فلم يخرجهم من الكفر ولم يدخلهم في الاسلام .

قال تعالى : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون))[٣] .

وقال : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))[٤] .

وقال : ((قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون))[٥] .

---

(١) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد للشوكاني ٢٣٢ مجموعة الرسائل الكمالية رقم (٣) .

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٣٣ ، ودعوة التوحيد للهراس ص ٣٢ .

(٣) الآية ٧٩ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٦١ من سورة الزخرف .

(٥) الآية ٣١ من سورة يونس .

وقال : ((قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل افلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل افلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأني تسحرون))[1] .

والآيات في هذا كثيرة كلها تدل على اقرار الكفار واعترافهم بربوبية الله تعالى ، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئا اذ لم يعترفوا بألوهيته ويخلصوا له العباده سبحانه .

طريقة القرآن الكريم في اثبات الربوبية لله تعالى :

القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وناسخها ، فكان لابد لأن يأتي مشتملا على الحجج والبراهين الواضحة والأدلة القواطع التي تدعو الى الايمان بالله وربوبيته والوهيته لخلقه ، وتقطع في الوقت نفسه شبه المعاندين وتحريف المنحرفين وزيغ الزائفين في كل زمان ومكان كما قال سبحانه : ((ما فرطنا في الكتاب من شيء)) .

وكما قال سبحانه : ((قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا))[2] .

وكما قال سبحانه : ((ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا))[3]

---

(١) الآيات من ٨٤ - ٨٩ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ٨٨ من سورة الاسراء .
(٣) الآية ٣٣ من سورة الفرقان .

فلو ظهر الالحاد يوما في أي صورة وتحت أي شعار وجد في أدلة القرآن القاطعة وحججه الدامغة ما يكشف زيفه ويفضح باطله ويدحض حجته ، ليأخذ بأيدي الناس الى الحق المبين الذي يصلهم برب العالمين .

وأدلة القرآن الكريم في بيان ربوبية الله تعالى لخلقه كثيرة :

منها :

١) دليل الفطره :

وهذا أمر داخل الانسان نفسه مستقر في قلبه ، فهو مفطور على الاقرار بأن له خالقا ، وهذا هو الاصل الذي فطر عليه البشر ، وما يحصل من ضلال أو انحراف أمر طارئ على هذه الفطرة السليمة .

قال تعالى : ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون))[١] .

فهذه شهادة أخذها الله على بني آدم وهم في عالم الذر انه تعالى ربهم وخالقهم[٢] ، فاستقرت معرفته فطرة في قلوب البشر ، وان دنسها أو حجبها الباطل يوما ما ، فانها تظهر وتتجلى ويزول عنها هذا الحجاب والغشاوة

---

(١) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .
(٢) انظر : كتاب الدين الخالص لصديق حسين خان ٣٩١/١ .

إما اجابةً لداعي الايمان ، أو تحت ضغط شدة ومصيبة ، كما قال تعالى : ((حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذا لنكونن من الشاكرين))(١) .

وقوله تعالى : ((قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون))(٢) .

وقوله تعالى : ((واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور))(٣) .

وقوله تعالى : ((ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون))(٤) .

فالفطرة هي الأصل في البشر ، والانحراف والضلال طارىء عليها بشهادة القرآن كما سبق ، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود يولد الا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه)(٥) ولم يقل يسلمانه لأن الاسلام موافق للفطرة .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٦٣ ، ٦٤ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٢ من سورة لقمان .
(٤) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .
(٥) البخاري بشرحه ٢١٩/٣ ..

ومنها حديث عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فكان مما جاء في خطبته : (إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا ، كل مال نحلته (منحته) عبدا حلال ، واني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم انزل به سلطانا)[(١)] .

بل ان توحيد الله تعالى أمرفطري كذلك ، قال تعالى : ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))[(٢)] .

ولهذا كان قول الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم : ((أفي الله شك فاطر السموات والأرض))[(٣)] ، وتجد اسلوب القرآن في آيات المعرفة الفطرية اسلوب التذكير بهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي لأجلها أشهدهم على أنفسهم في الأزل ، وشهدوا بذلك[(٤)] .

---

(١) صحيح مسلم مع شرحه ١٩٧/١٧ .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٣) الآية ١٠ من سورة ابراهيم .

(٤) انظر : كتاب التوحيد مع اخلاص العمل لوجه الله عز وجل لابن تيمية تحقيق د. محمد السيد الجليند ص ٤٢ ـ ٥٣ ، ودلائل التوحيد لجمال الدين القاسمي ص ٢٢ ـ ٣٨ ، والعقيدة في الله للدكتور عمر الاشقر ص ٦٥ ـ ٦٦ .

٢) دليل الخلق والتدبيـــر :

تناول القرآن الكريم قضية الخلق والتدبير تناولا فريدا ، وعني بتوجيـــــه العقول الى النظر في آفاق الكون وآيات الله الكثيرة ، وأهاب بالعقل أن يستيقـــظ من سباته ليتفكر في ملكوت السموات والأرض ، وما أودع فيهما من الآيات، ويكـــرر القرآن ذلك في أساليب متنوعة ليرى هذا الانسان ويسمع في افاق الكون ما يقـــوده الى الايمان بخالقه سبحانه وتعالى ويعلم أن هذا الكون لم يكن وليد الصدفة كمـــا يزعم الملحدون الجاحدون ، بل هو صنع الله الخالق المدبر ، المستحق للعبـــــاده وحده لا شريك له .

فواعجبا كيف يعصى الالـــــــه أم كيف يجحده الجاحـــــــد
وفي كل شيء له آيـــــــــة تدل على أنه واحـــــــــــد[1]

وقد تحدث القرآن الكريم عن قضية الخلق في أغلب سوره عن خلق الانســـان وخلق السموات والأرض والجبال والأنعام وغير ذلك من الآيات وبين ما فيها مــــــن عجائب وحكم وأحكام ودقة نظام ، وهي آيات كثيرة يضيق المقام عن حصرها والاحاطة بها .

ومن هذه الآيات قوله تعالى عن خلق الانسان : ((فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب))[2] .

وقوله : ((يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم مـــن

---

(١) انظر : كتاب التوحيد واخلاص العمل لوجه الله عز وجل لابن تيميــــة ، ت : محمد السيد الجلينـــــد ص٥٤ ، وكتاب الايمان في القرآن للدكتور / مصطفى عبدالواحد ص ١٦ - ١٨ .

(٢) الآيات من ٥ - ٧ من سورة الطارق .

تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقــر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ، ومنكــم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا))(١) .

وقوله سبحانه : ((ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلنــاه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغــة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين))(٢)

ودعا سبحانه الى التفكير في الخلق المتقن المتناسق فقال : ((وفــي أنفسكم أفلا تبصرون))(٣) .

وقال : ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انــه الحق))(٤) .

وقال : ((يخلقكم في بطون امهاتكم من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفون))(٥) .

ومنها قوله تعالى عن خلق السموات والأرض : ((ان في خلق السمــوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قيامـــا

---

(١) الآية ٥ من سورة الحج .
(٢) الآيات من ١٢ ـ ١٤ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٢١ من سورة الذاريات .
(٤) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦ من سورة الزمر .

وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فيخلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))[(١)] .

وقوله تعالى : ((ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكما من أحد من بعده ، انه كان حليما غفورا))[(٢)] .

وقوله سبحانه : ((أأنتم خلقاء أم السماء بناها رفع سمكها وسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءهاومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم))[(٣)] .

وقوله تعالى : ((لخلق السموات والأرض اكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون))[(٤)] .

وقوله تعالى : ((والهاكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))[(٥)]

وهذه قد جمعت مع خلق السموات والأرض آيات أخرى من آيات الله تعالى التي يراها البشر ويحسونها تتجلى فيها عظمة خالقها سبحانه ، وآيات كثيرة

---

(١) الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤١ من سورة فاطر .
(٣) الآيات من ٢٧ ـ ٣٣ من سورة النازعات .
(٤) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٥) الآيتان ١٦٣ ، ١٦٤ من سورة البقرة .

تجمع عددا كبيرا من آيات الله تعالى ويعرضها القرآن للناس دلائل على الخالق سبحانه وعظمته وتدبيره وعنايته وأنه خالق كل شيء ومالكه وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

ومن هذه الآيات قوله تعالى : ((وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون))[(١)] .

ومنها قوله تعالى : ((هو الذي انزل من السماء ماءا لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم))[(٢)] .

فبعد أن ذكر بعض آياته ونعمه بالتخصيص ذكرهم بأنه هو خالقها وخالقهم وخالق كل شيء وغيره ليس له شيء من ذلك ، ثم ذكر عموم نعمته عليهم

---

(١) الآيات ٣٧ ـ ٤٠ من سورة يس .
(٢) الآيات من ١٠ ـ ١٨ من سورة النحل .

وعجزهم عن الاحاطة بها ، ثم قال بعد ذلك : ((والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون آيان يبعثون ، الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون))[١] .

والآيات في هذا كثيرة جدا ومعظم السور المكية مليئة من هذه الآيات لمن تدبرها ، كلها تبين آياته سبحانه ومخلوقاته وعظيم نعمته بذلك ، وتدعوهم الى التفكر في ذلك والتدبر ، وان هذه المخلوقات والآيات العظيمة لها خالق مدبر عظيم ، وان غيره لا يملك من ذلك شيئا فكلهم مربوبون مخلوقون ، وانه سبحانه هو المستحق للعباده سبحانه دون ما سواه ، وقد أمر الله الناس بالنظر في هذا الملكوت الكبير وما فيه من الآيات العظيمة ، أمرهم بذلك في آيات كثيرة من كتابه الكريم ، وذم من لم ينظر في ذلك ويتفكر ليقوده ذلك الى معرفة ربه الخالق المدبر ليعلم انه المستحق للعباده وحده .

ومن هذه الآيات قوله تعالى : ((قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون))[٢] .

وقوله : ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الأخرة ، ان الله على كل شيء قدير))[٣] .

وقوله : ((أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون))[٤] .

---

(١) الايات من ٢٠ ـ ٢٢ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٠١ من سورة يونس .
(٣) الآية ٢٠ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

وقوله : ((أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج))(١)

المنكرون لربوبية الله تعالى :

سبق الكلام على أن معرفة الله تعالى والاقرار به أمر فطري ، وان الله قد أخذ الميثاق على عباده وهم في الأزل وهم في عالم الذر أنه ربهم فشهدوا بذلك على أنفسهم كما قال تعالى : ((واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون))(٢) .

وأقر الكفار بربوبية الله تعالى وشهد الله لهم بذلك ، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئا حيث اشركوا في ألوهيته واتخذوا شركاء وآلهة من دون الله زعموا انها تشفع لهم عند الله .

ومع هذا فقد وجد في البشر من أنكر ربوبية الله وجحدها ، ونسبها الى نفسه أو اعتقدها في غيره ، وقائد هؤلاء جميعا فرعون موسى الذي ادعى الربوبية لنفسه وأرغم قومه على الاعتراف بها وأعلن ذلك فيهم كما قال الله حكاية عنه :

---

(١) الآيات ٦ - ١١ من سورة ق .
(٢) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .

((وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري))[(١)] .

وقال : ((فقال انا ربكم الأعلى))[(٢)] .

وقال موجها الخطاب الى رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام حين دعاه الى عبادة الله وحده : ((لئن اتخذت الـها غيري لأجعلنك من المسجونين))[(٣)] .

وبلغ به الفساد والمكابرة الى أن قال كما حكى الله عنه : ((وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب ، اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لأظنه كاذبا))[(٤)] ، ((فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي اطلع الى اله موسى ، واني لأظنه من الكاذبين))[(٥)] .

ومثله ذلك الذي حاج ابراهيم عليه السلام في ربه وناظره ابراهيم عليه السلام فافحمه ، كما قال تعالى : ((ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين))[(٦)] .

وكذلك الرسل احتجت بالمعجزات على اشد الخلق عنادا ، وكان هذا الذي أفحم به ابراهيم عليه السلام خصمه الكافر الذي زعم أنه يحيي ويميت ، فقال

---

(١) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٢) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الشعراء .
(٤) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر .
(٥) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٦) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

ابراهيم : ((ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الـــذي كفر))[١] ، وهو الذي احتج به موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون ، وسماه موسى شيئا بينا كما جـــــاء في سورة الشعراء حيث قال فرعون : ((لئن اتخذت الـهـا غيري لأجعلنك من المسجونين))فقال موسى عليه الصلاة والسلام : ((أولوجئتك بشيء مبين ..)) الآية[٢]

ومن هؤلاء المنكرين الجاحدين لربوبية الله تعالى : الدهريون : الذيـــن يزعمون أن العالم يسير بنفسه ، وهم الذين قال الله عنهم : ((وقالوا ما هـــي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، ما لهم بذلك من علـــم ان هم الا يظنون))[٣] .

فكذبهم الله تعالى في زعمهم هذا ، وبين انهم لا علم لهم بذلـــك ، وان مصدرهم في ذلك الظن ، وغاية حجة هؤلاء حين يدعون الى الحق ، ويسمعـــون آيات الله غاية حجتهم طلب اخراج آبائهم واعادتهم ، ورد الله عليهم في الآيـــة التي بعد الآية السابقة فقال تعالى : ((واذ تتلى عليهم آياتنا بينات ما كـــان حجتهم الا أن قالوا أإتوا بآبائنا ان كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكـــم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون))[٤] ، وهؤلاء الملحدون منهم ، فوصفهم ـ سبحانه ـ بعدم العلم مرة أخرى .

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) ابو عبدالله بن الوزير ، ترجيح اساليب القرآن على الساليب اليونـــــان ص ٩٢ .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الجاثية .

(٤) الآيتان ٢٥ ـ ٢٦ من سورة الجاثية .

والعجب من هؤلاء كيف يغالطون انفسهم ، ويكابرون ويجحدون فطرهم التي تقر بوجود الله تعالى ، وأنه خالقهم وربهم ، فينكرون ذلك وينسبونه الى غيره كفرا والحادا .

فصورة هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد ، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم ولا قصد ولا شيء من الشعور الارادي ، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير ، واشد مكابرة للعقول لم يهتد المصور الى تعبير شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني ، وهذا جزاء من جاءه الحق فرده ، ((**ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**))[(١)] .[(٢)]

ومنهم : الثنويه[(٣)] : من المجوس الذين يجعلون للعالم خالقين ، خالقا للخير وهو النور ، وخالقا للشر وهو الظلمة .[(٤)]

وكذلك : النصارى : القائلون بالتثليث ، فيجعلون الآلهة ثلاثة : الأب ، والابن ، والروح القدس .

" ولما وجد في الناس من ينازع في توحيد الربوبية ، ويجعل لغير الله عز وجل شيئا من الشركة معه في الخلق والتدبير ، لم يهمل القرآن الكريم الاحتجاج

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي - الأدلة القواطع والبراهين في ابطال اصول الملحدين ص ٦٣ - ٦٤ .
(٣) الثنويه : هم اصحاب الاثنين الأزليين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . انظر الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/٨٠ .
(٤) انظر : الفتاوى لابن تيمية ٣/٩٧ .

له ، بل قرره ابدع تقرير في سورة المؤمنون ((ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)) .

يقول شارح الطحاوية عن هذه الآية : فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية .[١]

ولكن هؤلاء المنكرين الجاحدين لربوبية الله جميعا وان انكروا ذلك وجحدوه فان الحقيقة التي ينبغي ان تعرف انهم في انفسهم يقرون بأن الله خالقهم وان انكروا ذلك في الظاهر ، فهم كما قال الله : ((وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف عاقبة المفسدين))[٢] .

وأول هؤلاء فرعون ، الذي كشف له موسى عن حقيقته التي يخفيها ويتنكر لها ، فقال له موسى كما حكى الله عنه : ((لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ، واني لأظنك يا فرعون مثبورا))[٣] .

وكذلك موسى يجيبه في مناظرته له وتجاهله لخالقه وربه تجاهل العارف ، قال الله تعالى : ((قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم مؤمنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب

---

(١) محمد خليل الهراس ، دعوة التوحيد ص ٣٣ ـ ٣٥ .
(٢) الآية ١٤ من سورة النمل .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .

وما بينهما ان كنتم تعقلون)) ، ولما واجهه موسى بهذه الحجج والحقائق الدامغة التي لا يستطيع فرعون المغالطة فيها كانت اجابته لا تعدوا الاستهتار والمكابرة ولما ظهر عجزه اطلق سلاح الجبابرة المعروف ، وهو التهديد فقال : ((لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين))[(١)] ، فكان فرعون يعلم ويتيقن ان الله ربه وخالقه ولكن كبره وعناده وغروره وتزبين الملأ من حوله الذين كان يوجه القول اليهم حين يسأله موسى ، كل ذلك ابى عليه الا أن يتمادى في طغيانه وضلاله واضلاله قومه ((فاستخف قومه فاطاعوه ، انهم كانوا قوما فاسقين))[(٢)] .

ولقد افصح فرعون عن هذه الحقيقة التي كان يجحدها ، افصح عنها في غير وقتها ، حين عاين الموت ، وايقن بالهلاك كما قال الله عنه : ((فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا أول المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين))[(٣)] .

ومثل فرعون كل الملاحدة والدهريين ، فهم في قرارة انفسهم يعترفون بأن الله ربهم وخالقهم ، ولكنهم يغالطون ويكابرون هذه الحقيقة ، فمعرفة الله تعالى مستقرة في الفطر ، ولم يعرف عن أحد من الطوائف انه قال : ان للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال ، والثنوية من المجوس ، والنصارى القائلون بالتثليث مع ما قالوه من الكفر لم يقولوا بالتساوي بين الآلهة ، فالمجوس لا يسوون بين

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الزخرف .
(٣) الآيتان ٩٠ ، ٩١ من سورة يونس .

النور والظلمة ، فالنور هو الأصل عندهم وهو الذي سيغلب في النهاية ، والنصارى لا يقولون بتساوي الأقانيم الثلاثة ، بل متفقون على ان صانع العالم واحد ، ويقولون : باسم الابن والأب وروح القدس اله واحد .[١]

والقرآن قد بين اتم بيان وأقطع حجة أن الله تعالى هو وحده الخالق المالك المدبر رب كل شيء ومليكه كما سبق ذكره في الآية السابقة وهي قوله تعالى : ((ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بماخلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يصفون))[٢] .

وقوله تعالى : ((أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون))[٣] .

وبهذه الطريقة البينة الواضحة المستقيمة ، بين القرآن ربوبية الله تعالى للناس ، ودعاهم الى ربهم وخالقهم ليعبدوه وحده لا شريك له بأوضح اسلوب وأسهل طريق .

أما ما سلكه كثير من المتكلمين من مسالك عقلية لاثبات الربوبية ، كالاستدلال على وجود الله تعالى عن طريق الجواهر والاعراض ، الى آخر ما يقولون في ذلك من أمور يصعب فهما حتى على المتخصص فضلا عن الجمهور ، مع ما عليها من اعتراضات وما فيها من اختلاف .

---

(١) انظر : شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٨٠ ، ومدارج السالكين لابن قيم الجوزيه ٦٢/١ ، ودعوة التوحيد لخليل الهراس ص ٣٣ .
(٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الأنبياء .

وكذا ما سلكه الفلاسفة في هذا الباب من تقسيم الموجود الى ممكن الوجود ، وواجب الوجود ، وما لهم من كلام حول ذلك ليس هذا مكان استقصائه ويجعلونه دليلا على وجود الله تعالى ، ويسمونه علم ما بعد الطبيعة ، وامامهم في ذلك ارسطو ، الذي يلقبونه المعلم الأول ، وتبعهم في بعض ذلك بعض الفلاسفة المنتسبين الى الاسلام كابن سينا وغيره ، وخلطوا في ذلك بين ما سلكه المتكلمون وما سلكه الفلاسفة .(١)

وكلا المسلكين انحراف عن الصراط المستقيم ، ينتهي بأهله الى الشك والشطح والانحراف .

والطريقة الشرعية تتضمن الخبر بالحق والتعريف بالطرق الموصلة اليه النافعة للخلق .

وأما الكلام على كل ما يخطر ببال كل أحد من الناس من الشبهات السوفسطائية فهذا لا يمكن أن يبينه خطاب على وجه التفصيل ، والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها ، وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها فترى الحق باطلا ، كالبدن اذا فسد أو مرض فانه يجد الحلو مرا ، ويرى الواحد اثنين ، فهذا يعالج بما يزيل مرضه .

والقرآن فيه شفاء لما في الصدور من الأمراض ، والنبي صلى الله عليه وسلم علم ان وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس ، وانه معلوم الفساد بالضرورة ، فأمر عند وروده بالاستعاذة بالله منه ، والانتهاء عنه كما في

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٣٥/٨ ، والفتاوى ٤٩/١ .

الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله) .

وفي لفظ آخر : (يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ من خلق الأرض ؟ فيقول الله ،ثم ذكر بمثله ، وزاد ورسله) .

وفي لفظ آخريقول : (من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فاذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته ،) (١) هذا لفظ البخاري أو نحوه. (٢)
ثم ذكر أحاديث أخرى في هذا المعنى .

ومع وضوح الأدلة على وجود الله تعالى ، ومنهج القرآن المتميز في ذلك واليسير فهمه لكل أحد ، واستقرار معرفة الله تعالى في الفطر ، واقرار الكفار بأن الله خالقهم وشهادة الله لهم بذلك ، مع عدم انتفاعهم بذلك لاشراكهم في الالوهية فهم مشركون كافرون وان اقروا بأن الله خالقهم ، وامامهم ابليس لعنه الله يقر بروبية الله له وهو امام الكافرين ، مع هذا كله فان بعض الطوائف من المتكلمين المتصوفة يجعلون توحيد الربوبية غاية مطلبهم ونهاية مقصودهم .

"واذا تبين ان غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الاثبات للقدر المنتسبون الى السنة انما هو توحيد الربوبية ، وأن الله رب كل شيء ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع انهم مشركون ، وكذا طوائف من اهل التصوف ، والمنتسبين

---

(١) البخاري بشرحه ٣٣٦/٦ ، ومسلم بشرحه ١٥٣/٢ ، ١٥٤ .
(٢) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٣٠٦/٣ - ٣٠٧ .

الى المعرفة ، والتحقيق والتوحيد ، غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هـــذا التوحيد ، وان يشهد ان الله رب كل شيء ، ومليكه وخالقه ، لاسيما اذا غـــاب العارف بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهودة ، وبمعروفه عن معرفتــــه ، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، فهـذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها"/.(١)

ومما تقدم من الكلام على توحيد الربوبية يتبين لنا ما يلي :

١) أن ربوبية الله تعالى أمر فطري مستقر في النفوس ، والالحاد والكفـــر طارىء عليها .

٢) طريقة القرآن الكريم في اثبات ربوبية الله تعالى هي الطريقة الأصـــوب والأقرب للافهام ، والموافقة لأصل الفطرة ، وطريقة المتكلمين والفلاسفـــة ومن نحا نحوهم طريقة تثير الشك اكثر مما تدعو الى الايمان .

٣) وجود من يجحد الربوبية لله ويدعيها لنفسه أو ينسبها لغيره ، وجـــاء القرآن بالرد القاطع على هؤلاء وأمثالهم .

٤) جحود المنكرين للربوبية مخالف لما في نفوسهم ، اذ هم في قرارة نفوسهم يعترفون بأن الله خالقهم .

٥) الحق أنه لم يوجد في البشر من يقول بوجود خالقين متماثلين متكافئيـــن في الصفات والأفعال .

٦) المشركون كانوا يقرون بالربوبية لله تعالى والقرآن شهد لهم بذلـــك ، واقرارهم هذا لم ينفعهم . لعدم اقرارهم بالوهية الله عز وجل .

---

(١) ابن تيمية - الفتاوى ١٠١/٣ - ١٠٢ .

٧) بيان القرآن الكريم للربوبية دعوة الى توحيد الالوهية .

٨) خطأ من جعل توحيد الربوبية هو المطلب الأول في التوحيد .

ومما تقدم يتضح أن هذه الشواهد التي سلف ذكرها قد جاءت لترسيخ هـذا النوع من انواع التوحيد ، وحفظه من مزالق الالحاد ، والاستدلال به على توحيـــد الالوهيـة ، التي جاءت الرسل بالدعوة اليه . ولهذا فان حماية توحيد الألوهيــــة وبيانه للناس مطلوب للدعوة الى توحيد الالوهية وحمايته .

#####

#####

#####

المبحث الثاني

توحيـــة الالـوهيـــة

ومعناه : افراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة واخلاصها له وحــــــده لا شريك له ظاهرا وباطنا ، وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد .

ويسمى توحيد العبادة ، لأن الألوهية والعبودية بمعنى واحد ، اذ معنـــى الاله : المعبود ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : " الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين "[(١)] .

مكانته وأهميتـــه :

هذا التوحيد أعظم انواع التوحيد واهمها ، والمتضمن لها جميعـــــا ، ولا يصير العبد مؤمنا الا بتحقيقه ، وهو الذي لأجله خلق الله عباده ، وأنـــزل كتبه ، وبعث انبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ((وما خلقـــت الجن والانس الا ليعبدون))[(٢)] .

وقال : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة))[(٣)] .

وقال : ((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين))[(٤)] .

وهو أول واجب على العبد ، والذي من أجله قامت الخصومة بين الرســـل وأممهم ، اذ هو أول ما دعا اليه انبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فهـــو مفتاح الاسلام ومفتاح الجنة ومفتاح دعوة كل نبي الى قومه ، اذ يقول لهـــم :

---

(١) خليل الهراس ، دعوة التوحيد ص ٣٧ .
(٢) الآية ٥ من سورة البينة (٣) الآية ٣٦ من سورة النحل
(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

((اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)) .

" وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ، وهو معنى قول لا اله الا الله ، فان الاله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية ، والاجلال والتعظيم وجميع انواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة ، وارسلت الرسل ، وانزلت الكتب ، وبه افترق الناس الى مؤمنين وكفار ، وسعداء اهل الجنة ، واشقياء اهل النار ، قال الله تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون))[١] ، فهذا أول أمر القرآن .[٢] "

وهو أول واجب على المكلف ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه الى اليمن : ((انك تأتي قوما من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا اله الا الله - وفي رواية - الى أن يوحدوا الله ، فان هم اطاعوك لذلك فأخبرهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات ... الى آخر الحديث)[٣].

وكما قال عليه الصلاة والسلام : (أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله .. الى آخر الحديث)[٤].

والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة ، كلها تبين أن هذا التوحيد

---

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .
(٢) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٣١ .
(٣) تقدم تخريجه ص١٣٩
(٤) تقدم تخريجه ص١٣٨ .

هو لب الاسلام وحقيقته وأساسه ، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (بني الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله)[(١)] الحديث .

أدلة توحيد الألوهيـة :

الأدلة على هذا النوع من انواع التوحيد كثيرة جدا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من هذا التوحيد.

ومن هذه الأدلة : قوله تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[(٢)] .

وقوله : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله إلا أنا فاعبدون))[(٣)] .

وقوله : ((أتى امر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله إلا انا فاتقون))[(٤)] .

وقوله : ((شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم))[(٥)] .

---

(١) البخاري بشرحه ٤٩/١ . ومسلم بشرحه ١٧٦/١ .
(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الانبياء .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

وقوله : ((واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون))[١]

وقوله : ((ألا لله الدين الخالص))[٢]

وقوله : ((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء))[٣].

وقوله : ((وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون))[٤].

وسورة الكافرون بكاملها .

والآيات في هذا كثيرة ، والأحاديث سبق ذكر بعضها ، وغيرها كثير في الدلالة على هذا النوع العظيم من التوحيد والأمر به ، وبيان تحقيقه والتحذير من مخالفته .

منهج القرآن الكريم في الدعوة الى توحيد الألوهية :

سبق الكلام على أن القرآن كله توحيد ، وتوحيد الألوهية اعظم التوحيد ، بل هو التوحيد كله ، اذ هو متضمن له .

ولهذا جاء القرآن الكريم مبينا لهذا التوحيد ، وآمرا به وداعيا اليه بأساليب متنوعة ومناسبة لمعالجة ما كان عليه الناس وقت نزول القرآن ، وما

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٥ من سورة البينة .
(٤) الآية ٣١ من سورة التوبة .

يأتي بعد ذلك ، من صورة ترجع في كثير من الأحيان الى تلك الصورة الأولى التي كان عليها المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن من فساد في العقيدة وضلال عن الصراط المستقيم ، وانحراف عن العبودية الحقة لله تعالى التي هي اشرف مقام.

" ولما كان توحيد الألوهية هو مناط الايمان بالله ورسوله كان لا بد أن يعنى القرآن بتقريره والبرهنة عليه بالأدلة العقلية والبراهين الصحيحة ، لأن الشرك الذي وقع فيه جميع الأمم ، كان في هذا النوع ، فان عامة مشركي الأمم كانوا مقرين بالصانع ، ويعترفون بتوحيد الربوبية ، ولكنهم مع اقرارهم بربوبيته قد اشركوا بعبادته غيره ، وكان ما عابه مشركوا العرب على محمد " أن جعل الآلهة الها واحدا " ، وقالوا له : " ان هذا لشيء عجاب " .

ولا شك في وجوب الايمان بتوحيد الربوبية الا انه ليس كل الواجب ، وليس هو مناط الايمان والكفر ، ولا مناط التوحيد والشرك ، وليس بمجرد الاقرار به يكون الفرد موحدا ."(١)

واليك أهم الأساليب التي جاء بها القرآن الكريم في الدعوة الى هذا النوع من التوحيد :

منها : بيان آيات ربوبيته سبحانه التي يراها الناس ، ويقرون بها ، وانه سبحانه هو خالقها ، ثم يختمها بالدعوة الى افراده سبحانه بالعبادة ، فكما انه المتفرد بهذا الخلق ، فيجب أن يكون وحده سبحانه المتفرد بالعبادة لا شريك له .

---

(١) ابن تيمية ، كتاب التوحيد مع اخلاص العمل والوجه لله عز وجل ، تحقيق د. محمد السيد الجلنيد ص ٥٨ ، ٥٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناءاً ، وانزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون))[١] .

وقوله : ((قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون))[٢] .

وقوله : ((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأبنتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))[٣]

---

(١) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس .
(٣) الآيات من ٥٩ ـ ٦٤ من سورة النمل .

وقوله تعالى : ((قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولـــون لله ، قل افلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيـــم ، سيقولون لله ، قل افلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون ، بل أتينهم بالحق انهـــم لكاذبون ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذاً لذهب كل الـــه بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيـــب والشهادة فتعالى عما يشركون))[1] .

والآيات في هذا كثيرة جدا ، وأنت ترى أن الله تعالى يبين للناس آيـات ربوبيته ودلائل خلقه التي يعترفون بها ويعلمون أن الله سبحانه هو خالقها وحـده ولكنهم مع ذلك يشركون في الوهيته سبحانه غيره ، فالايات تحتج عليهم بما أقـروا به من توحيد الربوبية ، فان ذلك في الوقت نفسه دليل على توحية الالوهيـــة ، اذ هما متلازمان ، ولا يكفي الاقرار بتوحيد الربوبية وحده ، بل هم كما قال اللـه تعالى : ((وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون))[2] ، فان الله تعالى كمـــا انه الواحد في ربوبيته لا شريك له، فكذلك الواحد في الوهيته لا شريك له ، وهـذا حق الله تعالى على عباده كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلـــى الله عليه وسلم انه قال : (يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد ، وما حـــق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله اعلم ، قال : حق الله على العبـــاد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله ان لا يعذب من لا يشـرك به شيئا ، فقلت : يا رسول الله افلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلـوا)[3]

---

(١) الآيات من ٨٤ ـ ٩٢ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .
(٣) البخاري مع شرحه ٥٨/٦ ، ومسلم بشرحه ٢٣٠/١ .

" وحاجتهم اليه في عبادتهم اياه وتألهم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهـــــم ، وربوبيته اياهم ، فان ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عامليـــــن متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة ، بدون ذلك بحال ، بل مـــن أعرض عن ذكر ربه فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، ولهذا كـــان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا الـــه الا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا اله الا الله رأس الأمر ".(١)

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ٢٣/١ .

ومن اساليب القرآن الكريم في الدعوة الى الألوهية :

بيان عجز الآلهة التي يدعونها من دون الله تعالي :

وانها لا تملك لنفسها كما لا تملك لغيرها نفعا ولا ضرا من دون الله ، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى :

منها : قوله تعالي : ((أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتهم أم انتم صامتون ، ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون))(١) .

وقوله في سورة النمل في موضعين : الأول قوله : ((والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون))(٢) .

والآخر : ((ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون))(٣) .

وقوله : ((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من

---

(١) الآيات من ١٩١ ـ ١٩٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة النمل .
(٣) الآية ٧٣ من سورة النمل .

دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب))[(١)] .

وقوله : ((ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير))[(٢)]

والآيات في هذا كثيرة تبين عجز هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله تعالى وانها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعا ولا ضرا ، بل ان الذين اتخذوها هم انفسهم اكمل وأقدر من آلهتهم التي يعبدونها ، ومنهم من يعرف عجزها وضعفها ، ولكنه مع ذلك قد ارتضى ذلك لنفسه ، ليعيش في حضيض الشرك وحمأة الكفر بدلا من كرم التوحيد وعزة الايمان[(٣)] ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل حصينا والد عمران قبل اسلامه (كم تعبد اليوم من آله ؟ قال سبعة آلهة ، ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال صلى الله عليه وسلم : فمن تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : ألا تسلم فأعلمك كلمات ، فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قل : اللهم الهمني رشدي ، وقني شر نفسي)[(٤)]

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة فاطر .

(٣) انظر كتاب معارج القبول لحافظ حكمي ٣٥٩/١ ـ ٣٦٠ ، وكتاب دعوة التوحيد لخليل الهراس ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٤) اخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ١٢٠ ، والبيهقي في الاسماء والصفات ص ٥٣٤ ، وابن قدامة في اثبات صفة العلو رقم (٦) ص ٧٨ .

ومن اساليب القرآن الكيم في الدعوة الي توحيد الألوهية :

بيان حال عباد هذه الآلهة ، والتنديد بهم ، والتشنيع عليهم ، ووصفهم بالضلال والغي والعمى ، والبعد عن الهدى والرشاد ، فآلهتهم عاجزة قاصرة وقد اتخذوها من دون الله ، فهم قاصروا الأفهام ضالوا العقول ، والا لما عبدوا آلهة هم أكمل منها وأقوى .

ومن ذلك قوله تعالى : ((ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم اعداءا وكانوا بعبادتهم كافرين))[١] .

وقوله : ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون))[٢] .

وقوله : ((واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا))[٣] .

والآيات كثيرة في هذا المعنى تبين قصور افهام من يشرك بالله ويتخذ من دونه آلهة عاجزة وقاصرة ليعبدها من دون الله أو يجعلها واسطة وشافعة تقربه من الله كما كان المشركون يقولون : ((ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى))[٤] .

---

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الاحقاف .
(٢) الآية ٤١ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٣ من سورة الفرقان .
(٤) من الآية ٣ من سورة الزمر .

ومن اساليب القرآن الكريم في الدعوة الى توحيد الألوهية :

بيان ما يقع يوم القيامة من هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض ، وتخليهم عن عابديهم وتنكرهم لاتباعهم ، في حال هم احوج ما يكون الى من يشفع لهم ويدافع عنهم ، ومن ذلك قوله تعالى :

((ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وان الله شديد العذاب ، اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار))(١)

وقوله تعالى : ((ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين))(٢)

ومن اساليب القرآن الكريم في الدعوة الى توحيد الألوهية :

ما جاء في قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم أممهم الى توحيد الله تعالى وافراده وحده بالعبادة ، وكان ذلك مفتاح دعوة كل نبي ورسول منهم ، وما جرى بينهم وبين اقوامهم لأجله من خصومة وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان ، وما كان من ذلة وهلاك لأعداء الله وأعداء

---

(١) الآيتان من ١٦٥ ، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة يونس .

رسله ، ونصر ومنعة وغلبة للرسل واتباعهم ، وتلك سنة الله في خلقه ، وهو الذي يقول بعدما قص دعوة عدد من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام :

((وما هي من الظالمين ببعيد))(١) .

والآيات عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرة جدا نكتفي بمثال واحد لذلك وهو قوله تعالى : ((ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من قبلهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في أفواههم ، وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا : ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد))(٢)

والحديث عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضح أن توحيد الله وافراده بالعباده وحده لا شريك له ، هو المهمة الأولى للرسل عليهم

---

(١) الآية ٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيات من ٩ ـ ١٤ من سورة ابراهيم .

الصلاة والسلام كما قال الله تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين))[١] .

ومما تقدم يتبين أهمية توحيد الألوهية المتضمن لأنواع التوحيد جميعا والمطلوب من الناس كافه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" وانما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، فيكون الدين كله لله لا يخاف الا الله ولا يدعو الا الله ، ويكون الله أحب الى العبد من كل شيء ، فيحبون لله ، ويبغضون لله ، ويعبدون الله ، ويتوكلون عليه ، والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل ، فيحبون الله بأكمل محبة ويذلون أكمل ذل ، ولا يعدلون به ولايجعلون له اندادا ولا يتخذون من دونه أولياء ولا شفعاء كما قد بين القرآن هذا التوحيد في غير موضع ، وهو قطب رحى القرآن الذي يدور عليه القرآن ، وهو يتضمن التوحيد في العلم والقول ، والتوحيد في الادارة والعمل "[٢] .

فتوحيد الربوبية وحده لا يكفي ، والا لما بعث الرسل لأن أممهم كانت مقرة به وانما انحرافهم في جانب توحيد الألوهية ، وإذاً فلا بد مع توحيد الربوبية من توحيد الألوهية المتضمن له ، وتحقيق ذلك بصرف جميع العبادات لله تعالى وحده لا شريك له واخلاصها له سبحانه دون من سواه ، وذلك يشمل جميع العبادات القولية والقلبية والعملية والمالية .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٢) ابن تيمية - منهاج السنة النبوية ٦٢/٢ .

فالعبادات القولية :

هي ما يتعلق باللسان من الدعاء والذكر والاستعاذة والاستعانة والاستغاثة والحلف وغير ذلك ، فلا يصرف شيئا منه لغير الله سبحانه ، وان شابت ذلك شائبة من الشرك فقد أشرك مع الله على قدرما اقترف من ذلك .

والعبادات القلبية :

وهي التي تتعلق بالقلب ، وهي أهم العبادات كلها فهي اساسها وأصلها ، ومن هذه العبادات الحب ، والخوف ، والاخلاص ، والصبر ، والرغبة ، والرهبة ... وغيرها من العبادات المتعلقة بالقلب ، وأدلة ذلك كثيرة ومعروفة من الكتاب والسنة ، تأمر باخلاصها لله وتنهي عن صرفها لأحد غيره .

والعبادات البدنية :

وهي المتعلقة بالجوارح كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك ، فكلها يجب اخلاصها لله تعالى وحده لا شريك له .

والعبادات المالية :

وهي ما يتعلق بأموال العباد ، وما يجب عليهم فيها عبادة لله تعالى وحده لا شريك له كالزكاة والنذر والصدقات المالية والذبح وغير ذلك مما يتعلق بالأموال .(١)

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن اخلاص الدين كله لله تحقيقا لقوله تعالى : ((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا

---

(١) انظر : كتاب مدارج السالكين لابن القيم ١/١٠٠ ـ ١٠٠ ، وكتاب دعوة التوحيد لمحمد خليل هراس ص ٤٧ ـ ٦٩ .

الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة))[١] ، فالصلاة لله وحده ، والصدقة لله وحده ، والصيام لله وحده ، والحج لله وحده والى بيت الله وحده .[٢]

ومما تقدم من الكلام عن هذين النوعين من التوحيد وما جاء فيهما من الأدلة والشواهد يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل ذلك صيانة لهذا التوحيد وترسيخا له في النفوس ، وحفظا له نقيا صافيا بعيدا عن مزالق الشرك والالحاد ، يربط الناس بخالقهم والههم وحده لا شريك له فيخلصوا له العبادة وحده ، وقد بين ذلك رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ودعا اليه وحمى جانبه ، وحذر من كل ما يدنسه أو يشوبه ، وسد كل طريق يؤدي الى الشرك ، ونهى عن كل وسيلة تؤدي اليه وان لم تكن شركا ، كل ذلك حماية لجناب التوحيد الذي هو أول واجب على العبد ، وأول ما دعا اليه الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وامامهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الآية ٥ من سورة البينة .

(٢) ابن تيمية ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اهل الجحيم ٨٣٠/٢ ـ تحقيق د. ناصر بن عبدالكريم العقل .

المبحث الثالث

توحيد الأسماء والصفات

ومعناه : الايمان بما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته من الاسماء الحسنى والصفات العلى ، وانه تعالى موصوف بها على الحقيقة كما يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

فهو توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته .

الأسس التي يقوم عليها توحيد الاسماء والصفات :

من هذا التعريف لهذا النوع من التوحيد يتبين لنا أنه يقوم على ثلاثة أسس :

الأول : ان أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، فلا نثبت لله تعالى أو ننفي عنه الا بدليل من الكتاب أو من السنة ، اذ لا سبيل الى معرفة ذلك الا من هذا الطريق .

الثاني : الايمان بان الله تعالى لا يشبه أحدا من خلقه في اسمائه ولا صفاته كما لا يشبهه أحد من خلقه ، وان سمي أو وصف أحدا من المخلوقين بتلك الاسماء والصفات ، فذلك اشتراك في اللفظ لا يوجب مماثلة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء والصفات ، فأسماء الله تعالى وصفاته على ما يليق به سبحانه وتعالى وما يسمى به من المخلوق أو يوصف من ذلك فعلي ما يليق بالمخلوق نفسه ، فكل على ما يليق به .

واذا علم هذا فلا حاجة الى ما سلكه اهل الكلام من تعسف في تأويل

النصوص وصرفها عن معانيها بحجة تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين .[(١)]

قال تعالى : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))[(٢)].

وهذا الموضع من فهمه فهما جيدا وتدبره ، زالت عنه عامة الشبهات ، وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام .[(٣)]

قال نعيم بن حماد[(٤)] شيخ الامام البخاري رحمهما الله تعالى : " من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه رسوله كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل "[(٥)].

الثالث : أن صفات الله كلها صفات كمال ، فله سبحانه الكمال المطلق ، وهو المنزه عن كل نقص ، وكل صفة كمال تثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الله سبحانه وتعالى فهو احق بها وأولى ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالله أولى وأحق بالتنزه عنه ، ومما ينبغي معرفته في الايمان بأسماء الله وصفاته أن يقطع الطمع في كيفيتها وألا يسأل عن ذلك ، اذ لا يسأل عن صفات الله تعالى بكيف وان يعلم مع ذلك ويعتقد أن هذه الصفات معلومة المعنى ، فلم يخاطب الله تعالى عباده ويتعبدهم بأمور لا يعلمون معناها ، ولهذا قال الامام مالك رحمه الله وغيره من السلف لمن سأل عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه :

---

(١) انظر : فتاوى ابن تيمية

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) ابن تيمية ـ نفس المصدر ٧٦/٣

(٤) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي ، ابو عبدالله المروزي ، نزيل مصر فقيه عارف بالفرائض مات سنة ٢٢٨ هـ . انظر تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ٣٠٥/٢

(٥) ابن ابي العز شرح الصحاوية ص ١١٧ ، ١١٨ .

" الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة " . قال

وقال ربيعة شيخ مالك قبله : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الايمان "(١)

<u>أدلة هذا النوع من التوحيد :</u>

الأدلة عليه من الكتاب الكريم والسنة النبوية الصحيحة كثيرة ، فقد لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر اسم من اسماء الله تعالى أو صفة من صفاته ومن ذلك سورة الاخلاص فهي بكاملها عن اسماء الله وصفاته ، قال تعالى : ((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد))(٢)

وقد وردت أحاديث في فضل هذه السورة العظيمة منها ما أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (ان رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يرددها ، فلما أصبح جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده انها تعدل ثلث القرآن)(٣)

ومن أدلة هذا النوع من التوحيد : قوله تعالى : ((الله لا اله الا هو

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ٥٨/٣ .
(٢) سورة الاخلاص
(٣) البخاري بشرحه ٥٨/٩ ، ٥٩ .

الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الـــذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمـــه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم))(١)

وقد اشتملت على عدد من اسماء الله تعالى وصفاته ، وهي أعظم آية فـــي القرآن كما أخبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج الامام مسلـم رحمه الله في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم : (يا أبا المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله معك اعظـم ؟ قال : الله ورسوله اعلم ، قال : قلت ((الله لا اله الا هو الحي القيوم)) قال فضرب في صدري : والله ليهنـــك العلم أبا المنذر)(٢).

ومنها قوله تعالى : ((هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمـــن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))(٣)

والآيات في هذا كثيرة جدا .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم رب السموات السبـــع والأرض رب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منـــزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة أنت آخـــذ

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٢) صحيح مسلم بشرحه ٩٣/٦ .
(٣) الآيات من ٢٢ - ٢٤ من سورة الحشر .

بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وانت الباطن فليس دونك شيء ، أقض عني الدين ، واغنني من الفقر)[١] .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : (ينزل ربنا الى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له)[٢] .

والأحاديث في ذلك ايضا كثيرة جدا .

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ٣٦/١٧ .

(٢) صحيح البخاري بشرحه ٢٩/٣ .

مناهج المتكلمين في اسماء الله تعالى وصفاته :

تقدم فيما سبق الكلام عن مذهب السلف في اسماء الله تعالى وصفاته ، وانه المنهج الحق الذي لا يجوز العدول عنه ، فهو الموافق لما جاء عن الله عز وجل ، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتشهد له الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، ناهيك عما في القرآن والسنة من أدلة دامغة .

الا أن اقواما ساءت افهامهم وزلت اقدامهم ، وعميت بصائرهم عن معرفة هذا الحق وسلوك سبيله وسلكوا في هذا الباب مناهج مختلفة مرجعهم فيها عقولهم القاصرة وافهامهم العاجزة ، فخبطوا في ذلك خبط عشواء حتى انتهى الامر بأكثرهم الى الحيرة والشك ، ومن أشهر مناهجهم :

١) منهج اهل التشبيه :

وهم الذين جعلوا صفات الله تعالى من جنس صفات المخلوقين ، وقاسوها عليها ، فلم يفهموا منها الا مثل للمخلوقين ، وانه لا حقيقة لها سوى ذلك ، وان هذا هو ما يعقل منها ، والله لا يخاطب الناس بما لا يعقلون .[(١)]

ولا شك ان هذا فساد في الفهم وانحراف في الاعتقاد ، وعمى في البصائر ، اذ يحصرون ذلك فيما يشبه المخلوق ، ولو رزقوا صحة في الفهم وسلامة في الاعتقاد لعلموا يقينا ان صفات الله سبحانه ثابتة له على ما يليق بجلاله وعظمته لا تشبه صفات المخلوق ، اذ صفاتهم على ما يليق بهم . قال سبحانه : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)) .

---

(١) انظر : كتاب الصواعق المنزلة لابن قيم الجوزيه ٢٥١/١ .

٢) **اهل التأويل :**

ومنهم الجهمية والمعتزلة ، ومنهجم : " ان النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول صلى الله عليه وسلم ان يعتقد الناس الباطل ، ولكن قصد بها معاني ، ولم يبين لهم تلك المعاني ، ولا دلهم عليها ، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص من مدلولها ومقصوده امتحانهم وتكليفهم واتعاب اذهانهم وعقولهم في ان يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه ، ويعرفوا الحق من غير جهته ، وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ، ومن دخل معهم في شيء من ذلك "[١] .

فحقيقة مذهبهم انهم يقررون أن الصفات لا تدل على حقائق معانيها ، فيؤولون ذلك الى معان اخرى ، كتأويلهم اليد بالنعمة ، والاستواء بالاستيلاء ، وغير ذلك ، وبناء عليه فان صفات الله لا تدل على ما وصف به نفسه حقيقة بل مجازا ، فحكموا عقولهم في ذلك واضطربوا فيه اضطرابا كبيرا ، " وهم اشد الناس اضطرابا ، اذ لم يثبت لهم قدم في الفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ، ولا ضابط مضطرد منعكس تجب مراعاته ، وتمتنع مخالفته "[٢] .

ولا ريب ان هذا تحكيم للعقل في نصوص الكتاب والسنة ، بل تقديم له عليهما ، وفتح لباب الضلال والانحراف ، فكل طائفة لا تقبل عقول أهلها أمرا تؤوله ليوافق العقل ، وهذا باب واسع لا ينحصر ، يفقد معه الفهم الصحيح لمعاني كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتنعدم الثقة بدلالتهما ، وارشادهما للعباد ، اذ أصبح الميزان هو العقل ، والعقول تختلف وتتفاوت[٣] .

---

(١) ابن تيمية - الفتوى الحموية الكبرى ص ٣٧ - ٣٨ .
(٢) انظر : كتاب الصواعق المنزلة لابن قيم الجوزيه ١/٢٤٥ .
(٣) انظر شرح العقيدة الصحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٢١٦ .

٣) **أهل التفويض :**

ومنهجهم : أن نصوص الصفات من آيات وأحاديث لا تعقل معانيها ، ولا يعلمها الا الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم معانيها ولاجبريل ولا السلف السابقون ، ثم تناقضوا في ذلك :

- فمنهم من قال : تجري على ظواهرها وتأويلها بما يخالفه باطل ، ولا يعلم تأويلها الا الله .

ومنهم من يقول : المعنى المراد بها خلاف مدلولها الظاهر ، ولا يعلم هذا المعنى أحد من الأنبياء ولا غيرهم .

وهذا تناقض عجيب ، اذ يقولون تجري على ظاهرها ، ثم يقولون الظاهر غير مراد ، ويقولون مع هذا لها تأويل لا يعلمه الا الله ، وهذا يخالف معنى التفويض الذي حقيقته ألا يحكم المفوض بنفي ولا اثبات .

ومنشأ غلطهم وتناقضهم أنهم جعلوا نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلمه الا الله ، فضلوا بذلك عن الفهم الصحيح الذي فهمه سلف الأمة واتباعهم باحسان ، اذ لم يرد عنهم أنهم جعلوا نصوص الصفات من المتشابه ، وفهموا وبينوا معنى قوله تعالى : ((**وما يعلم تأويله الا الله**)) وعقلوا المعنى الصحيح للتأويل من تفسير الشيء أو حقيقته التي يؤول اليها .

ومنهج أهل التفويض هذا له نتائجه الخطيره التي من اخطرها :

أ - ان الله تعبد الناس بألفاظ مجرده لا يعلمونها ولا يعقلون معانيها ، وهو في الوقت نفسه يأمرهم بالتدبر والتفكر في أمور لا يعلمها حتى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فضلا عن غيرهم .

ب - ان الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام واتباعهم جاهلون بربهم لا يعلمون ما وصف به نفسه ، وكانوا يكلمون الناس ويبلغونهم ما لا يعلمون معناه.(١)

ج - أن هذا يؤدي الى انكار صفات الله تعالى الثابتة بالكتاب والسنة وتعطيلها ورد ما رضيه الله تعالى لنفسه ورضيه له رسوله عليه الصلاة والسلام.(١)

---

(١) انظر : موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول بهامش منهاج السنة لابن تيمية ١١٦/١ و ١١٨ .

المبحث الرابع

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته الى التوحيد

سبق الكلام عن الحالة التي وصلت اليها جزيرة العرب قبيل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بلغته من انحطاط عقدي وخلقي واجتماعي ، حتى مقت الله تعالى اهل الأرض عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب ، ثم تدارك من شاء منهم برحمته اذ بعث نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ، فهدى به من شاء هدايته فأخرجهم من الظلمات الى النور ومن الضلال الى الهدى ومن الغي الى الرشاد ومن عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، وبلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام دعوة ربه كما أمره ربه وجاهد في سبيله حق الجهاد حتى أتاه اليقين وانتشرت هذه الدعوة في العالمين ، وربى عليها اصحابه رضي الله عنهم في مكة ثلاثة عشر سنة ثم في المدينة فكانوا خير من حمل لواء هذه الدعوة،دعوة التوحيد وبلغوها الى الناس وجاهدوا في سبيلها وحموا حماها يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده خلفاؤه الراشدون الذين اوصى عليه الصلاة والسلام باتباع هديهم ، واقتفاء اثرهم ، وكذلك سائر الصحابة جاهدوا في سبيل هذه الدعوة ونشرها والدفاع عنها وحمايتها من كل شك وشرك كما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورباهم .

وفيما يلي سأتحدث عن المنهج الذي نهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته الى توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة وترسيخ هذا النوع من التوحيد في نفوس الأمة ، وتحصينها من الوقوع فيما يناقضه أو يخالفه ، اذ هو أول واجب على العبد ، واساس ايمانه واسلامه ، كما هو محور دعوة الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام .

والحديث عن ذلك فيما يلي :

أولا : بيان ان دعوته صلى الله عليه وسلم انما كانت تدور حول تحقيق التوحيد

تقدم الكلام عن دعوة الأنبياء والرسل وانها كانت كلها الى التوحيد ، كما جاء بيان ذلك في القرآن الكريم ، فكلما انحرف الناس عن عقيدة التوحيد واندرست معالمه ، بعث الله رسولا يجدد هذه الدعوة ، ويعيد الناس الى الصراط المستقيم ، ويجدد لهم ما اندرس من هذه العقيدة ، التي هي أول واجب عليهم ، واساس كل عمل يعملونه طاعة لربهم ، فمن أجل ذلك خلق الله الخلق ، وبعث الرسل وانزل الكتب ، وبسببه قامت الخصومة بين الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وبين اعدائهم في كل زمان ومكان ، وفي سبيله جاهد الرسل واتباعهم ، وكذلك كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو خاتم الانبياء والرسل ورسالته خاتمة الرسالات ، وبعثته لجميع العالمين ، ((وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا))[(١)] .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، وذكر منها : وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة)[(٢)] .

فكانت دعوته عليه الصلاة والسلام اعظم دعوة الى التوحيد ، فالقرآن كله يدعو الى التوحيد ويأمر به ويبين الأدلة ويضرب الأمثلة لتقريره والنهي عما يخالفه

---

(١) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

(٢) صحيح البخاري بشرحه ٤٣٥/١ .

من الشرك وغيره ، ويحكي اخبار أهل التوحيد من الرسل واتباعهم وكيف كانت العاقبة لهم ، واخبار اعدائهم ، وكيف كانت الدائرة عليهم ، وما وعد الله أهل توحيده من ثواب ونعيم وما توعد به اعدائهم من عقاب وعذاب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو ذلك على الناس ويبينه لهم قولا وعملا في مكة ثلاث عشرة سنة وعشر سنوات في المدينة كلها كانت في سبيل دعوة التوحيد ، باللسان والسنان ، والحجة والبيان ، يرسل الرسل ويأمرهم بأن يكون التوحيد أول ما يدعون اليه الناس كما بعث معاذا رضي الله عنه الى اليمن وقال له : (فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة ان لا اله الا الله)[١] .

وكان يكتب الرسائل الى الملوك يدعوهم واقوامهم الى توحيد الله ويحذرهم من الشرك به سبحانه ويحملهم اثم من تبعهم على ما هم عليه .

وحين اذن الله له في الجهاد أعلن في الناس قوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله)[٢] وفي الوقت نفسه يبين لأصحابه مكانة هذا التوحيد وفضله ، وينهاهم عن كل ما يدنسه أو يكون ذريعة الى ما يخالفه ، صيانة لهذا التوحيد وحماية له من كل ما يعارضه

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٣٩

(٢) تقدم تخريجه ص ١٣٨

ثانيا: الدعوة الى التوحيد والتحذير من الشرك

وهذا أساس دعوته عليه الصلاة والسلام ومن قبله جميع المرسلين ، كما قال تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))[١]

وقال سبحانه : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون))[٢] .

وكما سبق ذكره ان دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت كلها الى التوحيد ، وتفصيل ذلك سيأتي ، وفي هذا المبحث سأذكر أمثلة مما ثبت عنه عليه الصلاة في دعوته لهذا التوحيد ونهيه وتحذيره من الشرك .

منها : قوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله ..) الحديث[٣]

وقوله عليه الصلاة والسلام كما سبق ذكره في بعثه لمعاذ رضي الله عنه : (انك تأتي قوما أهل كتاب ..) الحديث .[٤]

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه معاذ رضي الله عنه قال :

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) سبق تخريجه

(٤) سبق تخريجه

(كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي : يا معاذ اتــدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله ان لا يعذب من لا يشرك به ، فقلت يا رسول الله : أفلا ابشر الناس ، قـال : لا تبشرهم فيتكلـوا)(١) .

وما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : (من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله حرم الله عليه النار)(٢) .

وما رواه جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال : (من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئا دخـل النار)(٣) .

وما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلـم قال : (من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار)(٤) .

وما رواه ابو هريرة رضي الله عنه وقد كانوا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم في غزوة تبوك ثم ذكر من حديثه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلـم : (أشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شـاك

---

(١)
(٢) صحيح مسلم بشرحه ٥٧/١ ، ٥٨ .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٩٤/١ .
(٤) صحيح البخاري بشرحه ١٧٦/٨ .

فيحجب عن الجنة)[١] .

وما رواه جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يموت بخمس وهو يقول : (اني ابرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ولو كنت متخذا من امتي خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، اني انهاكم عن ذلك)[٢] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم ، انما انا عبد فقولوا : عبدالله ورسوله)[٣] .

والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة جدا ، منها ما يأمر بالتوحيد ، ومنها ما يحذر من الشرك وينهي عنه ، ومنها ما يحذر من الوسائل والذرائع المفضية الى الشرك حتى ولو لم تكن شركا ، كل ذلك لتقرير هذا التوحيد وترسيخه في القلوب وصيانته من كل ما يخالفه .

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ١/٥٥ ، ٥٧ .
(٢) صحيح مسلم بشرحه ١/٣٧٧ ، ٣٧٨ .
(٣) صحيح البخاري بشرحه ٦/٤٧٨ .

الفصل الرابع

أنواع الشرك ..

المبحث الأول : الشرك الأكبر .

المبحث الثاني : الشرك الأصغر .

المبحث الثالث : الشرك الخفي .

الفصل الرابع

أنواع الشـــرك

فكما ان التوحيد أنواع فكذلك الشرك أنواع بينها رسول الله صلى اللـــــه عليه وسلم وحذر من الوقوع فيها حماية لجناب التوحيد وحرصا على أهله مـــــن الشرك أيا كان نوعه لأنه اما أن يخرج صاحبه من الاسلام ويحرمه نعمة التوحيـــد ، ويورده النار وبئس المصير ، واما ان ينافـــي كماله فيحرم العبد تمام نعمـــة التوحيد ، وقد ينتهي به الى الخروج من الاسلام آخر الأمر ، او يخدش توحيـــده ويلوث صفاءه .

المبحث الأول

الشـــرك الأكبـــــر

وهو اتخاذ الأنداد من دون الله ، ودعوتهم ومحبتهم والتقرب اليهم مـــن دون الله تعالى ، وهو اعظم الذنوب ، واشد المحرمات لا يغفره الله تعالى لمـــن لم يتب منه توبة نصوحا ، ولا يقبل صرفا ولا عدلا . قال تعالى : ((ان اللـــــه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضـــل ضلالا بعيدا))[١] .

وقال : ((قل تعالوا اتل ما حرمه ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا))[٢]

وقال : ((وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار))[٣]

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

وقال : ((ان الشرك لظلم عظيم)) .[١]

وقال : ((ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما))[٢].

وفي الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار)[٣].

وعنه رضي الله عنه قال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب اعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك)[٤].

وهذا النوه من انواع الشرك ينقسم الى أقسام :

أحدها : شرك الدعاء :

كما قال تعالى : ((فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون))[٥].

وهذا اخبار عن حال المشركين وانهم في حال الرخاء يدعون غير الله ويسألون غيره ، فاذا نزلت بهم مصيبة لجأوا الى الله وسألوه كشف الضر عنهم ، حتى اذا كشفه عنهم واستجاب لهم وتحقق مطلوبهم عادوا الى ما كانوا عليه من الشرك بالله والاعراض عنه ، ثم خلف من بعدهم خلف اشد منهم شركا واعراضا فهم على شركهم وعنادهم في الرخاء والشدة فهم اسوأ حالا من اسلافهم .

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٣) تقدم تخريجه ص ٢١٠ .
(٤) صحيح البخاري بشرحه ١٦٣/٨ .
(٥) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

فهؤلاء اشركوا مع الله تعالى غيره في الدعاء الذي هو العبادة ، كما يفعله مشركوا اليوم ممن ينتسبون الى الاسلام ، وهو منهم براء ، كغلاة المتصوفة والرافضة وأضرابهم .

الثاني : شرك النية والقصد والارادة :

ومن أدلته قوله تعالى : ((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون))[1] .

وقوله تعالى : ((من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا))[2] .

الثالث : شرك في الطاعة :

وذلك بطاعة غير الله تعالى في معصيته سبحانه ، كطاعة العلماء والأمراء والسلاطين وغيرهم ، اذ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) و (انما الطاعة في المعروف) .

فمن اطاع أحدا في معصية الله تعالى فقد اتخذ ذلك المطاع ربا من دون

---

(١) الآية ١٥ من سورة هود .
(٢) الآيات من ١٨ ـ ٢٠ من سورة الاسراء .

الله بقدر طاعته له ، قال تعالى : ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح بن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون))(١) .

الرابع : شرك المحبة :

بأن يصرف المحبة لغير الله تعالى مما يجب ان يكون لله ، ومن أدلته قوله تعالى : ((ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله))(٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود الى الكفر بعد أن انقذه الله منه ، كما يكره ان يقذف في النار)(٣) .

فهذه اقسام الشرك الأكبر الذي يخرج صاحبه من الملة ، ويخلد صاحبه في النار اذ لم يتب منه ولا يقبل الله منه عملا ، كما قال تعالى عن المشركين : ((وقدمنا الى ما عملوه من عمل فجعلناه هباءا منثورا))(٤) .

وقال مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : ((ولقد أوحى اليك والى الذين

---

(١) الآية ٣١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١٦٥ من سورة البقرة .
(٣) البخاري بشرحه ٦٠/١ ، ومسلم بشرحه ٦٦/١ .
(٤) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين))[١] .

وقال بعد ذكر عدد من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام : ((ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون))[٢]

المبحث الثاني

الشرك الأصغر

وهو دون الشرك الأكبر ، لا يخرج من الملة ، ولا يخلد صاحبه في النار ، ولا يحبط غيره من الأعمال ، وهو مع هذا اكبر الكبائر ، ومن أشد الذنوب ، وصاحبه على خطر عظيم قد يصل به الى الشرك الأكبر ، وانواعه كثيرة - منها :

الحلف بغير الله تعالى :

قال صلى الله عليه وسلم : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٣]

وقول : ما شاء الله وشئت :

لقوله صلى الله عليه وسلم : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان)[٤]

---

(١) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٨٨ من سورة الأنعام .
(٣) مسند الامام احمد ٣٤/٢ . وقد صححه الحاكم وأقره الذهبي
(٤) مسند الامام احمد ٣٨٤/٥ . وسنن البيهقي ٢١٦/٣ وهو حديث صحيح .

ولما قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئـت .
قال : (اجعلتني لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده)[(١)] .

ومنها : الريـــاء :

وهو العمل أو تحسينه أو تركه من أجل الناس ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه فقال : الرياء)[(٢)] . قال شداد بن أوس رضي الله عنه : (كنا نعد الرياء على عهـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر)[(٣)]

وغير ذلك من الشرك في الأمثال والأقوال فيما هو دون الشرك الأكبـــر ، وقد يكون هذا شركا أكبر حسب قصد فاعله أو قائله .

المبحث الثالث

الشرك الخفـــــي

وهو الذي لا يكاد يسلم منه أحد الا من عصمه الله تعالى ، كما قـــــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه اخفى مـــن دبيب النمل ، فقال له من شاء الله ان يقول : وكيف نتقيه يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم اني اعوذ بك ان اشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)[(٤)]

---

(١) مسند الامام احمد ٢١٤/١ ،وأخرجه غيره وفي سنده الاجلح بن عبدالله ضعفه الامام النسائي وابن معين وغيرهم .
(٢) مسند الامام احمد ٤٢٨/٥ .
(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٥٣٢ .
(٤) مسند الامام احمد ٤٠٣/٤ من حديث أبي موسى . وهو حديث حسن .

ويمكن تقسيم الشرك بالنسبة الى انواع التوحيد الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الشرك في الربوبية :

وهو نوعان :

شرك التعطيل :

وهو أعظم انواع الشرك وأقبحها ، فالتعطيل أصل كل شرك والحاد ، كشرك فرعون ، وشرك الفلاسفة ومن شابههم من الملاحدة وأهل وحدة الوجود كابن عربي ، وابن سبعين وابن الفارض ، وكذا من عطل اسماء الرب وصفاته كغلاة الجهمية والقرامطة .

وشرك من جعل مع الله الها آخر ولم يعطل اسماؤه ولا صفاته ولا ربوبيته :

كشرك النصارى القائلين بأن الله ثالث ثلاثة ، والمجوس الذين يقولون بالهين للخير والشر وهما النور والظلمة .

ومثلهم عباد الكواكب وغلاة عباد القبور الذين يرون الأولياء لهم قدرة بعد موتهم على تفريج الكربات وقضاء الحاجات .(١)

القسم : الثاني : الشرك في الألوهية :

وهو شرك الجاهلية الذي كانوا يعترفون بربوبية الله تعالى ولكنهم يشركون

---

(١) انظر : كتاب التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولى الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تأليف سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ص ١٦٣ ، ١٦٤ و ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، وكتاب تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للمؤلف نفسه ص ٤٣ ، ٤٤ .

معه في الوهيته اصنامهم ومعبوداتهم ويقولون كما حكى الله عنهم : ((ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى))[١] .

فلم يقبل ذلك منهم ولم ينفعهم اقرارهم واعترافهم بربوبية الله تعالى مع شركهم في الوهيته ، وهذا الشرك اكثر شرك اهل الأرض ، وهو الذي من أجله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام وانزلت الكتب وقامت بسببه الخصومة بين الرسل وأممهم ، ويدخل تحت هذا القسم من الشرك : الشرك الأكبر ، والأصغر ، اللذان سلف الكلام عنهما[٢] .

القسم الثالث : الشرك في الأسماء والصفات :

وهو نوعان :

أولهما : شرك من شبه الله تعالى بخلقه كمن يقول : له يد كيدي ، أو استواء كاستوائي ، أو سمع كسمعي أو نحو ذلك ، وهذا هو شرك المشبهة .

وثانيهما : تسمية الآلهة باسماء الله تعالى كتسمية المشركين آلهتهم باسماء مشتقة من اسماء الله تعالى ، وهو معنى قوله تعالى : ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون))[٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يلحدون في اسمائه : يشركون ، سموا اللات من الاله ، والعزى من العزيز .

---

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٢) انظر المصدرين السابقين .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

الفصل الخامس

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية التوحيد

تقدم الكلام عن منهجه عليه الصلاة والسلام في دعوته الى التوحيد ، وجهاده في سبيله ، وكيف كانت دعوته عليه الصلاة والسلام كلها تدور حول التوحيد ، وتحقيقه ، وترسيخه في النفوس ، لأنه أول واجب على العبد ، وأساس ايمانه ، كما كان مفتاح دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وفي الوقت نفسه بين الشرك المضاد لهذا التوحيد وحذر منه ، ونهى عنه وبين أنواعه ، وخطورته على الناس وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة .

سار عليه الصلاة والسلام على هذا المنهج وربى عليه اصحابه رضي الله عنهم حتى علت كلمة التوحيد ، ورفرفت راية العقيدة ، واختفى الشرك ، وتحطمت معاقله ، وسار الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .

واستمر جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك في حماية هذا التوحيد ، وحراسة حماه ، وكان عليه الصلاة والسلام دائم التعليم لأصحابه يبين لهم فضل الله عليهم بهذا التوحيد ، وما أعد أهله من الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ويحذرهم وينهاهم عن كل ما يخالفه أويخل به ، أو يكدر صفوه ، أو يكون ذريعة الى شيء من ذلك ، وما توعد الله به اعداء توحيده ، وخصوم انبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام الذين أرسلهم ليخرجوا الناس من ظلمات الشرك الى نور التوحيد .

وقام صرح عقيدة التوحيد واشتد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على حمايته خير قيام وأعظمه وأكمله ، وسطع نور التوحيد وظهر في أنصع صوره

الفصل الخامس

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في حماية التوحيد .

المبحث الأول : حمايته توحيد الربوبية .

المبحث الثاني : حمايته توحيد الألوهية .

المبحث الثالث : حمايته توحيد الأسماء والصفات .

وأجملها وانقاها ، وما ترك عليه الصلاة والسلام شيئا يخل بهذه الصورة الا حذرمنه ونهى عنه وان لم يكن في نفسه شركا ، سدا للذريعة ، وحماية لجانب هذا التوحيد ، وحراسة لحماه بكافة أنواعه .

المبحث الأول : منهجه عليه الصلاة والسلام في حماية توحيد الربوبية :

عني الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا النوع من التوحيد عناية كبيرة مع انه بعث في مجتمع لا ينكر ربوبية الخالق سبحانه وتعالى ، فأكد على هذا النوع من التوحيد ، وبين دلائله ، وشواهده ، وجاءت الآيات والأحاديث تبين ذلك وتؤكده لأمور أهمها :

١) بيان أن الله تعالى هو المتفرد بالربوبية المطلقة التي لا يشاركه فيها أحد ، فهو رب كل شيء ومليكه ، وهو القادر على كل شيء قدير ، وله الخلق والأمر ، والخلق كلهم مخلوقون مربوبون ، وهذا يستدعي العناية والحماية له لما له من أهمية في معرفة العبد ربه عز وجل ، ولما له من ارتباط بغيره من انواع التوحيد الأخرى .

٢) أنه وجد من أنكر ربوبية الله تعالى ، ونسب ما يجب لله لغيره ، وان كان ذلك قليلا ، فكان لابد من بيان ذلك والرد عليه .

٣) أنه قد يأتي في زمن من الأزمنة من يقع في مثل ذلك ، كما هو الحال في زماننا الذي انتشر فيه الالحاد وانكار ربوبية الله عز وجل ، كالشيوعية الملحدة ، وما يعتقده غلاة الصوفية في أوليائهم وغلاة الرافضة في أئمتهم ، فكان من الضروري ، العناية بهذا النوع من التوحيد .

٤) الزام الذين يقرون بهذا النوع للاقرار بانواع التوحيد الأخرى والا فلا معنى لاقرار بتوحيد الربوبية ولا ينفعهم ذلك ، فقد كانت الآيات من القرآن الكريم تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوهم الى التفكر في آيات الله في الكون وانه تعالى خالق كل شيء ومدبره ليؤكد ما يقرون به ، من هذا التوحيد ، ويحتج عليهم به ، ويعيب عليهم تفريقهم بين توحيد الربوبية والألوهية ، مع تلازمهما .

فلا يكفي توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية ، ولا يتأتى توحيد الالوهية دون توحيد الربوبية ، بل هما متلازمان ، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الالوهية ، وتوحيد الالوهية والعبادة يتضمن توحيد الربوبية ولا يتم الا به .

المبحث الثاني

منهجه عليه الصلاة والسلام في حماية توحيد الألوهية

كان لتوحيد الالوهية والعبادة الاهتمام الأول في العناية والحماية ، فهو الذي كان ينكره المشركون ويردون دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام اليه ، ويعجبون منها ، كما قال الله تعالى حكاية عن المشركين : ((اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب))[1]

ولهذا فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوحيد أتم بيان ودعا اليه اعظم دعوة ، وجل القرآن الكريم نزل ليقرر هذا النوع من التوحيد ويدعو اليه ، وجاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اعظم جهاد ، وقام في حمايته وصيانة حماه حتى أتاه اليقين ، بل انه وهو في الرمق الأخير ، وهو يعالج نزع الروح يبين لأمته أهمية هذا التوحيد ، كما ربى اصحابه رضي الله عنهم على ذلك ليكونوا جنودا وحماة لهذا التوحيد ويسلموا هذه الأمانة الى من بعدهم صافية نقية ، وقد كانوا كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم .

وفيما يلي بعض الأمثلة من حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا النوع من التوحيد وبيانه والنهي عن كل ما يضاده من شرك أو بدعة أو ما يكون وسيلة وذريعة الى ذلك وان لم يكن في نفسه شركا .

---

(١) الآية ٥ من سورة ص .

أولا : النهي عن الغلو والاطراء :

الغلو اصل كل شر وبلاء في الدين ، فهو أصل الشرك والانحراف الذي صار طريق كل هالك وسبيل كل ضال ، والاطراء باب من ابوابه ووسيلة من أعظم وسائله ، فالغلو هو الذي كان سببا في وقوع الشرك في الأرض بعد ان لم يكن ، ثم صار بعد اساس كل شرك يقع في كل زمان ومكان ، فهو سبب كفر النصارى ، وشركهم الذين قال الله عنهم : ((يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم))[١] .

ولهذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم امته من ذلك ، ومن كل وسيلة قد توصل اليه خوفا على أمته وحماية لجناب التوحيد ، فنهاهم عن الغلو في الدين وحذرهم منه ، وعن اطرائه أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه ، لئلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم ، فكان سبب هلاكهم ، فذم التنطع وحذر منه وهو أول سهم من سهام الغلو ، فقال صلى الله عليه وسلم : (**هلك المتنطعون**) قالها ثلاثا .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يحب المتعمقين ، فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه قال : (**نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصوم فقال رجل من المسلمين : انك تواصل يا رسول الله ، قال : وايكم مثلي ؟ اني أبيت يطعمني ربي ويسقين**) .

فلما أبو أن ينتهوا عن الوصال أقبل بهم يوما ثم يوما ، ثم أراد الهلاك ، فقال :(**لو تأخر لزدتكم ، كالتنكيل لهم حين أبواد أن ينتهوا**)[٢] .

---

(١) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٢) صحيح البخاري بشرحه ٢٠٦/٤ .

وكان الصحابة أقل الامة تكلفا ، اقتداءا بنبيهم صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ((قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين))[1] .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : " من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، كانوا أفضل هذه الأمة : أبرها قلوبا واعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ، ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم "[2] .

وقال أنس رضي الله عنه " كنا عند عمر رضي الله عنه فسمعته يقول : نهينا عن التكلف " .

وقال مالك : قال عمر بن عبدالعزيز : " سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفهما ، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا "[3] .

وقال مالك : بلغني ان عمر بن الخطاب كان يقول : " سُنتْ لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، الا ان تميلوا بالناس يمينا وشمالا "[4] .

---

(١) الآية ٨٦ من سورة ص .
(٢) ابن قيم الجوزيه مدارج السالكين ٤٣٦/٣ .
(٣) الآجري ـ الشريعة ٤٨/١ .
(٤) انظر اغاثة اللهفان ١٥٩/١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين)[(١)] .

فأخبر ان الغالين يحرفون ما جاء به ، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه ، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله ، وفساد الاسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة ، فلولا ان الله تعالى يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء مثله من هؤلاء .[(٢)]

وحذر عليه الصلاة والسلام من الغلو فقال : (اياكم والغلو فانما اهلك من كان قبلكم الغلو)[(٣)] ، وسد الذرائع الموصلة اليه ، فنهى عن الاطراء وقال : (لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم ، انما انا عبد فقولوا : عبدالله ورسوله)[(٤)] .

فقد كان الاطراء والغلو سببا لكفر النصارى وقولهم في عيسى عليه السلام غير الحق .

وأخبر عن هلاك المتنطعين فقال : (هلك المتنطعون)[(٥)] .

وانكر على اصحابه المبالغة في المدح والثناء عليه خوفا عليهم من مجاوزة الحد الى المنهي عنه ، وحماية لعقيدة التوحيد من ان يمسها دنس واحتياطا في

---

(١) الكامل لابن عدي ١٥٢/١ ، ١٥٣ ، من طرق كثيرة ضعيفة كما ذكر ذلك الدارقطني وابو نعيم ، ويمكن أن يتقوى بتعدد الطرق .
(٢) ابن قيم الجوزيه ، اغاثة اللهفان ١٥٩/١
(٣) مسند الامام احمد ٢١٥/١ .
(٤) تقدم تخريجه ص ٩٣ قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والبيهقي .
(٥) صحيح مسلم بشرحه ٢٠٥٥/٤ .

الحفاظ عليهم حتى من الأمور التي قد لا تكون في الواقع شركا أو بدعة ، روى عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال : (انطلقت في وفد بني عامر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : انت سيدنا ، فقال : السيد الله تبارك وتعالى ، قلنا : وأفضلنا فضلا ، واعظمنا طولا ، فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان)(١) .

وروى آنس رضي الله عنه : أن اناسا قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : (يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبدالله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي انزلني الله عز وجل)(٢) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام ، وارشد أمته الى ترك ذلك نصحا لهم وحماية لمقام التوحيد أن يدخله ما يفسده ، أويضعفه من الشرك ووسائله .(٣)

والنهي عن الغلو عام في كل امر من امور الدين وأول ذلك أمر العقيدة التي هي أساس الدين وأصله .

والنهي عن الاطراء ومجاوزة الحد في شخصه عليه الصلاة والسلام ، وغيره من باب اولى أيا كان ذلك الغير ملكا او نبيا أو صالحا أو غير ذلك ، وما أكثر من استزلهم الشيطان فوقعوا فيما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) مسند الامام احمد ٢٤/٤ ، ٢٥ .
(٢) مسند الامام احمد ١٥٣/٣ .
(٣) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، تيسير العزيز الحميد ص٧٣٢، ٧٣٣ .

وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل ، واضلهم عن الهدى بدعوى المحبة والوسيلة ، والتقرب الى الله تعالى ، حتى صدق على كثير منهم قوله تعالى : ((قل هل انبئكم بالأخسرين اعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا))[1] .

وقوله : ((انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون))[2] .

وقوله : ((وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون))[3] .

وانما المحبة الصحيحة والوسيلة الصالحة في اقتفاء اثر رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين لهم باحسان والسير على طريقهم الذي هو صراط الله المستقيم كما قال تعالى : ((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم))[4] .

وكما قال سبحانه : ((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا))[5] .

وقال بعد ذكر عدد من الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام : ((أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين))[6]

---

(١) الآيات من ١٠٣ - ١٠٥ من سورة الكهف .
(٢) من الآية ٣٠ من سورة الاعراف .
(٣) الآية ٣٧ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .

زيارة القبور والنهي عن اتخاذها مساجد :

وهذا الموضوع له أهمية عظيمة نظرا لما له من الأثر المباشر في عقيدة التوحيد قديما وحديثا ، وما حصل بسببه من الفتن التي أدت بكثير من أهلها الى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا فقد كان له أهميته العظيمة ، ومن أهم ما اهتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبين الهدى فيه وأمر به ، وحذر من الانحراف عنه وما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة وفتن عظيمة .

والكلام عن هذا الموضوع الهام يتلخص في عدة أمور :

الأمر الأول : الحكمة من زيارة القبور :

لقد بين عليه الصلاة والسلام الحكمة التي من أجلها شرعت زيارة القبور وهي أمران :

أحدهما : تذكر الآخرة ، والاعتبار بحال أهل القبور وما سينتهي اليه كل انسان كما قال صلى الله عليه وسلم **(اني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة)**[1] .

فقد بين عليه الصلاة والسلام الغاية من زيارة القبور وانها تذكر الآخرة ، وما ينبغي للزائر أن يكون قصده من زيارته للقبور ، وهذه حكمة عظيمة تبعث في نفس المؤمن الاستعداد للموت والدار الآخرة ، وتحد من الغفلة والاغترار بالدنيا ، وهذه حكمة عظيمة لو عقلها المسلمون .

---

(١) مسند الامام احمد ٣٥٥/١ .

ثانيهما : من الحكمة في زيارة القبور : الدعاء للميت والاستغفار له والترحم عليه ، وهذه حكمة أخرى من زيارة القبور ، وهي حق للميت على الحي ، اذ الميت قد انقطع عمله ، وهو في أمس الحاجة واشدها الى من يدعو الله له بالمغفرة والرحمة .

فالزائر للقبور على الوجه المشروع تتحقق له هذه الحكمة ، ويجمع بين خيرين له وللميت ، فله بتذكر الآخرة والاستعداد لها ، ونيل ثواب الزيارة وأجرها ، وللميت بما حصل له من الاستغفار والدعاء .

هذا هو الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور ، والحكمة منها .

ولكن المشركين عكسوا ذلك فجعلوا الزيارة لدعاء الميت والتوسل به وليس للدعاءله فيعود الزائر مأزورا لا مأجورا ، فيجمع بين شرين ، ويحرم الميت من حصول الدعاء له بسبب مخالفة هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته.(١)

<u>الأمر الثاني</u> : <u>الزيارة الشرعية</u> :

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الزيارة الشرعية للقبور بقوله وعمله ، وعلمها اصحابه وعملوا بها كما علمهم عليه الصلاة والسلام ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ان ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم ،

---

(١) انظر اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزيه ١/١٩٨ ـ ١٩٩ .

قالت : قلت : كيف اقول لهم يا رسول الله ؟ قال : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون)[١].

وعنها رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها منه يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)[٢].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور أول الأمر سدا للذريعة ، ثم اذن فيها حين تمكن التوحيد في القلوب ، وبين الزيارة المشروعة وأمر بها ، ونهى عن كل ما يخالفها وحذر منه اشد التحذير .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (زوروا القبور فانها تذكر الموت)[٣].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اني كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكركم الآخرة)[٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (زار النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ٤٤/٧ .
(٢) صحيح مسلم بشرحه ٤٠/٧ ، ٤١ .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٤٦/٧ .
(٤) تقدم تخريجه ص ٢٢٨

قبر أمه فبكى وابكى من حوله فقال : استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزورها فأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكر الموت)[١] .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد ان يزور فليز ، ولا تقولوا هجرا)[٢] .

فقد بين صلى الله عليه وسلم الزيارة الشرعية قولا وعملا اتم بيان ، واتبعه على ذلك اصحابه رضي الله عنهم في حياته وبعد مماته .

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم ، كما يقصد الصلاة على أحدهم اذا مات فيصلى صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية .[٣]

فالحي محتاج الى اتباع السنة ، والحصول على الأجر والثواب ، وتذكر الآخرة ، والميت محتاج أمس الحاجة الى من يدعو له ويستغفر أو يترحم عليه ، وتحقيق هاتين المصلحتين كانت هدف الشارع من مشروعية زيارة القبور ، وما خرج عن ذلك فهو ابتداع لا اتباع وشرك أو ذريعة له .

فهذه الزيارة الشرعية المستفادة من الأحاديث النبوية ، وعليها درج الصحابة والتابعون وتابعوهم باحسان ، انما فيها التذكر بالقبور والاعتبار بأهلها والدعاء لهم والترحم عليهم ، وسؤال الله العفو عنهم ، فمن ادعى فيها غير هذا

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٠ .

(٢) مسند الامام احمد ٤٥٢/١ ، ٣٦١/٥ . وقد أخرج الشافعي في الأم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ونهيتكم عن زيادة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) واسناده صحيح . انظر الأم للشافعي ٢٧٨/١ .
والهجر : هو الفحش ، يقال : اهاجر في منطقة يهجر اهجارا اذا أفحش .

(٣) ابن تيمية ـ الفتاوى ٢٣٦/١ .
انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الاثير ٢٤٥/٥ .

طولب بالبرهان ، وأنى له ذلك ، ومن اين يطلبه ، بل كذب وافترى ، وقفا ماليس له به علم ، بل ان العلوم الشرعية دالة على ضلاله وجهله .[١]

الأمر الثالث : الزيارة غير الشرعية :

وهي اما شركية كزيارة المشركين للقبور لدعاء الموتى وسؤالهم الحوائج من دون الله عز وجل ، واعتقاد انهم يقدرون على ذلك .

واما بدعية مفضية الى الشرك كتحري الدعاء عند القبور واعتقاد انه أفضل منه في مكان آخر ، أو ان التوسل بهم الى الله تبارك وتعالى يقتضي الاجابة .

وكلا الزيارتين باطلتان مخالفتا لما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور ، وما سار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان رضي الله عنهم ، كما تقدم من الأحاديث الصريحة الصحيحة .

" إذ الناس في هذا الباب ـ أعني زيارة القبور ـ ثلاثة أقسام : قوم يزورون الموتى فيدعون لهم ، وهذه هي الزيارة الشرعية ، وقوم يزورنهم يدعون بهم وهؤلاء المشركون في الألوهية والمحبة ، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)[٢] ، وهؤلاء المشركون في الربوبية ."[٣]

وهذه الزيارة هي التيفتحتابواب الشرك والبدع على المسلمين ، اذ جعل أهلها القبور مقصدا لمن أراد الدعاء وطلب الحاجات وتفريج الكربات ، وعظموها

---

(١) حافظ بن احمد حكمي ـ معارج القبول ٤٧٩/١ .
(٢) مسند الامام احمد ٢٤٦/٢ . وهو حديث صحيح .
(٣) تقي الدين المقريزي ـ تجريد التوحيد المفيد ص ١٩ ـ ٢٠ .

اشد من تعظيم بيوت الله تعالى فيعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع والخضوع ما لا يفعلون بعضه في المساجد التي هي مكان العبادة والصلاة وذكر الله وسؤاله ، فبذلك سعوا الى عمارة القبور والمشاهد والبناء عليها واسراجها والدعوة اليها ، وخراب المساجد وهجرها ، وتقليل مكانتها وعظمتها في نفوس المسلمين .

"وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين الى ان شرعوا للقبور حجا ، ووضعوا له مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابا وسماه " مناسك حج المشاهد " مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الاسلام ، ودخول في دين عباد الأصنام ، فانظر الى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده ، من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب ان في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره ."[1]

والذين هذا حالهم في زيارتهم للقبور قد تنكبوا الصواب ، وغفلوا عن الرشاد ، وكان أولى لهم من زيارة قبور من يعتقدون صلاحهم للتوسل كان أولى لهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم ويتبعوا سبيلهم ، يخافون من الله كما يخافون ، ويرجون رحمته كما كانوا يرجون . قال الله جل شأنه : ((**أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا**))[2] .

وقبلها قوله سبحانه وتعالى : ((**قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا**))[3]

---

(١) ابن قيم الجوزيه ـ اغاثة اللهفان ١٩٧/١ .
(٢) الآية ٥٧ من سورة الاسراء .
(٣) الآية ٥٦ من سورة الاسراء .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" وهؤلاء الفضلاء من الأئمة انما ينبغي محبتهم واتباعهم ، واحياء ما أحيوه من الدين ، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان ، ونحو ذلك .

•

واما اتخاذ قبورهم اعيادا ، فهو مما حرمه الله ورسوله ، واعتياد قصد هذه القبور في وقت معين ، أو الاجتماع العام عندها في وقت معين ، هو اتخاذها عيدا - كما تقدم - ولا أعلم بين المسلمين ، أهل العلم في ذلك خلافا ، ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة ، فان هذا من التشبه بأهل الكتابين ، الذي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم انه كائن في هذه الأمة .

وأصل ذلك انما هو اعتقاد فضل الدعاء عندها ، والا فلو لم يقم هذا الاعتقاد بالقلوب انمحي ذلك كله ، فاذا كان قصدها للدعاء يجر هذه المفاسد كان حراما ، كالصلاة عندها وأولى ، وكان ذلك فتنة للخلق ، وفتحا لباب الشرك ، واغلاقا لباب الايمان ".(١)

ولقد كان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شديدا ، فبين المشروع من ذلك بيانا واضحا جليا وأمر به وحث عليه ، وحذر مما يخالفه أو يكون وسيلة وذريعة اليه اشد التحذير ، اذ هو سبب كل شر ، وأصل كل شرك في الأرض منذ ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح عليه الصلاة والسلام .

<u>الرابع : بعض ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير والنهي عن ذلك :</u>

فمن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن أم المؤمنين

---

(١) ابن تيمية - اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٣٢ تحقيق د. ناصر العقل .

أم سلمة رضي الله عنها وأم حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : (أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)[(١)] متفق عليه .

ولهما أيضا عنها رضي الله عنها قالت : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق بطرح خميصة على وجهه فاذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) ، يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لابرز قبره ، غير انه خشي ان يتخذ مسجدا .[(٢)]

وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يموت بخمس وهو يقول : (اني ابرأ الى الله ان يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا ، ولو كنت متخذا من امتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، أني انهاكم عن ذلك)[(٣)] .

واتخاذ القبور مساجد يشمل ثلاثة معاني :

الأول : السجود اليها واستقبالها عند الصلاة والدعاء :

فقد كانوا يسجدون لها تعظيما ، ويتوجهون اليها في صلاتهم ، فلذلك لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونها أمته عن مشابهتهم بعمل مثل هذه

---

(١) البخاري بشرحه ٥٣١/١ ، ومسلم بشرحه ٣٧٥/١ .
(٢) البخاري بشرحه ٥٣٢/١ ، ومسلم بشرحه ٣٧٧/١ .
(٣) تقدم تخريجه ص ٢١١ .

الأعمال كما جاء في الأحاديث السابقة وكما في حديث ابي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا اليها)[1] .

الثاني : بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها :

وهذا يشمل بناء المساجد على القبور أو ادخال القبور في المساجد ، فالعلة الموجبة للنهي قائمة على كلا المعنيين ، وقد ذكر البخاري رحمه الله تعالى ذلك في بابين :

أحدهما : باب ما يكره من اتخاذ القبور ، وأورد تحته حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم ، والذي فيه لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود والنصارى ، وأثرا عما حدث لامرأة الحسن بن الحسن بن على رضي اللهعنهماونصه : (لما مات الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم ضربت امرأته قبة على قبره سنه ، ثم رُفعت ، فسمعوا صائحا يقول : ألا هل وجدوا ما فقدوا ؟ فاجابه الآخر : بل يئسوا فانقلبوا) .

والآخر : باب بناء المسجد على القبر ، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها فيما رأته أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما في أرض الحبشة ، وقد تقدم نصه .

وفي شرح حديث عائشة رضي الله عنها في الباب الأول أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى قول الكرماني : " مفاد الحديث منع اتخاذ القبر

---

(١) مسلم بشرحه ٦٢/٣ .

مسجدا ، ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر ، ومفهومهما متغاير ، ويجاب بأنهما متلازمان وان تغاير المفهوم "[١]

الثالث من معاني اتخاذ القبور مساجد : الصلاة على القبور والسجود عليها :

كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلي عليها)[٢] .

والأحاديث الواردة في النهي عن ذلك تشمل هذه المعاني الثلاثة لأنها جميعا مما ورد النهي عنه ، وهي اما شرك أو ذريعة اليه .

وتخصيص قبور الأنبياء في كثير من الأحاديث ، لأن اتخاذها مساجد وقصد الصلاة والدعاء عندها اكثر من غيره ، وتعلق الناس بها أعظم . ومن الأحاديث في التحذير من ذلك اضافة الى ما سبق :

حديث ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)[٣] . وقد استجاب الله دعاء رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وحمى قبره من ان يتخذ عيدا أو وثنا ، فما هذه الحماية التي يسخر الله لها من شاء الا استجابة له عليه الصلاة والسلام ، قال ابن القيم الجوزيه في النونية :

فأجاب رب العالمين دعاءه … واحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه … في عزة وحماية وصيان

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ٢٠٠/٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ .
(٢) مسند ابي يعلي ٦٦/٢ .
(٣) مسند الامام احمد ٢٤٦/٢ .

وعن أبي هريرة رضي اللهعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم
تبلغني حيث كنتم)[1] .

فقوله عليه الصلاة والسلام : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) معنا : بعدم
الصلاة وقراءة القرآن والدعاء فيها ، وهذا حث منه صلى الله عليه وسلم على اعطاء
البيوت قسطا من نوافل العبادات لما في ذلك من الحكم والمنافع العظيمة ،
ومفهوم هذا القول منه صلى الله عليه وسلم ان القبور يجب أن تكون خالية
من هذه الأمور .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " أي لا تعطلوها من الصلاة فيها
والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحري العبادة في البيوت ، ونهى
عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم
من هذه الأمة "[2]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا : (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم
ولا تتخذوها قبورا)[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، فان الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة
تقرأ فيه)[4] .

---

(١) مسند الامام احمد ٣٦٧/٢ وهو حديث صحيح .
(٢) ابن تيمية - اقتضاء الصراط المستقيم ٦٥٧/٢ ت د. ناصر العقل .
(٣) صحيح البخاري بشرحه ٥٢٨/١ ، وصحيح مسلم بشرحه ٦٧/٦ .
(٤) صحيح مسلم بشرحه ٦٨/٦ .

وهذان الحديثان يدلان على ما دل عليه الحديث الأول من النهي عن تشبيه البيوت بالمقابر في عدم الصلاة والدعاء وقراءة القرآن فيها ، والحث على تخصيص شيء من النوافل في البيوت ، وذلك يتضمن ـ كما سبق ذكره ـ النهي عن فعل شيء من ذلك عند القبور

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون قبور انبيائهم مساجد)(١) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر ، وان يقعد عليه وان يبنى عليه بناء)(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى)(٣) .

وهذه الأحاديث وغيرها كثير كلها تنهى وتحذر اشد التحذير من الغلو في القبور والتوسل بأهلها ، واتخاذها مساجد ومجاوزة الحد المشروع في تعظيمها ، وتخصيصها بالدعاء ، واعتقاد افضلية شيء من العبادة عندها ، واتخاذها اعيادا ، ورفعها والبناء عليها وتجصيصها واتخاذ السرج عليها ، وشد الرحال لزيارتها ـ عدا ما ورد في الحديث السابق ـ وكل ما خرج عن الحد الشرعي الثابت عن

---

(١) مسند احمد بن حنبل ٤٣٥/١ .
(٢) مسلم بشرحه ٦٦٧/٢ .
(٣) البخاري بشرحه ٦٣/٣ ، ومسلم بشرحه ١٦٧/٩ ، ١٦٨ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك كان حرصا منه عليه الصلاة والسلام على عقيدة التوحيد لتبقى طاهرة صافية نقية ، وسد كل طرق الشرك أو ذرائعه حتى ولو لم تكن شركا في نفسها ، لئلا يمس جانب هذه العقيدة دنس من الشرك ، أو بدعة ، وعلى الأخص ما يتعلق بالقبور وأهلها فقد اهتم به أعظم اهتمام حتى في اللحظات الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام ، وفي وقت النزع والاحتضار لأن هذا الباب هو الذي دخل منه الشرك على الناس على مدار التاريخ وأخطر معول يهدم بناء التوحيد الذي بناه الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام بوحي من ربهم جل شأنه وتعالى ذكره ، وتوحيد العبادة على وجه الخصوص وهو التوحيد الذي كان أول ما دعا اليه الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام أممهم وقامت بينهم الخصومة فيه بل وقد يفضي غلو بعض الناس في القبور وأهلها إلى الاخلال بتوحيد الربوبية والعياذ بالله تعالى .

وكما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن الشرك وذرائعه في هذا الباب الخطير بين الطريق المشروع ووضحه ودعا اليه الناس جميعا ، وسار عليه هو وأصحابه رضوان الله عليهم اجمعين ، ورباهم حماة لهذه العقيدة مجاهدين في سبيلها ، دعاة اليها ، على ذلك المنهج القويم والصراط المستقيم الذين انزله ربهم تبارك وتعالى ، وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم .

" فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحا لنصب المهاجرون والأنصار علما لذلك ، ودعوا عنده ، وسنوا ذلك لمن بعدهم ، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم ، وكذلك التابعون لهم باحسان راحوا على هذا السبيل ، وقد كان عندهم من قبور اصحاب رسول الله صلى الله تتعالى عليه وآله وسلم بالأمصار عدد كثير ، وهم متوافرون ، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ، ولا دعاه ، ولا دعا به ،

ولا دعا عنده ، ولا استشفى به ، ولا استسقى به ، ولا استنصر به ، ومن المعلـوم ان مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، بل على نقل ما هو دونه .[(١)]

بل الثابت ضد ذلك أنهم كانوا ينهون عن أقل من ذلك ، كما ثبـت ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنكر رضي الله عنه على أنس صلاته عند القبـر ، وقال له : (القبر ، القبر)[(٢)] .

وكما فعل الصحابة رضي الله عنهم بقبر دانيال لما فتحوا تستر[(٣)] ، اذ حفروا قبورا متفرقة ودفنوه ليلا في احدها وسووا القبور جميعا لئلا يعرفـه الناس .[(٤)]

وهذه ثمرة تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الأخيار الذيـن كانوا جنودا اقوياء لهذه العقيدة ، وحراسا اوفياء لها ، يحبون ويعظمون ما أحبه الله ورسوله وعظمه ويكرهون ويحرمون ما كرهه الله ورسوله وحرمه .

وانما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحده لا شريك له ، وهي المساجـد التي تشرع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة ، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء لله ، قال تعالى : ((وان المساجد للـه فلا تدعوا مع الله أحدا))[(٥)] .

---

(١) ابن قيم الجوزيه ـ اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢٠٤/١ .

(٢) البخاري بشرحه ٥٢٣/١ .

(٣) تستر : بضم التاء الأولى وفتح الثالثة وبينهما سين ساكنة : مدينة باقليـم خوزستان فتحها ابو موسى الاشعري رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضـي الله عنه . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٩/٢ .

(٤) انظر كتاب اقتضاء الصراط المستقيم /٦٨٠ ت د. ناصر العقل ، واغاثـة اللهفان لابن قيم الجوزيه ٢٠٣/١ .

(٥) الآية ١٨ من سورة الجن

وقال تعالى : ((قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد))[١]

وقال تعالى : ((انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين))[٢] .

وقال تعالى : ((في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغد والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأقام الصلاة وايتاء الزكاء ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب))[٣] .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٨ من سورة التوبة

(٣) الآيات من ٣٦ ـ ٣٨ من سورة النور .

التبـــــرك :

وهو اعتقاد البركة في شيء من الأشياء والتماسها منه سواء كان ذلك الشيء شخصا ، أو غيره من شجر وحجر ، وبقعة وقبر ، وغير ذلك .

وهو باب خطير ، دخلت منه على الاسلام والمسلمين شرور كثيرة لبست ثوب الحق والخير والاتباع ،فزلت اقدام كثير من الناس ، ووقع في الشرك كثير منهم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، ولفقت لذلك الأكاذيب وسميت أحاديث نسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا وبهتانا ، ونسجت الأقاويل والأباطيل ، وعزيت الى كثير من سلف الأمة وعلمائها زورا وضلالا ، كما كان المشركون من الأمم السابقة يعكفون على قبور الأنبياء والصالحين ويتخذونها اعيادا ويعتقدون فيها جلب البركة والنفع ودفع الضر ، وسرى ذلك في هذه الأمة مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟)[1] .

وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه الآتي ذكره (الله اكبر انها السنن) .

" ولقد عمت البلوى بذلك وطمت في كل زمان ومكان حتى في هذه الأمة ، لا سيما في زماننا هذا ، ما من قبر ولا بقعة يذكر لها شيء من الفضائل ، ولو كذبا ، الا وقد اعتادوا الاختلاف اليها والتبرك بها حتى جعلوا لها أوقاتا

---

(١) البخاري بشرحه ٤٩٥/٦ ، ومسلم بشرحه ٢١٩/١٦ ، ٢٢٠ .

معلومة يفوت عيدهم بفواتها ، ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجل ذلك العيد المعلوم ، وآل بهم الأمر الى أن صنفوا في أحكام حجهم اليها كتبا سموها مناسك حج المشاهد ، ومن أخل بشيء منها ، فهو عندهم أعظم جرما ، ممن أخل بشيء من مناسك الحج الى بيت الله الحرام ، وجعلوا لها طوافا معلوما ، كالطواف بالبيت الحرام ، وشرعوا تقبيلها كما يقبل الحجر الأسود حتى قالوا : ان زحمت فاستلم بمحجن أو اشر اليه ، قياسا على فعل النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر الأسود ، وشرعوا لها نذورا من المواشي والنقود ، ووقفوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها ، وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية ، وقواعدهم الوثنية "[1]

وكما حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيان الطريق المشروع فيما يتعلق بالقبور ، وحذر من مخالفته واهتم بذلك اعظم اهتمام ، كذلك كان عليه الصلاة والسلام في أمر التبرك وارتباطه بالقبور واضح جلي ، اذ هو هدف كثير ممن يقصد القبور والمشاهد ويتمسح بها ويتحرى الصلاة والدعاء عندها .

روى ابو واقد الليثي رضي الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين ، ونحن حديثوا عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها اسلحتهم ، يقال لها ـ ذات أنواط ـ فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله اكبر ، انها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا اسرائيل لموسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهم ، لتركبن سنن من كان قبلكم)[2] .

---

(١) حافظ حكمي ـ معارج القبول ٤٧٥/١ ـ ٤٧٦ .

(٢) سنن الترمذي ٤٧٥/٤ ، وصححه الالباني في صحيح سنن الترمذي ٢٣٥/١ .

فقد شبه عليه الصلاة والسلام قول اصحابه - اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط - بقول بني اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام بعد خروجهم من البحر، وقد مروا على قوم يعكفون على اصنام لهم فطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام ان يجعل لهم آلهة مثل أولئك كما قال الله عز وجل : ((وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهه ، قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين))[1].

"فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها ، معلقين عليها سلاحهم ، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين ، أو هو الشرك بعينه ؟

فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ، ولم تستحب الشريعة ذلك ، فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء كانت البقعة شجرة أو عين ماء أو قناة جارية ، أو جبلا ، أو مغارة ، وسواء قصدها ليصلي عندها ، أو ليدعو عندها ، أو ليذكر الله سبحانه عندها ، أو ليتنسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به لا عينا ولا نوعا .

وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهنا لتنور به ويقال : انها تقبل النذر ، كما يقال بعض الضالين ، فان هذا النذر نذر معصية باتفاق العلماء ، ولا يجوز الوفاء به ، بل عليه كفارة يمين عند كثير من اهل العلم".[2]

---

(١) الآيات ١٣٨ - ١٤٠ من سورة الأعراف .

(٢) ابن تيمية - اقتضاء الصراط المستقيم تحقيق د. ناصر العقل .

وقد لا يكون الدافع أول الأمر شركا ، ولا يقصد به ذلك ، ولكن الشيطان ما يلبث أن يزين للناس تلك المخالفة ويحببها الى قلوبهم ، وان لم يجد لها أهلا في جيل وجد في الجيل الآخر ، حتى يصل بأهلها الى الشرك بالله تعالى ، ثم يتبرأ منهم كماأخبر الله عنه ، ولأجل ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على حماية هذه العقيدة ، وسد كل ثغرة مهما كانت صغيرة لئلا تكون مدخلا للشيطان وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ان الصحابة رضي الله عنهم ، لم يقصدوا بطلبهم ذات انواط أن يفعلوا شركاء بعد ان انعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، ولم يقصدوا ما قصد غيرهم ، بل ظنوا ذلك أمرا محبوبا أرادوا التقرب به ، وهم أجل من ان يقصدوا مخالفته صلى الله عليه وسلم ، ولكنه مع ذلك استعظم طلبهم ذلك وشبههبطلب بني اسرائيل من موسى عليه الصلاة والسلام ، وسمى تعظيم هذه الشجرة والعكوف عندها تألها ، خوفا عليهم من الشرك ، وحماية لجانب العقيدة وسدا لكل ابواب الشرك وذرائعه .

" فاذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ اله مع الله تعالى ، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه ، والدعاء عنده ، فأي نسبة للفتنة بشجرة الى الفتنة بالقبر ؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون . قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك : فانظروا رحمكم الله اينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون المسامير والخرق فهي ذات انواط فاقطعوها "(١)

---

(١) ابن قيم الجوزيه ـ اغاثة اللهفان ١/٢٠٥ .

فاعتقاد حصول البركة من غير الله تعالى من قبر أو صنم أو شجـــــرة ، أو غيرها شرك حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا تحري الدعاء فـي هذه الأماكن لأجل القبول والبركة .

والتبرك بآثار الصالحين ، واعتقاد ذلك فيهم ، لم يفعله اصحاب رســـول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعون لهم باحسان ، وهم القدوة والأســـوة ، الا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مع الرسول صلى الله عليه وسلـــم وحده دون غيره في حياته عليه الصلاة والسلام ، فان الرسول الله صلى الله عليـــه وسلم له في حياته خصائص لم يشاركه فيها غيره ، وهو المقطوع ببركته عليه الصـــلاة والسلام ، وهذا هو التبرك المشروع ، ولم يعرف عن الصحابة رضي الله عنهـــم انهم كانوا يفعلون ذلك مع غيره عليه الصلاة والسلام ، مهما كان فضله ومنزلته ، وهم خير الأمة وأفضل الناس بعد الأنبياء والرسل ، واشدهم تمسكا ، وخيرهـــم ايمانا واحسنهم واصفاهم عقيدة ، ولو كان ذلك خيرا لكانوا اسبق الناس اليـــه واحرصهم عليه رضوان الله تعالى عليهم ، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلـم الذي رباهم وعلمهم كل خير وحذرهم من كل شر ، فكان يرشدهم ويوجههم ويبيـــن لهم كما بين لهم عندما طلبوا منه ذات انواط وظنوا ذلك حسنا .

فاذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنا ، وطلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم ان ذلك كقول بني اسرائيل : ((اجعل لنا الها كما لهم آلهة)) فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل باضعاف مضاعفة ، مع غلبـــة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة ، بل خف عليهم عظائم الشرك في الالهيـــة والربوبية ، فاكثروا فعله ، واتخذوه قربه .(1)

---

(1) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ - فتح المجيد ص ١١٤ .

ومن الناس من يترك عمل الصالحات ويتعلق بالآثار والأشخاص معتقـــــــدا البركة فيهم ، ويفوت عمره في طلب ذلك ، وانما البركة والخير كل الخير فـــــي الايمان الصادق والعمل الصالح والعلم الصحيح من كتاب الله تعالى والسنة الثابتة عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

$$$$$ $$$$$ $$$$$

$$$$$ $$$$$

$$$$$

؟

الرقـــي والتمائـــم :

والمقصود بالرقي غير المشروع منها وهي التي تسمى العزائم ، التـــــــي يعتقدون فيها دفع الآفات والحفظ من المكروهات ، وهي المقصود في قول الرســول صلى الله عليه وسلم كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه : (ان الرقي والتمائـــم والتولة شرك)[1].

أما ما كان منها من المشروع والمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدخل في ذلك ، لما جاء في الحديث عن عـــوف بن مالك رضي الله عنــــه قال : كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : (اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقي ما لم تكن شركا)[2].

والرقي المشروعة هي التي توفرت فيها شروط ثلاثة :

الأول : أن تكون بكلام الله أو باسمائه وصفاته .

الثاني : ان تكون باللسان العربي وبمعان معروفة .

الثالث : أن يعتقد ان الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله عز وجل .

أما التمائم : فهي جمع تيممه وهي : ما يعلق عادة على الصبيان مـــــن خرز أو عظام أو جلد أو نحو ذلك لاعتقاد دفع العين عنهم ، وقد نهى رسول اللـه صلى الله عليه وسلم لما فيها من شرك ، أو ذريعة اليه .

---

(١) مسند الامام احمد بن حنبل ٣٨١/١ . وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي
(٢) صحيح مسلم بشرحه ١٨٧/١٤ .

أما التولة : بكسر التاء وفتح الواو فهي ما يصنع بزعم انه يحبب المـرأة الى زوجها[(١)] ، كما فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه : قالوا يا أبا عبدالرحمن هذه الرقي والتمائم قد عرفناها ، فما التولة ؟ قال : شيء تصنعه النساء يتحببـن الى أزواجهن .

وقال الحافظ رحمه الله تعالى : " التولة بكسر التاء وفتح الواو والـــلام مخففا شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر "[(٢)]

ومن ذلك ما يعلق على الابل من قلائد ونحوها باعتقاد انه ترد عنهـــا العين ، كما جاء في الحديث عن أبي بشير الانصاري رضي الله عنه انه كان مـــع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره ، فأرسل رسولا : (ان لا يبقيـــن في رقبة بعير قلادة من وتر ، أو قلادة الا قطعت)[(٣)] .

وهذه الأحاديث وغيرها والتي تنهى عن هذه الأمور ، التي فيها توكل علـــى غير الله تعالى ، واعتقاد جلب نفع أودفع ضر من دونه عز وجل ، والله تعالى يقول : ((وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضلـــه يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم))[(٤)] .

ويقول جل شأنه : ((ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فـــان فعلت فانك اذاً من الظالمين))[(٥)] .

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢٠٠/١ .
(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ص ١٦٩ .
(٣) صحيح البخاري بشرحه ١٤١/٦ ومسلم بشرحه ٩٥/١٤ .
(٤) الآية ١٠٧ من سورة يونس .
(٥) الآية ١٠٦ من سورة يونس .

ويقول جل جلاله : ((وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير))[١] .

وأمر سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول لمن توكل والتجأ الى غيره من دونه لجلب نفع أو دفع ضر ((قل ادعوا الذين زعمتهم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا))[٢] .

ولما لهذه من الكثرة والانتشار بين الناس قديما وحديثا ، وما يعتقد أن تفضي اليه من مخالفة لعقيدة التوحيد ، ومنافاة لصحة التوكل على الله عز وجل واعتقاد في غيره فيما لا يقدر عليه الا هو سبحانه ، فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حماية التوحيد من مثل الأمور التي قد يتساهل فيها المرء مع خطورتها .

" فمن تعلق بالله ، وانزل حوائجه به ، والتجأ اليه ، وفوض أمره اليه ، كفاه وقرب اليه كل بعيد ، ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن الى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكله الله الى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب . قال تعالى : ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه))[٣] [٤] .

---

(١) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٥٦ من سورة الاسراء .
(٣) من الآية ٣ من سورة الطلاق .
(٤) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ـ فتح المجيد ص ١٠٥ .

الاستسقاء بالانــواء :

ومعناه نسبة السقيا ونزول المطر الى الانواء ، والانواء : جمع نـــوء ، وهي منازل القمر ، وسميت بذلك : لأنه اذا سقط الساقط منها ناء الطالـــع بالمشرق أي : نهض ، وهي ثمان وعشرون منزلة كما قال تعالى : ((والقمـــر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم))[١] .

وقد كان العرب في الجاهلية يزعمون أنه مع سقوط منزلة وظهور أخرى مـن منازل القمر يكون مطرا ، وينسبون ذلك اليها فيقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

" فانهم يعتقدون أن لمطالع الكواكب ومغاربها وسيرها ، وانتقالها واقترانها وافتراقها تأثيرا في هبوب الرياح وسكونها ، وفي مجيء المطر وتأخره ، وفي رخص الأسعار وغلائها ، وغير ذلك ، فاذا وقع شيء من الحوادث نسبوه الى النجـــوم فقالوا : هذا بنوء عطارد أو المشتري أو المريخ أو كذا أو كذا[٢] .

" ورد الله تعالى ذلك عليهم ، واكذبهم بما انزله على رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، قال تعالى : ((الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فـــي السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا أصاب بـــه من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون ، وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم مـــن قبله لمبلسين ، فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتهـــا ، ان ذلك لمحي الموتى ، وهو على كل شيء قدير))[٣] .

---

(١) الآية ٣٩ من سورة يس .
(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٥١ .
(٣) الآيات ٤٨ ـ ٥٠ من سورة الروم .

وقال تعالى : ((خلق السموات بغير عمد ترونها ، والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وانزلنامن السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين))[1] [2] .

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين لأمته ما كان عليه لأهل الجاهلية من شرك وضلال ، وأمرهم بالحذر من ذلك والبعد عنه ، وأهم ذلك وأعظمه ما كان متعلقا بأمور الاعتقاد ، ومن ذلك ما كان شائعا في الجاهلية من نسبة نزول المطر الى النجوم ومطالعها ومغاربها ، وبين عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشرك المنافي للتوحيد ، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة**) .

وقال : (**والنائحة اذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**)[3] .

فبين عليه الصلاة والسلام أن مما سيكون في هذه الأمة وهو من أمر الجاهلية وعمل أهلها امورا منها : الاستسقاء بالنجوم ، وحذر منه لكونه من أمر الجاهلية وشركها الذي كانت عليه ، وكونه من أمر الجاهلية كاف في النهي والزجر عنه .

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .
(٢) حافظ حكمي - معارج القبول ٣٨٢/٢ ، ٣٨٣ .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٦٤٤/٢ .

كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية)[١]

وهذا يقتضي تجنب ما كان من أمور الجاهلية وخصالها المخالفة لهدى الاسلام وشرعه .

" وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية ، وفعلهم فهو مذموم ، في دين الاسلام ، والا لم يكن في اضافة هذه المنكرات الى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن اضافتها الى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله سبحانه وتعالى : ((ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى))[٢] ، فان في ذلك ذما للتبرج ، وذما لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة "[٣]

وهذا من معجزاته عليه الصلاة والسلام ، وحرصه على حماية هذه العقيدة ، وحراستها من كل شرك أو ذريعة اليه .

وعن زيد بن خالد[٤] رضي الله عنه قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب ، وأما من قال :مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)[٥] .

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ١٦٣/٣ ، وصحيح مسلم بشرحه ٩٩/١ .

(٢) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٣) ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٥/١، ٢٠٦ ، تحقيق د. ناصر العقل .

(٤) زيد بن خالد : هو الجهني ، مختلف في كنيته صحابي جليل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعثمان وأبي طلحة وعائشة ، كان معه لواء جهينة يوم الفتح . مات سنة ٧٨هـ . انظر الاصابة ٥٤٧/١ .

(٥) صحيح البخاري بشرحه ٥٢٢/٢ ، وصحيح مسلم بشرحه ٨٣/١ ، ٨٤ .

وهذا الحديث القدسي العظيم يخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل أن من الناس من ينسب نعمه سبحانه وتعالى الى غيره ، ويضيف افعاله الى سواه ، وهو تعالى المنعم وحده الذي يجب أن تنسب اليه وحده جميع النعم ، ونسبتها الى غيره شرك به جل شأنه ، فهو المتفرد بالرزق ، المستحق أن تنسب اليه النعم ويفرد بالشكر عليها وحده لا شريك له .

وهذا البيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم حماية منه لجناب التوحيد وحرصا على أمته من الشرك ، ومنه ما كان يعتادة اهل الجاهلية من نسبة المطر الى النجوم والأنواء ، وان كان فيهم من يقر بأن ذلك من الله تعالى كما قال سبحانه : ((ولئن سألتهم من انزل من السماء ماءاً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون))[1] .

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما بمعنى حديث زيد بن خالد الذي تقدم آنفا وفيه : (وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآيات : ((فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، افبهذا الحديث انتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم انكم تكذبون))[2])[3] .

فبين في هذا الحديث أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات من كتاب الله تعالى نسبتهم المطر الى الانواء والنجوم ، واقسم بها سبحانه ، فالمقسم به مواقع

---

(١) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيات من ٧٥ ـ ٨٢ من سورة الواقعة .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ٨٤/١ .

النجوم وجواب القسم ((انه لقرآن كريم)) ولعل في ذلك اشارة الى حكمة الهيئة عظيمة وهي ان الله قد جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، كما جاء ذلك صراحة في آيات أخرى ، وجعل القرآن هداية لهم كذلك من ظلمات الكفر والشرك والضلال . والله أعلم .

والحديث عن الاستسقاء بالنجوم والأنواء يدفع الى الكلام عن التنجيم وماجاء فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد)[١] .

فهذا الحديث يبين أن التنجيم نوع من انواع السحر الذي عده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات في الحديث الذي رواه ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٢] .

والتصديق بالتنجيم تصديق بشيء من السحر ، كما جاء في حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم)[٣] .

---

(١) مختصر ابي داود للحافظ المنذري ٣٧١/٥ .
(٢) صحيح البخاري بشرحه ٣٩٣/٥ ، وصحيح مسلم بشرحه ٩٢/١ .
(٣) مسند الامام أحمد ٢٢٧/١ .

وهناك احاديث اخرى في التحذير من ذلك حرصا منه عليه الصلاة والسلام على حماية التوحيد وسلامته من دنس الشرك ووسائله وطرقه .

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين الحكمة من خلق النجوم . قال عز وجل : ((ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير))[١] .

وقال تبارك وتعالى : ((وهو الذي جعل النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر))[٢] .

فهذه ثلاث حكم جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم فهي زينة للسماء ، ورجوم ترجم بها الشياطين عند استراقهم السمع ، ووسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر .

قال قتادة : " خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك اخطأ وأضاع نصيبه ، وكلف ما لا علم له به "[٣] .

والتنجيم الذي يدخل تحت هذا النهي والوعيد ما كان فيه ادعاء علم الغيب وربط حصول الأشياء وتأثيرها بالتنجيم ، أما ما يحتاج اليه مما يدرك

---

(١) الآية ٥ من سورة الملك .
(٢) الآية ٩٧ من سورة الأنعام .
(٣) سليمان بن عبدالله بن محمد عبدالوهاب - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٤٤٢ .

بالمشاهده كمعرفة ظل الشمس ، وجهة القبلة ، ونحو ذلك ، فلا يدخل تحت النهى .

وقد رخص في تعلم المنازل احمد واسحاق .

وروى ابن المنذر عن مجاهد (أنه كان لا يرى بأسا ان يتعلم الرجل منازل القمر) .

وقال ابن رجب : " والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير ، فانه باطل محرم قليله وكثيره ، واما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج اليه من الاهتداء ومعرفة القبلة ، والطرق جائز عند الجمهور "[1] .

---

(١) انظر كتاب بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب ـ ت محمد ابن ناصر العجمي ص ٢٦ .

الذبح لغير الله تعالى :

وهذا من عمل الجاهلية ، واهل الشرك في كل زمان ومكان ، وهو شرك أكبر يخرج صاحبه من ملة الاسلام الى الكفر .

وقد أمر الله جل شأنه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يعلن على المشركين : ((قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))(١) .

وهذه هي درجة الكمال في العبودية لله تعالى لا شريك له ، والولاء الخالص له سبحانه وتعالى ، وهي مفاصلة كاملة عما عليه اهل الجاهلية .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : " يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه ، انه مخالف لهم في ذلك ، فان صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ((فصل لربك وانحر))(٢) . أي : اخلص له صلاتك وذبحك ، فان المشركين كانوا يعبدون الأصنام ، ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم ، والانحراف عما هم فيه ، والاقبال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى "(٣)

وقد حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره به ربه تبارك وتعالى حقق ذلك قولا وعملا وعلم ذلك أمته ، وشدد في النهي عن مخالفته كما في حديث

---

(١) الآيتان ١٦١ ، ١٦٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢ من سورة الكوثر .
(٣) الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ١٩٨/٢ .

علي رضي الله عنه قال : (حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غير منار الأرض)[1].

واللعن معناه : الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى .

وهذا دليل على خطورة هذه الأمور التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعظمها خطرا الذبح لغير الله عز وجل ، من الاصنام والأولياء والسادة والكهان والسحرة والمنجمين ، أو الاشجار والكواكب ، وجميع ما أهل به لغير الله تعالى ، وكل ما كانت الجاهلية تفعله من هذا الأمر ، كالفرع[2] والعتيرة[3] ونحوهما ، فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : (لا فرع ولا عتيره)[4].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى عند تفسير قوله عز وجل : ((وما أهل به لغير الله)) : " والمراد هنا ما ذكر عليه اسم غير الله ، كاللات والعزى ، اذا كان الذابح وثنيا ، والنار اذا كان الذابح مجوسيا ، ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله ، ومثله ما يقع من المعتقدين للاموات من الذبح على قبورهم ، فانه مما أهل به لغير الله ، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن "[5]

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير الآية السالفة الذكر : " أي : ذكر

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ١٤١/٣

(٢) الفرعة والفرع : أول ما تلد الناقة ، كانوا يذبحونه لآلهتهم . انظر النهاية في غريب الحديث ٤٣٥/٣ .

(٣) العتيرة : وجمعها عتائر ، وهي الشاة تذبح في رجب ، وكان اهل الجاهلية ينذرون ذلك لاصنامهم . انظر النهاية ١٧٨/٣ .

(٤) صحيح البخاري بشرحه ٥٩٦/٩ ، وصحيح مسلم بشرحه ١٣٥/١٣ .

(٥) محمد بن علي الشوكاني ـ فتح القدير ١٧٠/١ .

غير اسم الله تعالى ، وهي ذبيحة المجوسي ، والوثني ، والمعطل ، فالوثني يذبح للوثن ، والمجوسي للنار ، والمعطل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه "[١] .

فالذبح لله تعالى تقربا اليه سبحانه من افضل وأعظم القربات ، كما ان الذبح لغيره تقربا من اعظم الذنوب والآثام ، اذ هو الشرك الأكبر المخرج من الملة الذي لا يغفره الله تعالى لمن مات وهو عليه ولم يتب ، كما قال جل شأنه : ((ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء))[٢] .

وقال تبارك وتعالى : ((انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من انصار))[٣] .

وسواء اكان المتقرب به كبيرا أو صغيرا عظيما او حقيرا ، فان المقصود عمل القلب ، ولهذا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين ذلك لأمته ، ليحترسوا منه كما روى طارق بن شهاب[٤] ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب ، قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال : ليس عندي شيء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا ، فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة)[٥]

---

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٢٣ .
(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٤) طارق بن شهاب بن عبد شمس البجلي الأحمسى ابو عبد الله صحابي جليل مات سنة ٨٢ هـ انظر الاصابة ٢/٢١١ ، ٢١٢ .
(٥) كتاب الزهد للامام احمد ص ١٥ ، ١٦ . والحلية لأبي نعيم ١/٢٠٣ عن طارق بن شهاب عن سلمان موقوفا بسند صحيح .

ففي هذا الحديث بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أمورا عظيمة منها :

١) ان صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى شرك ، وان كانت تلك العبادة يسيرة في نظر فاعلها .

٢) ان اعظم مقصود الشيطان وأوليائه ان يقبل العبد شركهم ذلك ، اذ المقصود عمل القلب .

٣) شدة خطر الشرك ، وانه محبط لعمل صاحبه ، ومورد له الى النار .

٤) عظمة منزلة التوحيد في قلوب المؤمنين ، حتى ولو قدموا حياتهم في سبيله .

٥) شدة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على امته وما من الله به عليها من نعمة التوحيد ، وحمايته عليه الصلاة والسلام لهذا التوحيد من كل شرك او ذريعة اليه .

ومن حرصه صلى الله عليه وسلم وحمايته لجناب التوحيد ، انه كان يعلم اصحابه الا يفعلوا شيئا من القربات لله تعالى في مكان كان يتقرب فيه لغير الله عز وجل ، أو يعتاده المشركون في اعمالهم الجاهلية ، سدا لذريعة الشرك ووسائله والتذكير بأهله وأعمالهم ، وان كان العمل في نفسه ليس شركا .

فقد جاء في الحديث عن ثابت بن[١] الضحاك رضي الله عنه قال : (نذر رجل ان ينحر ابلا ببوانة[٢] فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن

(١) هو ابن خليفة بن ثعلبة الانصاري الاشهلي شهد بدرا ، وبيعة الرضوان ، وفي سنة موته خلاف . انظر الاصابة ١/١٩٥ .

(١) بُوانه : بضم الباء : هضبة من وراء ينبع .
انظر النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ١/١٦٤ .

من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا ، قال فهل كان فيها عيد من اعيادهم ؟ قالوا : لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك ، فانه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم)[1].

فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي نذر أن يذبح لله في ذلك المكان سأله تلك الأسئلة ، سدا للذريعة ، وخوفا من مشابهة المشركين ايا كانت تلك المشابهة ، ولو كانت تلك الأوثان أو الأعياد قد زالت واندثرت ، كل ذلك حماية منه عليه الصلاة والسلام لحمى التوحيد ان يصل اليه شرك ، أو مشابهة لأهله ، ولذلك لما علم بخلو ذلك المكان من هذه الأمور قال للرجل (أوف بنذرك) ثم عقب على ذلك بقوله : (فانه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما يملك ابن آدم) .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وهذا يدل على أن الذبح بمكان عيدهم وكل أوثانهم معصية لله من وجوه :

أحدها : ان قوله (اوف بنذرك) تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء : وجود المنذر خاليا من هذين الوصفين ، فيكون الوصفان مانعين من الوفاء ، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به .

الثاني : انه عقب ذلك بقوله : (لا وفاء لنذر في معصية الله) ولولا اندراج الصورة المسؤول عنها في هذا اللفظ العام ، والا لم يكن في الكلام ارتباط.

---

(١) مسند الامام احمد ٣٥٣/٥ ، ٣٥٦ .
مختصر سنن ابي داود للحافظ المنذري ٣٨٢/٤ .

والمنذور في نفسه - وان لم يكن معصية - لكن لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن الصورتين قال له : (فأوف بنذرك) يعني : حيث ليس هناك ما يوجب تحريم الذبح هناك ، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم فيه أمر بالوفاء عند الخلو من هذا ، ونهى عنه عند وجود هذا ، وأصل الوفاء بالنذر معلوم ، فبين ما لا وفاء فيه .

واللفظ العام اذا ورد على سبب ، فلابد ان يكون السبب مندرجا فيه .

الثالث : انه لو كان الذبح في موضع العيد جائزا لسوغ النبي صلى الله عليه وسلم للناذر الوفاء به ، كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدف ، ان تضرب به ، بل لأوجب الوفاء به ، اذ كان الذبح بالمكان المنذور واجبا ، واذا كان الذبح بمكان عيدهم منهيا عنه ، فكيف بالموافقة في نفس العيد ، بفعل بعض الأعمال التي تعمل بسبب عيدهم ؟.

الى أن قال رحمه الله : " فان كان من أجل تخصيص البقعة - وهو الظاهر - فانما نهى عن تخصيص البقعة لأجل كونها موضع عيدهم ، ولهذا لما خلت من ذلك أذن في الذبح فيها ، وقصد التخصيص باق ، فعلم : ان المحذور تخصيص بقعة عيدهم ، واذا كان تخصيص بقعة عيدهم محذورا ، فكيف نفس عيدهم ؟

هذا كما أنه لما كرهها لكونها موضع شركهم بعبادة الأوثان كان ذلك أدل على النهي عن الشرك وعبادة الأوثان .. ثم قال رحمه الله : " فليس بعد حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم غاية - بأبي هو وأمي - وكل ذلك من فضل الله عليه وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون "[1].

---

(١) ابن تيمية - اقتضاء الصراط المستقيم ت د. ناصر العقل ٤٤٠/١ ، ٤٤٥ .

السحر والكهانـــــة :

السحر والكهانة من اشد الأخطار على عقيدة التوحيد ، وأكثرها انتشـــارا بين الناس ، وتلبيسا عليهم وتغريرا بهم ، أدت بكثير منهم الى الشرك من حيث يشعر أو لا يشعر ، والخطر فيهما لا يقتصر على الساحر والكاهن وحدهما فكفرهما وشركهما معلوم ، ولكن ذلك يصل الى كل من يأتيهما ، وكل من يصدقهمـــــا ، ومثلهم العرافون ، فالكل تجمع بينهم الولاية للشياطين يطيعونهم من دون اللـــه تعالى وتخدمهم الشياطين في بعض ما يريدون ، فيلبسون على الناس ، ويكذبـــون ويحتالون عليهم ، ويدعون بذلك الولاية والكرامة وعلم الغيب ، وينخدع بهـــم بسطاء العقول وضعفاء الايمان ، اذ يلبسون عليهم في دينهم ، ويفتنونهم فـــي عقيدتهم .

وشرهم وخطرهم عظيم قديما وحديثا ، ولذلك فقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير منهم باتيانهم أو تصديقهم أو تعلم شيء مما يعملون .

من ذلك : ما رواه ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : **(اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قـــال : الشرك بالله والسحر ..)** الحديث .[1]

وكل الأحاديث التي وردت في عدد الكبائر وبيانها كان منها السحر .

وعن بجالة بن عبده قال قال : **(كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه ان اقتلوا كل ساحر وساحره ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر)**[2].

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٥٦ .

(٢) مسند الامام احمد ١/١٩٠ ، ١٩١ ، ابو عبيد ـ كتاب الأموال ص ٣٥ .

وعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من اتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة اربعين يوما)[١] . أي : لا ثواب له عليها .

وعن معاوية بن الحكم السلمي[٢] رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان . قال : (فلا تأتوا الكهان قال : قلت : كنا نتطير . قال ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم)[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من اتى كاهنا ـ قال موسى في حديثه ـ : فصدقه بما يقول أو أتى امرأة ـ قال مسدد : امرأته حائضا أو اتى امرأة ـ قال مسدد : يعنى امرأته في دبرها ، فقد بريء مما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم)[٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم)[٥]

---

(١) صحيح مسلم بشرحه ٢٢٧/١٤ ، ومسند الامام احمد ٦٨/٤ ، ٣٨٠/٥ .

(٢) معاوية بن الحكم السلمي ، سكن المدينة ، قال البخاري : له صحبة ويعد في أهل الحجاز . انظر الاصابة ٤١١/٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرحه ٢٢٣/١٤ .

(٤) مسند الامام احمد ٤٠٨/٢ .

(٥) مسند الامام احمد ٤٢٩/٢ ، الحاكم ـ المستدرك ٨/١ .

والسحـــــر :

رقى وعزائم وعقد يفعلها السحرة تؤثر في القلوب وفي الأبدان بمرض أو قتل أو تفريق بين المرء وزوجه ، وغير ذلك ، كما أخبر الله عن ذلك في كتابـــه الكريم فقال : ((فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه))[1] ، ويقع ضرره بمشية الله عز وجل ((وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله))[2] .

والسحر حقيقة ، وقد أمر الله بالاستعاذة من أهله اذ يقول عز وجـــل : ((قل اعوذ برب الفلق) من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شـــر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد))[3] والنفاثات هن : السواحر .

والسحر انواع كثيرة ليس هذا مقام الحديث عنها ، وكلها شرك وكفـــر بالله تبارك وتعالى كما قال سبحانه وتعالى : ((وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هارون ومـــاروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر))[4] .

قال ابو بكر بن العربي رحمه الله : " وما كفر سليمان قط ولا سحـــر ، ولكن الشياطين كفروا بسحرهم ، وأنهم يعلمون الناس ، ومعتقد السحر كافـــر ، وقائله كافر ، ومعلمه كافر ، ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين ببابل هـــاروت وماروت ، وما كان الملكان يعلمان أحدا حتى يقولا ((انما نحن فتنة فلا تكفر

---

(١) و (٢) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٣) سورة الفلق .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين من أحــــد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم))[1] "[2].

وقد ذم الله عز وجل السحر وأهله في كتابه الكريم ، وبين بطلان عملهم ، وانهم لا خلاق لهم في الآخرة وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه منها :

قوله عز وجل : ((ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خــلاق ، ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون))[3].

وقوله تعالى : ((فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به لسحر ان اللـــــه سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين))[4].

وقوله تبارك وتعالى : ((انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحــــر حيث أتى))[5]

أما الكاهــن :

فهو الذي يخبر عن المغيبات ، يأخذها عن مسترق السمع من الشياطيــــن يصدقونه مرة ويكذبون معها مائة كذبه كما جاء في الحديث عن أبي هريـــــرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا قضى الله الأمر فــــي السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فـاذا

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٢) ابو بكر بن العربي - احكام القرآن ٢٨/١ .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٨ من سورة يونس .
(٥) الآية ٦٩ من سورة طه .

فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فخرفها وبدد بين اصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبلها ان يلقيها ، وربما القاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قال لنا يوم كذا أو كذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)[١] .

<u>والعراف :</u>

اعم من الكاهن اذ يشمله ويشمل المنجم والرمال ونحوهم ، والعرافة من السحر .

قال الامام احمد رحمه الله : " العرافة طرف من السحر ، والسحر أخبث "[٢] .

وهم جميعاتجمعهم ولاية الشيطان ، وادعاء علم الغيب ، واستخدام الشياطين وادعاء انهم اولياء الله وان ما يعملونه كرامة ، والحق أنهم أولياء الشيطان وعملهم كذب وشعوذة ، يلبسون به على جهلة المسلمين .

" ولا ريب ان من ادعى الولاية ، واستدل باخباره ببعض المغيبات ، فهو من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن ، اذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي ، اما بدعاء ، أو اعمال صالحة ، لا صنع للولي فيها ، ولا قدرة له

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ٥٣٧/٨ .
(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ـ فتح المجيد ٢٥٦ .

عليها ، بخلاف من يدعي أنه ولي ويقول للناس : اعلموا أني اعلم المغيبات، فان هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وان كانت اسبابا محرمة كاذبة في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكهان : (فيكذبون معها مائة كذبة) ، فبين انهم يصدقون مرة ، ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس ، مع ان نفس دعواه دليل على كذبه ، لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى : ((فلا تزكوا انفسكم))[١] ، وليس هذا من شأن الأولياء ، فان من شانهم الازراء على نفوسهم وعيبهم لها ، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وانا نعلم الغيب ".[٢]

والكلام عن السحر والكهانة والعرافة وأهلها طويل يحتاج اكثر من هذا وليس هذا مقام التفصيل في ذلك ، والقصد بيان خطر ذلك على عقيدة التوحيد قديما وحديثا ، واغترار كثير من الناس بما يلبسونه عليهم ليوقعوهم به في الشرك والكفر والضلال ، فيفسدون على الناس توحيدهم ويصرفونهم عن عبادته سبحانه وتعالى الى عبادة الجن والشياطين وغيرهم والتعلق بهم من دون الله تعالى .

وبيان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته وعقيدتها وتحذيره أشد التحذير من هذه الأمور وأهلها ، حفاظا على هذه العقيدة وحماية لها من الشرك وأهله .

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة النجم .

(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ـ فتح المجيد ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

الشفاعـــــــة :

الشفاعة من أهم الوسائل التي اتخذها المشركون قديما وحديثا طريقـــــا للعبادة ، فكانت سببا في وقوعهم في الشرك ، وهم يظنون أنهم بذلك قد أصابـــوا الحق ، وسلكوا الصراط المستقيم في اتخاذهم هذه الوسائل والوسائط ، ورأوا أن هذا هو الذي يليق مع الله ، والطريق الصحيح الذي يوصل اليه .

وهم في حقيقة الأمر قد اخطأوا الطريق ، وفاتهم الصواب ، وظنوا بربهـــم ظن السوء ، وهو الذي أمرهم بافراده بالعباده واخلاصها له وحده سبحانه لا شريـك له .

قال جل شأنه : ((ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهـــــم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله))[1] .

وقال عز وجل : ((قل ادعوا الذين زعمتهم من دون الله لا يملكون مثقـال ذرة في السموات والأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير))[2]

وقال سبحانه وتعالى : ((والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهـــــم الا ليقربونا الى الله زلفى))[3]

فهذه الآيات الكريمات تبين ما عليه المشركون من اتخاذا الشفعاء مـــن دون الله تعالى ، فيدعونهم ويتوجهون اليهم من دون الله عز وجل ، ويـــــرون

---

(١) الآية ١٨ من سورة يونس .
(٢) الآية ٢٢ من سورة سبأ .
(٣) من الآية ٣ من سورة الزمر .

أن ذلك هو الطريق الصحيح للعبادة ، وقد أخبر الله تعالى عن عملهم ذلك انه شرك ، وذمهم ، وذم فعلهم ، فذلك دعوة غيره من دونه سبحانه ، وهذا هو عين الشرك .(١)

وقد بعث الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم والمشركون على ذلك ، فدعاهم الى التوحيد الخالص لله تعالى ، وترك ما هم عليه من اتخاذ الشفعاء والانداد من دونه سبحانه بدعوى أنها تقربهم الى الله ، ونزلت عليه الآيات الكثيرة التي تبين بطلان هؤلاء الشفعاء وشفاعتهم بكل صورها ، وانه ليس لأحد من العباد ولي ولا شفيع من دون الله عز وجل ، قال سبحانه : ((الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون))(٢) .

وقال تعالى : ((ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ، وكانوا بشركائهم كافرين))(٣) .

وقال عز وجل : ((ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون))(٤)

وآيات أخرى كثيرة تنفي كل شفاعة فيها شرك بالله تعالى ، وتبطل ما يدعيه المشركون من اتخاذ الشفعاء ، وآيات اخرى تبين ان الشفاعة كلها لله

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢) الآية ٤ من سورة السجدة .

(٣) الآية ١٣ من سورة الروم .

(٤) الآية ٨٦ من سورة الزخرف .

(٥) الآية ٤٤ من سورة الزمر .

تعالى وحده لا شريك له ، يعطيها لمن يشاء ويرضى كما قال تعالى : ((قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض))[(١)] .

وقال جل شأنه : ((ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له))[(٢)] .

وقال سبحانه : ((يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا))[(٣)] .

وقال تبارك وتعالى : ((من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه))[(٤)] .

وقال عز وجل : ((وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن لله لمن يشاء ويرضى))[(٥)]

فنزلت هذه الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين ان الشفاعة لله يأذن فيها لمن رضي عنه ، كما بينت الآيات السابقة بطلان دعوى المشركين واعتقادهم في شفعائهم وشركائهم .

فتبين ان لشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ، ويفعلها بعضهم مع بعض ، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على انها هي المعروفة والمشاهدة عند الناس ، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع الا من بعد اذنه ، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه ، فانه الذي أذن ، والذي قبل ،

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٢٣ من سورة سبأ .
(٣) الآية ١٠٩ من سورة طه .
(٤) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٢٦ من سورة النجم .

والذي رضي عن المشفوع له ، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله ، فمتخذ الشفيع مشرك ، لاتنفعه شفاعته ، ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده الهه ومعبوده ومحبوبه ، ومرجوه ، ومخوفه الذي يتقرب اليه وحده ، ويطلب رضاه ، ويتباعد من سخطه ، هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه ، قال تعالى : ((أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعا))[١].

وقال تعالى : ((ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل اتنبئوون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون))[٢].

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون ، وان الشفاعة لا تحصل باتخاذهم وانما تحصل باذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع له "[٣].

والرسول صلى الله عليه وسلم بين ذلك لأمته وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم الذي يصلهم بربهم دون شفعاء ولا وسائط ، وهو طريق التوحيد الخالق لله عز وجل وافراده سبحانه بالعباده دون ما سواه ، أما الشفاعة المثبتة التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلها شرطان :

أولهما : الاذن من الله تعالى للشافع . قال تعالى : ((من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه))[٤].

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الزمر .
(٢) الآية ١٨ من سورة يونس .
(٣) ابن قيم الجوزيه - اغاثة اللهفان ٢٢٢/١ .
(٤) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

وثانيهما : الرضا عن المشفوع له : قال تعالى : ((ولا يشفعون الا لمن ارتضى))[١] .

وقد جمع هذين الشرطين قوله عز وجل : ((وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى))[٢] .

وهذه الشفاعة خص الله تعالى بها اهل توحيده وعبادته تفضلا منه وكرما ، فهذه خاصة بهم لانهم لم يتخذوا من دون الله وليا ولا شفيعا ، وقد رضي الله قولهم وعملهم كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (من اسعد الناس بشفاعتك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه))[٣] .

وأول الشافعين رسول الله صلى الله عليه وسلم امام الموحدين وخاتم المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والذي اختصه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم تفضلا وتكريما منه سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ورحمة بأمته عليه الصلاة والسلام كما روى ابو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل بني دعوة مستجابة ، واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا)[٤] .

فله عليه الصلاة والسلام الشفاعة العظمى يوم القيامة والتي يتخلى عنها

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الانبياء .

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم .

(٣) البخاري بشرحه ٤١٨/١١ ، ومسند الامام احمد ٣٠٧/٢ .

(٤) صحيح البخاري بشرحه ٤٤٧/١٣ ، ومسلم بشرحه ٧٤/٣ .

أولوا العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهي كما بين انها لأهل التوحيـــــد من أمته .

وهو الذي يشفع دخول المؤمنين الجنة ، وفي اخراج عصاة الموحدين مـــــن النار ، وله شفاعة في عمه أبي طالب .

وهذا من كريم فضل الله تعالى على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلـم نسأل الله أن يرزقنا صدق الاتباع له في الدنيا ، وان يسعدنا بشفاعته في الآخـرة .

والشفاعة انما تكون وتنفع اهل التوحيد ، أما غيرهم فهم كما قال عز وجل : ((فما تنفعهم شفاعة الشافعين))(١) .

قال ابن قيم الجوزيه رحمه الله تعالى عن الكلام عن حديث أبي هريــــــرة السابق : " تأمل هذا الحديث كيف جعل اعظم الأسباب التي تنال بها شفاعتـــه تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين ان الشفاعة تنال باتخاذهم شفعـــــــاء عبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكـــــاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفـــع ، ومن جهل المشرك اعتقاده ان من اتخذ وليا أو شفيعا ان يشفع له وينفعه عنـــــد الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد الا باذنه في الشفاعة ، ولا يأذن في الشفاعة الا لمن رضي قولـــــــــه وعمله "(٢) .

وقال رجـــــل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انا نستشفع بك علـــى

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر .
(٢) ابن قيم الجوزيه ١/٣٤١ .

الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رؤي ذلك في وجوه أصحابه وقال : (ويحك أتدري ما الله ؟ ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك)[١].

وهذا الحرص الشديد من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الشفاعة ، حماية لعقيدة التوحيد من كل شرك أو ذريعة اليه ، أو تشبه بأهله ، اذ الشفاعة - كما سبق ذكره - كانت من أول الأسباب التي أوقعت المشركين في الشرك بالله عز وجل وذلك باتخاذهم الشفعاء ، واعتقادهم أن عبادة الله تعالى لا تتم الا عن طريقهم وبواسطتهم ، فبين عليه الصلاة والسلام الطريق القويم ، الموافق لتوحيد الله تعالى في هذه الشفاعة لئلا تقع امته في شيء من ذلك ، وليعلموا ان الشفاعة لله جميعا ياذن فيها لمن يشاء ممن يرضى قوله وعمله ، لا كما يفعله المشركون ويعتقدونه .

"وسر ذلك : ان الأر كله لله وحده ، فليس لأحد معه من الأمر شيء ، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون ، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ، ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئا الا بعد اذنه لهم وأمرهم ، ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، فهم مملوكون مربوبون ، أفعالهم مقيدة بأمره واذنه ، فاذا أشرك بهم المشرك ، واتخذهم شفعاء من دونه ظنا أنه اذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله ، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ، ويمتنع عليه ، فان هذا محال ممتنع ، شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء ، حيث يتخذ الرجل من

---

(١) مختصر سنن ابي داود ٩٤/٧ ، ٩٥ .

خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج ، وبهذا القياس عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي .[1]

---

(١) ابن قيم الجوزيه - اغاثة اللهفان ٢٢١/١ .

التوســـل :

معنى التوســـل :

التوسل والتوسيل في اللغة واحد ، يقال : وسّل فلان الى ربه وسيلـــة ، وتوسّل اليه بوسيلة أي تقرب اليه بعمل .

والواسل : الراغب الى الله . قال الشاعر :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهـــم ... بلى كل ذي دين الى الله واسـل[١]

وهو في الشرع : التقرب الى الله تعالى بالايمان به وطاعته سبحانه وتعالى والايمان برسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته .

قال الله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليـــــه الوسيلة))[٢] .

وقال جل شأنه : ((قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقـــرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا))[٣] .

"فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى اليه ، وأخبرعن ملائكته وأنبيائه انهـــم يبتغونها اليه هي : ما يتقرب به اليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجـــب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا ، فالواجـــب

---

(١) انظر الصحاح - اسماعيل الجوهري ١٨٤١/٥ .
(٢) الآية ٣٥ من سورة المائدة .
(٣) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الاسراء .

والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر ايجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الايمان بما جاء به الرسول ، فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك".(١)

وهذا التوسل أصل الدين ومطلوب من كل أحد ، جاء الأمر به من الله عز وجل في الآية الكريمة السابقة ، وهو الطريق الصحيح الذي يصل العبد بربه ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير قوله عز وجل : ((وابتغوا اليه الوسيلة)) : " قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي : القُربة وكذا قال مجاهد وابو وائل والحسن وقتادة وعبدالله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد ، وقال قتادة : أي تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد : ((أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة)) ، وهو الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه "(٢).

والتوسل بهذا المعنى هو التوسل الصحيح الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه وهو تعليم لجميع الأمة ، وهو شامل لأنواع كثيرة بينها عليه الصلاة والسلام أتم بيان وليس هذا مقام التفصيل في ذلك .

أما التوسل به عليه الصلاة والسلام الذي أقره وكان الصحابه رضي الله عنهم يفعلونه فهو اما التوسل بالايمان به وطاعته أو بدعائه وشفاعته عليه الصلاة والسلام وكلا الأمرين جائز باجماع المسلمين كما قال عمر رضي الله عنه : (اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبيك وانا نتوسل اليك بعم نبيا فاسقنا)(٣) ،

---

(١) ابن تيمية ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٤٨ .
(٢) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ٥٢/٢ .
(٣) صحيح البخاري بشرحه ٤٩٤/٢ .

أي بدعائه . أما التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم والاقسام به على الله تعالى ، فهذا هو التوسل الممنوع ولم يفعله أحد من الصحابة رضي الله عنهم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بعد مماته ، فاذا كان التوسل بهذا الوجه ممنوع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمع غيره من باب أولى .

روى ابو هريرة رضي الله عنه انه لما أنزلت هذه الآية : ((وانذر عشيرتك الأقربين)) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص فقال : (يابني كعب بن لؤي ، انقذوا انفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب انقذوا انفسكم من النار ، يا بني عبد شمس انقذوا انفسكم من النار ، يا بني عبد مناف انقذوا انفسكم من النار ، يا بني عبدالمطلب انقذوا انفسكم من النار ، يا فاطمة انقذي نفسك من النار ، فاني لا أملك لكم من الله شيئا ، غير ان لكم رحما سأبلها ببلاها [1])

وفي رواية عنه : (يا معشر قريش اشتروا انفسكم من الله ، فاني لا أغني عنكم من الله شيئا ، يابني عبدالمطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس ابن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية - عمة رسول الله - لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا)[2].

وعنه رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ذات يوم الغلول[3] فعظمه وعظم أمره ثم قال : (لا ألفين أحدكم يجيء يوم

---

(١) أي سأصلها ، والعرب تستعمل لفظ البلل لمعنى الوصل ، واليبس لمعنى القطيعة . انظر النهاية لابن الأثير ١٥٣/١ .

(٢) صحيح البخاري بشرحه ٥٠١/٨ .

(٣) الغلول : بضم الغين واللام وهو الخيانة في المغنم سمى بذلك لأن أخذه يغله أي يخفيه . انظر النهاية لابن الأثير ٣٨٠/٣ .

القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله اغثني . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق[(١)] فيقول : يا رسول الله اغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد ابلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمه[(٢)] فيقول : يا رسول الله اغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد ابلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول : يا رسول الله اغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد ابلغتك ، لا ألفين احدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[(٣)] فيقول : يا رسول الله اغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد ابلغتك)[(٤)].

فقوله عليه الصلاة والسلام لا أملك لك شيئا : أي من المغفرة لأن الشفاعة أمرها اليه فهو كقول ابراهيم عليه السلام : ((لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء))[(٥)] ، فلا عذر بعد الابلاغ منه صلى الله عليه وسلم .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (انه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله)[(٦)]

---

(١) والمراد بالرقاع ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع .
انظر لنهاية ٢٥١/٢ .

(٢) الحمحمه : صوت الفرس عند العلف وهو دون الصهيل . انظر النهاية ٤٣٦/١ .

(٣) ما لا روح فيه من المال والمقصود به هنا الذهب والفضة .
انظر النهاية ٥٢/٣ .

(٤) البخاري بشرحه ١٨٥/٦ .

(٥) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

(٦) مسند الامام احمد ٣١٧/٥ .

وهذا تعليم منه عليه الصلاة والسلام لأمته وحماية منه لجانب التوحيد ، فقد أنكر على اصحابه رضي الله عنهم قولهم ذلك ، وان كان في شيء يقدر عليه في حياته صلى الله عليه وسلم فكيف اذا كان في شيء لا يقدر عليه الا الله ، أو كان بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

يقول صاحبفتح المجيد : " كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وان كان مما يقدر عليه في حياته ، حماية لجناب التوحيد ، وسدا لذرائع الشرك ، وأدبا وتواضعا لربه ، وتحذيرا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال ، فاذا كان هذا فيما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، فكيف يجوز ان يستغاث به بعد وفاته ، ويطلب منه امور لا يقدر عليها الا الله عز وجل "(١)

واما شفاعته ودعاؤه صلى الله عليه وسلم في حياته ويوم القيامة فهي نافعة لأهل التوحيد من أمته ، كما سبق في سؤال أبي هريرة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اسعد الناس بشفاعتك ؟

وكان الصحابة يطلبون منه عليه الصلاة والسلام الدعاء فيدعو ، ويوجههم الى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

---

(١) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ - فتح المجيد ص ١٤٩ .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يطلب منهم ان يدعوه ، أو يدعوا الملائكة أو الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ولا غيرهم أو يستشفعوا بهم ، بل كان ينهاهم عن ذلك ولا يقر أحدا فعل ذلك منهم ، ويبين لهم الطريق القويم والسبيل الحق الذي يصلهم بربهم وقد رضيه وشرعه لهم .

"وعلم أنه لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرع للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولا يستشفعوا بهم ، لا بعد مماتهم ، ولا في مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله ، سلوا الله ان ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا ، وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يانبي الله ، يا رسول الله ، ادع الله لي ، سل الله لي ، استغفر الله لي ، سل الله أن يغفر لي ، أو يهديني أو ينصرني ، أو يعافيني ، ولا يقول : اشكو اليك ذنوبي ، أو نقص رزق ، أوتسلط العدو علي ، أو أشكو اليك فلانا الذي ظلمني ، ولا يقول : انا نزيلك أنا جارك ، أو : أنت تجير من يستجير ، أو انت خير معاذ يستعاذ به ، ولا يكتب ورقة يعلقها عند القبور ... الى أن قال : ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها انه يستحب لأحد أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره ان يشفع له أو يدعو لأمته ، أو يشكو ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين ، وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته فتارة بالجدب ، وتارة بنقص الرزق ، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوبه والمعاصي ، ولم يكن أحد منهم يأتي الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول نشكوا اليك جدب الزمان ، أو قوة العدو ، أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين "[١]

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ١/١٦٠ ـ ١٦٢ .

ولم يقتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليمه أمته التوحيد ، وتحذيرها من الشرك ، وحمايته حمى التوحيد ، لم يقتصر على بيان الشرك الأكبر المنافي للتوحيد ، والتحذير منه وحده ، بل بين عليه الصلاة والسلام ما دون ذلك من الشرك الأصغر ووسائله ، كما لم يقتصر التحذير من الشرك على ما يقع في الأعمال فحسب ، بل شمل مع ذلك ما كان في الأقوال أو المقاصد والنيات ، حرصا منه صلى الله عليه وسلم على حماية هذه العقيدة ، وسلامتها من كل خلل أيا كان نوعه ، كما انه صلى الله عليه وسلم قد حذر من أمور ليست في نفسها شركا ولكنها قد تؤدي اليه أو الى شيء من وسائله .

والأمثلة على ذلك كثيرة - ومنها :

النهي عن الحلف بغير الله تعالى :

وهو من الشرك الأصغر - ان لم يعتقد الحالف مساواة المحلوف به لله عز وجل - وهو وان سمي شركا اصغر فهو اكبر من الكبائر واشد ، لا يخرج من الملة ، وقد يحبط العمل اذا زاد .

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يسير في ركب يحلف بأبيه فقال : (ألا ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)[٢].

---

(١) مسند احمد ٣٤/٢ ، ٨٦ ،

(٢) صحيح البخري بشرحه ٥٣٠/١١ ، وصحيح مسلم بشرحه ١٢٦٦/٣ ، ١٢٦٧ .

وعنه رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من كان حالفا فلا يحلف الا بالله) وكانت قريش تحلف بآبائها فقال : (ولاتحلفوا بابائكم)[١]

وعن بريدة رضي الله عنه مرفوعا : (من حلف بالأمانة فليس منا)[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من حلف باللات والعزى فليقل : لا اله الا الله)[٣] .

فهذه الأحاديث وغيرها يبين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحلف بغير الله شرك ، وينهى عنه عليه الصلاة والسلام ، وبين انه لا يجوز أن يحلف الا بالله تعالى أو صفة من صفاته ، لأن الحلف تعظيم ، والمسلم لا يجوز له ان يعظم غير الله عز وجل .

وبين عليه الصلاة والسلام لمن وقع في شيء من ذلك ماذا يفعل وذلك بأن يقول : لا اله الا الله ، وتلك حكمة عظيمة ، فالمخالف أخل بتوحيده ، فكانت كفارته أن يتذكر حكمة التوحيد الذي أخل به ، وينطق بها ليتذكر عظمة الله واستحقاقه ان يفرد وحده بالعباده ولوازمها ، ومن ذلك تعظيمه سبحانه وتعالى .

ولذلك فقد ورد عن عبدالله بن مسعودر ضي الله عنه انه قال : (لأن احلف بالله كاذبا ، أحب الي من أن احلف بغيره صادقا)[٤] .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٦ .
(٢) مسند الامام احمد ٣٥٢/٥ .
(٣) صحيح البخاري بشرحه ٥٣٦/١١ ، وصحيح مسلم بشرحه ١٢٦٧/٣ ، ١٢٦٨ .
(٤)

"وانما رجح ابن مسعود رضي الله عنه الحلف بالله كاذبا على الحلف بغيره صادقا ، لأن الحلف بالله توحيد ، والحلف بغيره شرك ، وان قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنه التوحيد أعظم من حسنة الصدق ، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك ، ذكره شيخ الاسلام [١] ، وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقا أعظيم من اليمين الغموس ، وفيه دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهي : ارتكاب اقل الشرين ضررا اذا كان لابد من احدهما [٢] .

ومما ينبغي أن يعلم ان الحالف لو اعتقد أن ما حلف به أعظم من الله عز وجل أو مثله ، فان ذلك شرك أكبر مخرج من ملة الاسلام نعوذ بالله من ذلك ، وهذا هو شرك الجاهلية الأولى ، الذين كانوا يعظمون معبوداتهم من دون الله ويحلفون بها ، والذي يفعله بعض عباد القبور أعظم اذ يخشى ان يحلف بشيخه كذبا ، ولا يخشى من الله ذلك .

فالذي يفعله عباد القبور اذا طلبت من أحدهم اليمين بالله ، أعطاك ما شئت من الأيمان صادقا أو كاذبا ، فاذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ونحو ذلك ، لم يقدم على اليمين به ان كان كاذبا .

---

(١) يريد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ولعله يشير الى ما جاء في الفتاوى ٢٠٤/٢ من قوله : " قال عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر : لأن احلف بالله كاذبا أحب الي من ان احلف بغيره صادقا ، وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك اعظم من الكفر " أهـ .

(٢) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - تيسير العزيز الحميد ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

فهذا شرك اكبر بلا ريب ، لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله .

"وهذا ما بلغ اليه شرك عباد الأصنام ، لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالى : ((واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت))[1] فما كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته أو تربته فهو اكبر شركا منهم .[2]

ومن الأمثلة أيضا نهيه صلى الله عليه وسلم عن الألفاظ التي فيها شرك أو تحتمل الشرك ولو لم يقصد ذلك قائلها ، حماية منه لجناب التوحيد ومنها :

النهي عن قول ماشاء الله وشئت :

عن قتيلة[3] رضي الله عنها أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (انكم تشركون ، تقولون : ماشاء الله وشئت ، وتقولن : والكعبة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم : اذا أرادوا ان يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وان يقولوا : ماشاء الله ثم شئت)[4] .

فقد سمى ذلك اليهودي هذا الألفاظ شركا ، وكانوا يعرفون ذلك ، وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر اصحابه رضي الله عنهم باستعمال الألفاظ الصحيحة البعيدة عن الشرك أو مشابهته .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة النحل .
(٢) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - تيسير العزيز الحميد ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ .
(٣) قتيلة : هي بنت صيفى الجهنية ، ويقال الانصارية من المهاجرات الأرامل ، قيل ليس لها غير هذا الحديث. انظر الاصابة ٣٧٨/٤ .
(٤) الامام احمد - المسند ٣٧١/٦ ، ٣٧٢ ، النسائي - السنن ٦/٧ . وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي والحافظ في الاصابة ٣٨٩/٤ .

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمر ، فقال : ماشاء الله وشئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أجعلتني لله ندا ، ما شاء الله وحده)[1].

فقد أنكر صلى الله عليه وسلم على الرجل هذه التسوية ، وبين له كيف ينبغي أن يقول ، وصحح له ما قاله خوفا من الشرك والفاظه وحماية لعقيدة التوحيد من كل ما يخل بها مهما كان قصد قائله .

وعن الطفيل - اخي عائشة رضي الله عنها لأمها - قال : (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، قلت : انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله ، قالوا : وانكم لأنتم القوم لولا انكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : انكم لانتم القوم لولا انكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وانكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد فلما اصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحد ؟ قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وانكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده)[2].

فقد أقره الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمر أصحابه رضي الله عنهم باللفظ الصحيح الموافق لعقيدة التوحيد ، ونهاهم عما كانوا يقولون من الفاظ

---

(١) مسند الامام احمد ٢١٤/١ .

(٢) مسند الامام احمد ٣٩٣/٥ .

فيها مخالفة لذلك حماية لهذه العقيدة ، وسدا لكل ذريعة تخل بها أيا كان نوعها ، أو قصد فاعلها .

النهي عن قول عبدي وامتي :

وهذا اللفظ نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما فيه من اشتراك في اللفظ ، احتراسا من الشرك ولو في اللفظ ، وأدبا مع الله تعالى ، وابتعادا بالمؤمن عن الشرك وما يشابهه ، من الفاظ ولم لم تكن في نفسها شركا .

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقل احدكم : اطعم ربك ، وضيء ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل : أحكم : عبدي وامتى ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي)[(١)] .

ففي اطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيما لله تعالى ، وأدبا وبعدا عن الشرك ، وتحقيقا للتوحيد ، وأرشدهم الى ان يقولوا : (فتاي وفتاتي وغلامي) وهذا من باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، فقد بلغ صلى الله عليه وسلم أمته كل ما فيه لهم نفع ، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين ، فلا خير الا دلهم عليه وأوله تحقيق التوحيد ، ولا شر الا حذرهم منه ، وأوله ما يقرب من الشرك لفظا ، وان لم يقصد به[(٢)] .

فارشاده عليه الصلاة والسلام بأن يقولوا : سيدي ومولاي ، وفتاي وفتاتي وغلامي من باب سد ذرائع الشرك ووسائله اللفظية وان لم يقصد القائل بها شركا .

---

(١) البخاري بشرحه ١٧٧/٥ ، ومسلم بشرحه ١٧٦٤/٤ ، ١٧٦٥ .
(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ـ فتح المجيد ص ٤١٢ .

النهي عن قول " لو " :

والمقصود بها التي تقال ندما وأسفا وجزعا ، لما في ذلك من عدم الرضى والتسليم بما قدره الله عز وجل وقضاه ، فالمؤمن مأمور بالتسليم والرضى لاقدار الله ، والصبر على بلائه ، وفي ذلك خير له ، وقول (لو) يتنافى مع ذلك المطلوب من المؤمن ، مع ما قد يصاحبها من نوع اعتراض على اقدار الله تعالى واحكامه .

ولذلك فقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حماية للتوحيد أن يمسه ما يقدح فيه أو يكون ذريعة الى ذلك ولو رآه الناس يسيرا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وان اصابك شيء فلا تقل لو أنني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان)[1] .

فقد أمر عليه الصلاة والسلام وحث على الحرص على ما ينفع المسلم مستعينا بالله تعالى ، ثم نهاه عما يفتح عمل الشيطان ، ويؤدي الى التسخط وعدم الرضى بأقدار الله تعالى ، ويؤثر في سلامة التوحيد ، واخلاصه لله عز وجل ، ثم بين ما يقوله المرء اذا وقع له شيء من البلاء من الألفاظ الموافقة للحق والمتفقة مع التوحيد الصحيح ، والدالة على تسليم المؤمن ورضاه بما قدره ربه وقضاه .

وقد ذم الله تعالى اصحاب هذه المقولة في كتابه الكريم فقال جل شأنه :

---

(١) مسلم بشرحه ٢٠٥٢/٤ .

((يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا))[١].

وقال عز وجل : ((الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا))[٢]

والذين قالوا ذلك هم المنافقون قالوه في غزوة أحد لما نزل بهم من خوف وجزع ، كما جاء في الحديث عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال : (لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا ، ارسل الله علينا النوم ، فما منا رجل الا ذقنه في صدره ، فوالله اني لأسمع قول معتب ابن قشير ما اسمعه الا كالحلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فحفظتها منه ، وفي ذلك انزل الله عز وجل : ((يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)) لقول معتب)[٣].

التحذير من الرياء :

لم يقف حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حماية جناب التوحيد ، من الشرك وذرائعه في الأقوال والأفعال فحسب كما تقدمت الأمثلة على ذلك فيما سبق بل كان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك على المقاصد والنيات أن تكون خالصة لله سبحانه وتعالى وحمايتها من كل ما يصرفها عنه من شرك أو بدعة أو شبهة أو ذريعة للشرك ، اذ النية أساس صحة العمل أو بطلانه ، وأمرها عظيم ، فهي سر بين العبد وبين ربه ، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله

---

(١) من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران .
(٣) ابن كثير - التفسير ٤١٨/١ .

ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه)[١]

ومن الأمثلة على حرصه عليه الصلاة والسلام على سلامة النيات وخلوها لله عز وجل :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : قال الله تعالى : ((انا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه))[٢].

وعن محمود بن لبيد[٣] رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (أيها الناس ، اياكم وشرك السرائر ، قالوا يا رسول الله : وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا ، لما يرى من نظر الرجل اليه ، فذلك شرك السرائر)[٤].

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه فقال : الرياء)[٥]

هذه الأحاديث وغيرها تبين خطر الرياء على الأعمال ، فهو ينقص ثواب العمل ، وقد يحبطه حسب نية فاعله ، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البخاري بشرحه ٩/١ ، ١٣٥ .

(٢) مسلم بشرحه ٢٢٨٩/٤ .

(٣) محمود بن لبيد : بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل الانصاري ، قال البخاري : له صحبة ، وأكثر روايته عن الصحابة .
انظر الاصابة للحافظ بن حجر ٣٦٧/٣ .

(٤) سنن البيهقي ٢٩٠/٢ ، ٢٩١ . وحسنه الذهبي في المهذب ٢٦١/٢ .

(٥) مسند الامام احمد ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ ، وشرح السنة للبغوي ٣٢٣/١٤ ، ٣٢٤ .
وهو حديث حسن .

الشرك الأصغر ، وحذر منه أمته تحذيرا شديدا حماية لحمى التوحيد ، من الشرك أيا كان نوعه ، وحرصا على سلامة قول المؤمن وعمله ونيتله وقصده من كل ما لا يحبه الله تعالى وأول ذلك الشرك به جل شأنه .

"واذا كان هذا الشرك الأصغر مخوفا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال علمهم ، وقوة ايمانهم ، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والايمان بمراتب ؟ خصوصا اذا عُرف ان اكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد الا ما أقر به المشركون ، وما عرفوا معنى الالهية التي نفتها كلمة الاخلاص عن كل ما سوى الله .(1)

فاذا كان الباعث على العمل ابتغاء ما عند الله تعالى ، وسلم من الرياء فهو العمل الصحيح المقبول عند الله عز وجل ، وان كان القصد والنية بالعمل ارادة غير الله عز وجل فذلك نفاق اعتقادي قد يخرج صاحبه من الاسلام . قال عز وجل : ((كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين))(2) .

وقال سبحانه وتعالى : ((والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا))(3) .

أما اذا كان الباعث على العمل ابتغاء وجه الله تعالى وطلب ما عنده من الأجر والثواب ، ثم دخل عليه الرياء ، فهو الذي سماه رسول الله صلى الله

---

(1) عبدالعزيز بن حسن آل الشيخ ـ فتح المجيد ص ٦٣ .
(2) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .
(3) الآية ٣٨ من سورة النساء .

عليه وسلم الشرك الأصغر ، وبينه عليه الصلاة والسلام بقوله : (يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل اليه) كما تقدم ، فهذا لا يخرج من الملة ، ولكنه ينقص من ثواب العمل وقبوله ، وقد يزيد فيحبط العمل ، نعوذ بالله من ذلك .

وقد يعمل المسلم العمل خالصا لوجه الله تعالى ، ثم يحصل له الثناء الجميل والذكر الطيب من الناس ، لم يطلبه ولم يقصده بعمله ، فليس ذلك من الرياء بل خير من الله وفضل منه سبحانه[1] ، كما في حديث ابي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير ، يحمده الناس عليه فقال : (تلك عاجل بشرى المؤمن)[2] .

ارادة الانسان بعمله الدنيا :

وهو ان ينوي بعمله الصالح ، عرضا دنيويا ، ويكون ذلك قصده الباعث على ذلك العمل ، وهو أخطر من الرياء ، فالرياء قد يعرض للعمل ثم يزول بالمجاهدة اما ارادة الانسان الدنيا بعمله فهي الباعث له على عمله الملازمة له في ذلك العمل وكلاهما خطر عظيم وداء ووبال .

" وقد يظن بعض الناس ان هذا الباب داخل في الرياء ، وان هذا مجرد تكرير فأخطا ، بل المراد بهذا ان يعمل الانسان عملا صالحا يريد به الدنيا ، كالذي يجاهد للقطيفة والخميله ونحو ذلك ، ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبدا لذلك ، بخلاف المرائي ، فانه يعمل ليراه الناس ويعظموه .

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٥٣١ ، ومعارج القبول ٤٥٤/٢ .
(٢) مسلم بشرحه ٢٠٣٤/٤ .

والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي ، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها ، والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في اعين الناس ، وكلاهما خاسر ، نعوذ بالله من موجبات غضه وأليم عقابه .[1]

ولخطورة هذا الأمر على عقيدة التوحيد فقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التحذير في احاديث كثيره ، فهو يتعلق بنية العبد وقصده لا يعلم ذلك منه الا الله وحده .

ومن هذه الأحاديث ما رواه ابو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصه تعس عبد الخميلة ، ان اعطي رضي ، وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، واذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، ان كان في الحراسة في الحراسة ، وان كان في الساقة في الساقة ، ان استأذن لم يؤذن له ، وان شفع لم يشفع)[2].

وهذا دعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بصيغة الخبر الماضي الذي يدل على تحقيق الوقوع ، ولا ريب أن من كانت الدنيا ومتاعها الزائل قصده ونيته ، وهدفه وغايته ، فانه خاسر هالك في الدنيا والآخرة ، وقد سماه عليه الصلاة والسلام - عبدا - وهو الاسم والوصف المناسب له ، اذ لو كان عبدا لله تعالى لطلب ذلك منه سبحانه وتعالى وهو الله الذي له الخلق والأمر سبحانه ، ليستعينها على طاعته وعبادته وحده ، ورضي بما اختاره الله له ورضيه ، ولكنه قطع تعلقه بربه ، وتعلق بغيره من اعراض

---

(١) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - تيسير العزيز الحميد ص٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) البخاري بشرحه ٨١/٦ .

الدنيا وحطامها الفاني ، حتى كان كما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان اعطى رضي وان لم يعط سخط) .

" فاذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها ، وربما صار مستعبدا معتمدا على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبدالخميصة ، تعس عبدالخميلة) . وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله ، فان الله اذا اعطاه اياهارضي ، وان منعه اياها سخط ، وانما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ، ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحب الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي اعداء الله ، فهذا الذي " استكمل الايمان " .[1]

وهذا الحرص الشديد من رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحذير من هذه الأمور ، ودعاؤه عليه الصلاة والسلام علي من هذا حاله ، نظرا لما لها من عظيم الخطر على حمى التوحيد ، ولشدة الرغبة والمحبة لهذه الأشياء التي جبل الناس على حبها ، والحرص عليها ، حتى صارت لكثير منهم هدفا وقصدا استحق بسببه دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سبق في الحديث ، اذ وصفهم بعبوديتهم لغير الله تعالى ، تحذيرا من الشرك ووسائله وطرقه ، وحماية لجناب التوحيد ، وحرصا على أهله .

هذه بعض الأمثلة على بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد العبادة وبيان ما يضاده وينافيه وحمايته صلى الله عليه وسلم لهذا النوع من التوحيد ،

---

(١) ابن تيمية - العبودية ص ٢٧ .

الذي هو لب التوحيد والغاية التي لأجلها خلق الله الناس وبعث فيهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل فيهم الكتب ، وهو حق الله عز وجل على عباده وأول فرض على المكلف ، وأول ما دعا اليه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أممهم .

لذا كان جديرا أن يكون له هذا الاهتمام من رسول الله صلى الله عليه وسلم والبيان الواضح والحماية العظيمة من كل ما يضاده أو يدنسه ويشوبه من شرك أو بدعة أو شك أو شهوة أو شبهة ، فحقق عليه الصلاة والسلام هذا التوحيد ، وحسم عنهم مواد الشرك ، وربى اصحابه رضوان الله عليهم اجمعين على ذلك ، فكانوا بعد الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام خير من عرف توحيد الله تعالى ودعا اليه وحماه ، ومن بعدهم التابعون ومن تبعهم باحسان في كل زمان ومكان .

حماية الرسول صلى الله عليه وسلم

توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات أحد انواع التوحيد الذي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليه ، ودعا اليه الأنبياء والرسل جميعا قبله عليهم الصلاة والسلام .

وهو توحيده سبحانه وافراده عز وجل باثبات ما اثبتهلنفسه في كتابه الكريم وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفة من الأسماء الحسنى والصفات العليا على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل .

وقد انزل الله عز وجل كتابه الكريم بيانا وهدى للناس كما قال جل شأنه : ((وانزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين))[(١)] .

وتوحيده سبحانه والايمان باسمائه الحسنى وصفاته العليا اعظم الأشياء وأهمها وأولها ، وقد بينها سبحانه اعظم بيان واتمه وأكمله .

كما بين ذلك ووضحه على اكمل وجه وأتمه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال له ربه تبارك وتعالى : ((وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون))[(٢)] .

وكما قال له : ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس))[(٣)]

---

(١) الآية ٨٩ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٣) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

وقال له كذلك : ((وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون))[١] .

وأدلة التوحيد وبيانه اعظم الهدى ، وهو الذي وقع فيه الاختلاف ، وقد بين ذلك رسوله بما لا مجال للشك أو اللبس فيه لمن رزقه الله فقها في الدين ، واتباعا لسبيل المؤمنين ، كما ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه : ((وهدى ورحمة للمؤمنين))[١] .

وكما قال عز وجل : ((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم))[٢] .

وكقوله سبحانه : ((وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا))[٣] .

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق الجهاد ، حتى أتاه اليقين ، وأول ذلك وأهمه توحيد الله تبارك وتعالى ، والايمان باسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وما مات عليه الصلاة والسلام حتى اكمل الله الدين وأتم به النعمة ، وترك الناس على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الآية ٦٤ من سورة النحل .
(٢) الايتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .
(٣) الاية ٨٢ من سورة الاسراء .

وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه فقال : (آلفقر تخافون ؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم الاهيه ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء)[1] .

واساس الدين ومفتاحه وقاعدته توحيد الله تعالى ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، والله عز وجل قد بين ذلك ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " فمن المحال في العقل والدين ان يكون السراج المنير ، الذي اخرج الله به الناس من الظلمات الى النور ، وانزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس ان يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم الى ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وهو يدعو الى الله والى سبيله باذنه على بصيرة .

وقد أخبر الله بأنه اكمل له ولأمته دينهم ، وأتم عليهم نعمته ـ محال مع هذا وغيره ـ ان يكون قد ترك باب الايمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها لم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فان معرفة هذا أصل الدين ، واساس الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب ، وحصلته النفوس ، وأدركته العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول ، وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا ؟

ومن المحال أيضا ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد علم أمته كل شيء حتى الخراءة[2] وقال : (اني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها

---

(١) سنن ابن ماجة ٤/١ .

(٢) الخراءة : آداب دخول الخلاء والخروج منه .

بعدي الا هالك)[1] ، وقال فيما صح عنه ايضا : (ما بعث الله من نبي ولا رسول الا كان حقا عليه ان يدل أمته على خير ما يعلمه ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم)[2] .

وقال ابو ذر رضي الله عنه :"لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من طائر يطلب جناحه في السماء الا ذكر لنا منه علما " .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فذكر بدء الخلق حتى دخل اهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه "[3] .

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وان دقت ، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بالسنتهم ، ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم ، رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف ، وعبادته اشرف المقاصد ، والوصول اليه غاية الطالب .

بل هذه خلاصة الدعوة النبوية ، وزبدة الرسالة الالهية ، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من ايمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول صلى الله عليه وسلم على غاية التمام ، ثم اذا كان قد وقع ذلك منه ، فمن المحال أن يكون خير أمته ، وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه "[4]

---

(١) سنن ابن ماجة ١٦/١ ، وصحيح ابن ماجة للالباني ٦/١ وقال عنه : حسن .

(٢) صحيح مسلم بشرحه ٢٣٣/١٢

(٣) البخاري بشرحه ٢٨٦/٦ .

(٤) ابن تيمية ـ الفتوى الحموية الكبرى ص ١١ ، ١٢ .

وقد نقلت كلام شيخ الاسلام ابن تيمية هذا نظرا لما اشتمل عليه من بيان أهمية هذا النوع من التوحيد ، وما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيله من بيان له وحماية لحماه ، ولم يقصر فيه أو يتركه لاراء الناس واجتهاداتهم .

واليك أمثلة يسيرة مما ورد في كتاب الله الكريم وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في بيان أسماء الله عز وجل وصفاته ، لنرى كيف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق المستقيم في هذا الباب - باب الايمان بأسماء الله وصفاته - اتم بيان مما انزل الله تعالى عليه من الكتاب والحكمة .

قال تبارك وتعالى : ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في اسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون))(١) .

وقال جل شأنه : ((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها واتبع بين ذلك سبيلا))(٢)

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان لله تسعة وتسعين اسما ، مائة الا واحدا ، من حفظها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر)(٣) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما اصاب مسلما قط هم ولا حزن فقال : اللهم اني عبدك وابن

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الاعراف .
(٢) الآية ١١٠ من سورة الاسراء .
(٣) البخاري بشرحه ٣٥٤/٥ .

عبدك ، وابن أمتك ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، الا أذهب الله عنه همه ، وابدله مكان همه فرحا ، قالوا : يا رسول الله ألا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى ينبغي لمن سمعهن ان يتعلمهن)[١] .

فدل الحديث الأول على عدد اسماء الله الحسنى وأجر من حفظها ، ودل الحديث الثاني على أن هناك اسماء أخرى اكثر من هذا العدد ، وهو الصحيح والله أعلم .

وانما المراد بالحصر في الحديث الاول أن من احصى هذه الأسماء دخل الجنة وليس المراد حصر الأسماء في هذا العدد الوارد في الحديث ، كما دل على ذلك الحديث الثاني - حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه - وغيره من الأحاديث والله أعلم .

وقد جاءت هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا في كتاب الله عز وجل ، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن الأمثلة على اسمائه الحسنى سبحانه وتعالى : ((الله ، الأحد ، الصمد)) .

قال تعالى : ((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يك له كفوا أحد))[٢]

---

(١) مسند الامام احمد ٣٩١/١ . وصححه الالباني .
(٢) سورة الاخلاص .

وهذه السورة العظيمة اشتملت على عدد من أسماء الله تعالى وصفاته عز وجل ردا على الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك .

وأخبر عليه الصلاة والسلام أنها تعدل ثلث القرآن كما روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلا سمع رجلا يقرأ : ((قل هو الله أحد)) يرددها فلما أصبح جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالها ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ، انها لتعدل ثلث القرآن))[١] .

ومنها : هذه الاسماء في قوله عز وجل : ((هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم))[٢] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اذا آوى الى فراشه : (اللهم رب السموات ورب الأرض رب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وانت الظاهر فليس فوقك شيء ، وانت الباطن فليس دونك شيء) ، زاد وهب : (اقض عني الدين واغنني من الفقر)[٢]

ومنها : " الخالق " :

قال تعالى : ((الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل))[٣] .

وقال سبحانه : ((يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير

---

(١) الآية ٣ من سورة الحديد .
(٢) مسلم بشرحه ٣٦/١٧ .
(٣) الآية ٦٢ من سورة الزمر .

الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا اله الا هو فأنى تؤفكون))[١] .

وقال جل شأنه : ((ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين))[٢] .

وآيات أخرى كثيرة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ،وخلق الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعات الجمعة ، فيما بين العصر الى الليل)[٣] .

ومنها : " الملك والمليك " وهما بمعنى واحد :

قال الله تبارك وتعالى : ((هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس))[٤]

وقال عز وجل : ((فتعالى الله الملك الحق))[٥] .

وقال جل شأنه : ((في مقعد صدق عند مليك مقتدر))[٦]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقبض الله تعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض)[٧] .

واسم الملك : يجمع المالك والملك والمليك ، وقد وردت الأحاديث بهذه الأسماء جميعا .[٨]

---

(١) الآية ٣ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٣) صحيح مسلم بشرحه ١٣٣/١٧ .
(٤) الآية ٢٣ من سورة الحشر .
(٥) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون .
(٦) الآية ٥٥ من سورة القمر .
(٧) صحيح البخاري بشرحه ٥٥١/٨
(٨) انظر كتاب التوحيد لابن منده ، ت : د ٠ علي بن محمد ناصر فقيهي ٥٤/٢ .

والآيـــــــات كثيرة في اثبات اسماء الله الحسنى ، ومنها آيات جمعت اسماء كثيرة منها ، مثل آية الكرسي ، وأول سورة الحديد ، وآخر سورة الحشر ، وكذلك الأحاديث الكثيرة جاءت تثبت ذلك ، ليس هذا محل استقصائها .

ومن الأمثلة على صفاته العليا سبحانه وتعالى :

صفة الكـلام :

قال الله تعالى : ((تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلـــــم الله))[١] .

وقال عز وجل : ((وكلم الله موسى تكليما))[٢] .

وقال سبحانه : ((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه))[٣] .

وقال جل شأنه : ((وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء))[٤]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلـــم قال : (اذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكـــم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومستـــرق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ـ

---

(١) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٦٤ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٤٣ من سورة الاعراف .
(٤) الآية ٥١ من سورة الشورى

فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، ثم يلقيها الآخر الى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبه ، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)[(١)] .

ومنها : الاستواء :

قال الله تعالى : ((الرحمن على العرش استوى))[(٢)] .

وقال عز وجل : ((ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون))[(٣)] .

وقال تبارك اسمه : ((الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا))[(٤)]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقا على الله ان يدخله الجنة هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا ننبىء الناس بذلك ؟ قال : ان في الجنة مائة درجة أعدها الله لمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فاذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فانه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[(٥)]

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٦٩
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ٤ من سورة السجدة .
(٤) الآية ٥٩ من سورة الفرقان .
(٥) البخاري بشرحه ١٣/٤٠٤ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب : لا اله الا الله العليم الحليم ، لا اله الا الله رب العرش العظيم ، لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم))(١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يصعقون يوم القيامة ، فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)(٢) .

ومنها : اليد والأصابع :

قال الله تبارك وتعالى : ((يد الله فوق أيديهم))(٣) .

وقال سبحانه : ((يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي))(٤) .

وقال عز وجل : ((أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون))(٥) .

وقال جل شأنه : ((وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه))(٦) .

والآيات في ذلك كثيرة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار . وقال : أرأيتم ما انفق

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ٤٠٥/١٣ .
(٢) صحيح البخاري بشرحه ٤٠٥/١٣ ، وصحيح مسلم بشرحه ١٣٢/١٥ .
(٣) الآية ١٠ من سورة الفتح .
(٤) الآية ٧٥ من سورة ص .
(٥) الآية ٧١ من سورة يس .
(٦) الآية ٦٧ من سورة الزمر

الله منذ خلق السموات والأرض ، فانه لم يغض ما في يده ، وقال : عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع)[(١)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (ان الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السموات بيمينه ثم يقول : انا الملك)[(٢)]

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان المقسطين على منابر من نور ، عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[(٣)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فاستجيب له ويسألني فأعطيه ، ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم)[(٤)] .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يهوديا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :(يا محمد ، ان الله يمسك السموات على اصبع ، والأرض على اصبع والجبال على اصبع ، والشجر على اصبع ، والخلائق على اصبع ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قرأ : ((وما قدروا الله حق قدره))[(٥)])[(٦)] .

---

(١) صحيح البخاري بشرحه ٣٩٣/٣ .
(٢) صحيح البخاري بشرحه ٣٩٣/٣ .
(٤) صحيح مسلم بشرحه ١٤٥٨/٣ .
(٤) صحيح مسلم بشرحه ١٧٦/١ .
(٥) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٦) صحيح البخري بشرحه ٣٩٣/١٣ .

والأحاديث في هذا كثيرة جدا كلها تثبت هذه الصفة لله سبحانه على ما يليق بجلاله عز وجل ولا يدع مجالا لشاك أو متردد ، ولا ينكره الا منحرف مكابر .

والأمثلة كثيرة من اسماء الله الحسنى وصفاته العليا وأدلتها الثابتة بكتاب الله الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واضحة بينة ، وتلقاها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا بها مقتدين برسول الله مهتدين بهديه ، وساروا على الصراط المستقيم الذي بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان نورا وهدى لأهل الحق من اصحابه عليه الصلاة والسلام والتابعين لهم باحسان الذين ساروا على هذا الصراط المستقيم ، والسبيل القويم ، في ايمان صادق وثبات عليه وطمأنينة به . وزاغت عن هذا السبيل أبصار أقوام وبصائرهم فتخبطوا واختلفوا وحرفوا وأولوا وعطلوا وشبهوا ، فاختلفوا وتفرقوا ، وهدى الله اهل الحق لما اختلفوا فيه من الحق باذنه سبحانه وتعالى ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة .. الحديث)[١]

وقد بين ذلك عليه الصلاة والسلام ذلك اتم بيان وسار على هديه من بعده اصحابه رضي الله عنهم أجمعين ، واتباعهم باحسان .

ومع هذا البيان الواضح في كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، وهما المنبع الأصيل لهذا الدين الحنيف ، وما بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا السبيل وما بذل اصحابه رضي الله عنهم مع ذلك كله ، فقد خرجت عن هذا الصراط

---

(١) سنن الترمذي ٣٦٧/٣ ، وسنن ابن ماجة ٤٧٩/٢ ، وصححه الالباني في صحيح سنن الترمذي ٣٦٤/٢ .

المستقيم فرق وطوائف نتيجة لتحكيم العقول القاصرة ، والأفهام المختلفة وتقديمها على كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفهمت خلاف ما فهمه خير الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من أنكر اسماء الله عز وجل وصفاته فشبهه بالعدم كالجهمية ومن سار في طريقهم ، ومنهم من اثبت الأسماء وانكر الصفات كالمعتزلة ، ومنهم من انكر بعض الصفات كالاشاعرة ومن وافقهم ، وغيرها من الفرق التي انحرفت في الفهم عن الحق والصراط المستقيم ، وخالفت سلف الأمة من الصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ومن تبعهم باحسان ، ورأوا أن هذا الفهم المنحرف ، والفكر المعوج هو غاية التوحيد لله سبحانه الذي يجب على كل مسلم أن يعتقده ، ومن خالفه لم يعرف التوحيد وقد أوقع نفسه في الشرك بالله تعالى ، فكانوا كما قال الله تبارك وتعالى : ((أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ان الله عليم بما يصنعون))[١] .

ولكن هذه الأهواء المعوجة ، والأفهام المنحرفة ، وان أعجب بها أهلها لا تثبت أمام الحق المبين المعتمد على العلم والفهم الصحيح المستمد من كتاب الله تعالى والسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل ((أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم))[٢] .

وكما قال جل شأنه : ((فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال))[٣]

وكما قال عز وجل : ((أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو

---

(١) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٢) الآية ١٤ من سورة محمد .
(٣) الآية ١٧ من سورة الرعد .

اعمى))[١] فالناس قسمان : أهل علم بما انزل الله تعالى ، وفهم صحيح مستقيم ، واهل عمى حرموا العلم والفهم الصحيح .[٢]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " فاذا افتقر العبد الى الله ودعاه وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، انفتح له طريق الهدى ، ثم ان كان قد خبر نهايات اقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب ، وعرف ان غالب ما يزعمونه برهانا هو شبهة ، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول الى دعوى لا حقيقة لها ، أو شبهة مركبة من قياس فاسد ، أو قضية كلية لا تصح الا جزئية ، أودعوى اجماع لا حقيقة له ، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة .

ثم ان ذلك اذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم - أوهَمَتْ الغر ما يوهمه السراب للعطشان - ازداد ايمانا وعلما بما جاء به الكتاب والسنة فان " الضد يظهر حسنه الضد " وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيما ، وبقدره أعرف اذا هدي اليه الى أن قال رحمه الله : ومن كان عليما بهذه الأمور : تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه ، وذموا أهله وعابوهم ، وعلم ان من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد من الله الا بعدا " .[٣]

ومن حفظ الله تعالى لدينه قيض له رجالا من العلماء العاملين المخلصين ، بينوا للناس الحق ، ودعوهم اليه ، وردوا على المخالفين باطلهم ، وكشفوا زيفهم

---

(١) الآية ١٩ من سورة الرعد .
(٢) انظر مفتاح دار السعادة ص ٨٨ .
(٣) ابن تيمية الفتاوى ٥/١١٨ - ١٢٠ .

وكذبهم وانحرافهم ، وذ ادوا عن حمى هذه العقيدة مقتدين برسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ومنهم امام دار الهجرة الامام مالك وامام أهل السنة الامام احمد ، وشيخ الاسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزيه ، وشيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب وغيرهم من العلماء على مر السنين ، تحقيقا لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك))[١] . وكما جاء في الحديث عن عون بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فاحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترقن امتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة ، وثنتان وسبعون في النار ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة)[٢] .

والجماعة : ما وافق الحق وهم الكثرة وان قلوا ، والحق في اتباع الكتاب والسنة . والكلام حول الانحراف في توحيد الأسماء والصفات ذو شجون ليس هذا مقام التفصيل فيه ، ولكن الذي يهمنا معرفته أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين ما يجب على الانسان المسلم أن يعتقده في ربه وما يصفه به ، غاية البيان وأوضحه غاية الايضاح بما لا يدع مجالا لاعمال فكر أو امعان رويه الا في تأمل عظمة الخالق وأنه سبحانه لا مثل له ولا شبيه ولا نظير ، فكل عقل أو فهم قاصر عن ادراك كنهه وكيفيته ، ولكن الواجب الحتمي معرفة أنه له الاسماء الحسنى والصفات العلى ، أما المتكلمون فمهما تفلسفوا فهم مفلسون بشهادتهم على

---

(١) البخاري مع الشرح ٦٣٢/٦ ، ومسلم مع الشرح ٦٥/١٣ . واللفظ له .
وقد ورد بأكثر من رواية في الصحيحين .

(٢) صحيح سنن الترمذي ٣٦٤/٢ .

أنفسهم ، اذ أن مشاهيرهم اعترفوا في نهاية أمرهم بالافلاس والحيرة وعدم العلم ، لأنهم لم يسلكوا طريقه الصحيح . فهذا امام الحرمين يقول :

" ركبت البحر الأعظم ، وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فرارا من التقليد ، والان فقد رجعت ، واعتقدت مذهب السلف " .

وقال عند موته : " يا اصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت ما تشاغلت به " .

والرازي يقول في كتابه " أقسام اللذات " :

نهاية اقدام العقول عقال — وغاية سعي العالمين ضلال

وارواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

الى آخر الأبيات ...

ثم يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن .. الى آخر كلام.

والغزالى انتهى الى الحيرة ، ثم رجع عن ذلك واقبل على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وغيرهم كثير .

كما وصفهم الشهرستاني بقوله :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر الا واضعا كف حائر — على ذقن ، أو قارعا سن نادم (١)

---

(١) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ٣٥٠/١٣ ، وشرح الطحاوية ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ولا ريب أن هذه النهاية هي التي تنتظر كل من اعرض عن كلام الله تبارك وتعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقدم عليهما عقله القاصر ، وفهمه العاجز ، قال تعالى : ((ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)) ، وما كان هذا حاله فهو هالك خاسر ولا يظلم ربك أحدا ، نسأل الله الفقه في الدين والثبات على الحق .

#####

#####

#####

؟

الخاتمة

" خاتمـــــة "

وهكذا يتم هذا البحث بتوفيق من الله وعون منه ، وقد توصلت من خلالـــه الى نتائج عدة أهمها :

أولا : أن التوحيد مع وضوح معناه وظهور أدلته من كتاب الله الكريـــــم ، والثابت من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والفهم الصحيح لـــدى الصحابة رضي الله عنهم ، مع هذا كله ، وجدت طوائف ضلت عن هذا السبيل القويم في معنى التوحيد ، وان السبب الأول في ذلك الاعتمـــاد على العقل وحده وتقديمه على نصوص الكتاب والسنة .

ثانيا : أن الناس مفطورون على الاسلام وتوحيد الله عز وجل ، والشـــــــرك والانحراف طارىء فيهم ودخيل عليهم .

ثالثا : ان الدعوة الى توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة كانت أول ما دعـــا اليه الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن دعوتهم الى ذلـــــك متفقة وان اختلفت فيما سوى ذلك .

رابعا : تشابه صورة الشرك ومنطق أهله وان تباعدت الأزمنة ، وتغايرت الأمكنـة واختلفت اللغات .

خامسا : أن بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام تكون اذا اندرست معالم التوحيـد وظهر الشرك في الناس .

سادسا : ان توحيد الالوهية والعبادة كان محور دعوة الرسل جميعا عليهـــــــم الصلاة والسلام .

سابعا : أن التوحيد أول واجب على العبد، وخطأ من قال غير ذلك لمخالفته نصوص الكتاب والسنة .

ثامنا : ان الفترة المكية من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في الدعوة الى التوحيد وترسيخ العقيدة في نفوس المؤمنين ، وانقاذهم من الشرك وأهله .

تاسعا : ان الفترة المدنية من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت نشرا لهذه العقيدة في الناس وجهادا في سبيلها ، وحماية لها ولأهلها ، وبيانا لما يضادها ويخالفها .

عاشرا : أن تقسيم التوحيد ليس أمرا مستحدثا ، بل دل عليه القرآن الكريم ، والعلماء استنبطوا ذلك وبينوه للناس منذ القرون الأولى .

الحادي عشر : ان المشركين كانوا يقرون ويعترفون بربوبية الله عز وجل ، ولم ينفعهم ذلك لعدم تحقيقهم لتوحيد الألوهية .

الثاني عشر : وجود من انكر ربوبية الله تعالى وجحدها ظاهرا ، مع اعترافه بذلك في قرارة نفسه .

الثالث عشر : أن بيان القرآن الكريم للربوبية من أول اهدافه الدعوة الى الألوهية .

الرابع عشر : خطأ من جعل توحيد الربوبية هو المطلب الأول ، اذ المشركون كانوا يقرون بذلك فلم ينفعهم ولم يخرجهم من الكفر ، ولو كان الأمر كذلك لما بعث الرسل وانزلت الكتب .

الخامس عشر : ان دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت كلها تدور حول تحقيق التوحيد ، وحماية حماه والتحذير الشديد من الشرك بجميع أنواعه وسد الذرائع الموصلة اليه ، وان لم تكن شركا في نفسها .

السادس عشر : ان الغلو كان وما يزال هو الباب الأول الى الشرك ، ولهذا شدد الرسول صلى الله عليه وسلم في التحذير منه ، وسدد الطرق الموصلة اليه كالتنطع والاطراء .

السابع عشر : ان اتخاذ القبور مساجد بجميع معانيه ، موجود في الناس قديما وحديثا وهو من أعظم الشرك الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى في آخر رمق من حياته .

الثامن عشر : أن الجهل بالدين ، والانحراف عن الفهم الصحيح له ، هما أهم أسباب وقوع كثير من الناس في الشرك .

التاسع عشر : ظهور ما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور تدخل حمى التوحيد .

العشرون : أن حماية حمى التوحيد من الشرك وذرائعه ، أهم ما كان يعنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم ، ويجب أن تكون أهم ما يعني به كل مسلم دعوة ، وبيانا ، وجهادة وحماية .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم ان يرد المسلمين الى عقيدتهم رداً جميلاً ، وان يحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهارس

ثبت المراجع ..

فهرس الموضوعات ..

" ثبت المراجـع "

القرآن الكريـــــم

الكتاب	المؤلف	الطبعة
١) ابن تيمية السلفي	محمد خليل هراس	ط ٠ دار الكتب العلمية
٢) ابو حامد الغزالي والتصوف	عبدالرحمن دمشقية	ط . دار طيبة
٣) احكام القرآن	ابو بكر بن العربي	ط ٠ دار الفكر
٤) الاصنام	الكلبي	ط ٠ المطبعة الأميرية
٥) اضواء البيان	محمد الأمين الشنقيطي	ط ٠ الثانية
٦) الأعلام	الزركلي	ط ٠ الثالثة
٧) اغاثة اللهفان	ابن قيم الجوزيه	ط ٠ دار المعرفة
٨) اقتضاء الصراط المستقيم	ابن تيمية ت : د ٠ ناصر العقل	ط ٠ الأولى
٩) الأدلة القواطع والبراهيم	عبدالرحمن بن سعدي	ط ٠ مكتبة المعارف
١٠) الاصابة	الحافظ ابن حجر	ط٠
١١) الايمان في القرآن	د ٠ مصطفى عبدالواحد	ط ٠ دار الرائد العربي
١٢) البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير	ط٠ دار الكتب العلمية
١٣) بيان تلبيس الجهمية	ابن تيمية	ط٠ الأولى
١٤) بيان فضل علم السلف على علم الخلف	ابن رجب ت: محمد بن ناصر العجمي	ط ٠ الأولى
١٥) تاريخ الطبري	ابن جرير الطبري	ط٠ دار سويدان
١٦) تاريخ العرب قبل الاسلام	د ٠ عبدالعزيز سالم	ط٠ مؤسسة شباب الجامعة
١٧) تجريد التوحيد المفيد	أحمد بن على المقريزي	ط ٠ الأولى
١٨) ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان	ابن الوزير	ط٠ الجمعية العلمية الأزهرية
١٩) تطهير الاعتقاد	محمد بن اسماعيل الصنعاني	ط ٠ مكتبة المعارف .

تابع : ثبت المراجع

٢٠) تفسير القرآن العظيم	الحافظ ابن كثير	ط • دار الفكر
٢١) تقريب التهذيب	الحافظ ابن حجر	ط • دار المعرفة
٢٢) تلبيس ابليس	ابن الجوزي	ط • دار الكتب العلمية
٢٣) تهذيب اللغة	الأزهري	ط• الدار المصرية للتأليف والترجمة
٢٤) توحيد الخلاق	سليمان بن عبد الله آل الشيخ	ط • الأولى
٢٥) التوحيد مع اخلاص العمل لوجه الله عز وجل	ابن تيمية ت د • محمد الجليند	ط • الثالثة
٢٦) تيسير العزيز الحميد	سليمان بن عبد الله آل الشيخ	ط• المكتب الاسلامي
٢٧) الجامع الصحيح	محمد بن اسماعيل البخاري	ط• دار المعرفة
٢٨) الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	ط• الثالثة ـ دار الكتاب العربي
٢٩) الجاهلية قديما وحديثا	احمد أمين عبد الغفار	ط• شركة الشعاع للنشر
٣٠) الخطط المقريزية	احمد بن علي المقريزي	ط • دار صادر
٣١) خلق افعال العباد	محمد بن اسماعيل ~~العباد~~ البخاري	ط• الأولى دار الرسالة
٣٢) درء تعارض العقل والنقل	ابن تيمية ت : د • محمد رشاد سالم	ط • الأولى
٣٣) الدر النضيد	محمد بن علي الشوكاني	ط• مكتبة المعارف
٣٤) دعوة الرسل	محمد العدوي	ط• مصطفى البابي الحلبي
٣٥) دعوة التوحيد	محمد خليل هراس	ط• مكتبة الصحابة
٣٦) دلائل التوحيد	جمال الدين القاسمي	ط • دار الكتب العلمية
٣٧) دلائل النبوة	ابو نعيم	ط • الأولى
~~٣٨) دلائل النبوة~~	~~الاصبهاني~~	~~ط • الأولى~~
٣٩) الدين الخالص	صديق حسن خان	ط• مكتبة الفرقان
٤٠) الرد على الزنادقة والجهمية	احمد بن حنبل	ط• المطبعة السلفية

تابع : ثبت المراجع

٤١) الرد على الجهمية	الدارمي	ط• المكتب الاسلامي
٤٢) الروض الآنف	السهيلي	ط • دار المعرفة
٤٣) سنن النسائي	النسائي	ط • دار الكتب العلمية
٤٤) السيرة النبوية	ابن هشام	ط• مصطفى البابي الحلبي
٤٥) سير اعلام النبلاء	الذهبي	ط • الأولى مؤسسة الرسالة
٤٦) شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبي العز	ط• الثامنة . المكتب الاسلامي
٤٧) شرح الاصول الخمسة	القاضي عبدالجبار	ط• دار الهلال
٤٨) شرح الفقه الأكبر	ملا على القاري	ط• مصطفى البابي الحلبي
٤٩) شرح السنة	البغوي	ط• المكتب الاسلامي
٥٠) صحيح مسلم بشرح النووي	مسلم بن الحجاج القشيري	ط• دار احياء التراث العربي
٥١) الصحاح	اسماعيل الجوهري	ط• الثالثة
٥٢) الصواعق المنزلة	ابن قيم الجوزيه ت : د • على فقيهي ، د • احمد الغامدي	ط • الأولى
٥٣) الصواعق المرسلة	ابن قيم الجوزيه ت : د • على الدخيل الله	ط• دار المعرفة
٥٤) العقيدة في الله	د • عمر الاشقر	ط• الخامسة
٥٥) الفتاوى	ابن تيمية	ط• مكتبة المعارف بالمغرب
٥٦) فتح المجيد	عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ	ط• مكتبة الرياض
٥٧) فتح القدير	محمد بن على الشوكاني	ط • دار الفكر
٥٨) الفرق بين الفرق	البغدادي	ط • دار المعرفة
٥٩) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة	ابن تيمية	ط• الثالثة

تابع : ثبت المراجع

٦٠) القاموس المحيط	الفيوز ابادي	ط • دار الجيل
٦١) الكامل في التاريخ	ابن الأثير	ط • دار صادر
٦٢) كتاب الأموال	القاسم بن سلام	ط •
٦٣) كتاب الارشاد	ابو المعالي الجويني	ط • الاولى
٦٤) كتاب التوحيد	ابن خزيمة ت : د عبدالعزيز الشهوان	ط• دار الرشد
٦٥) كتاب التوحيد	ابن منده ت : د • على محمد ناصر فقيهي	ط • الأولى
٦٦) كشف الشبهات	محمد بن عبدالوهاب	ط• دار البيان
٦٧) لسان العرب	ابن منظور	ط• دار صادر
٦٨) لوامع الأنوار البهية	السفاريني	ط• المكتب الاسلامي ـ مكتبة اسامة
٦٩) مدارج السالكين	ابن قيم الجوزيه	ط• دار الكتاب العربي
٧٠) مجموعة الرسائل والمسائل	ابن تيمية	ط• دار الكتب العلمية
٧١) مجموعة الرسائل الكبرى	ابن تيمية	ط• دار احياء التراث العربي
٧٢) مختصر سنن ابي داود	الحافظ المنذري	ط• مكتبة السنة المحمدية
٧٣) مختصر السيرة النبوية	محمد بن عبدالوهاب	ط• الجامعة الاسلامية
٧٤) مختصر الصواعق المرسلة	ابن قيم الجوزيه	ط• مكتبة المثنى
٧٥) المستدرك	الحاكم	ط• مطبعة الرياض
٧٦) مسند ابي يعلي	ابو يعلي الموصلي	ط• دار المأمون
٧٧) مصرع الشرك والخرافة	خالد على الحاج	ط• ادارة الشئون الدينية بقطر
٧٨) معالم التنزيل	البغوي	ط• دار المعرفة
٧٩) معارج القبول	حافظ حكمي	ط• المطبعة السلفية
٨٠) معجم البلدان	ياقوت الحموي	ط• دار احياء التراث العربي

تابع : ثبت المراجع

٨١) معجم مقاييس اللغة — ابو الحسين بن زكريا، ت : عبدالسلام هارون — ط· دار الكتب العلمية

٨٢) مقالات الاسلاميين — ابو الحسن الاشعري — ط·

٨٣) الملل والنحل — الشهرستاني — ط· دار الفكر

٨٤) منهاج السنة — ابن تيمية — ط· دار الكتب العلمية

٨٥) منهج القرآن في الدعوة الى الايمان — د· على بن محمد ناصر فقيهي — ط· الأولى

٨٦) منهج القرآن في تربية المجتمع — د· عبدالفتاح عاشرو — ط· الأولى

٨٧) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول — ابن تيمية — ط· الأولى ـ دار الكتب العلمية

٨٨) النهاية في غريب الحديث والأثر — ابن الأثير — ط· دار الفكر

٨٩) نور اليقين — محمد الخضري — ط· دار الفكر

٩٠) هذه هي الصوفية — عبدالرحمن الوكيل — ط· مكتبة اسامة

استـــدراك :

١) اثبات صفة العلوة — ابن قدامـــــة، ت: د· أحمد عطية الغامدي — ط : الأولى

٢) الاسماء والصفات — البيهقي — ط : دار الكتب العلمية

٣) رسائل العدل والتوحيد — القاضي عبدالجبار — ط : دار الهلال

٤) العبودة — ابن تيمية — ط : دار الكتب العلمية

٥) الفتوى الحموية الكبرى — ابن تيمية — ط : مطبعة المدني

" فهرس الموضوعـــات "